

كنوز قرآنية

الجزء الثاني



مقدمة أخرى لفضيلة الشيخ/ أحمد فريد (*)

الحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل، وأفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمّن الكتاب الذي كتبه: أنّ رحمته سبقت غضبه، دعا عباده إلى دار السلام، فعمّهم بالدعوة حجّةً منه عليهم وعدلاً، وخصّ بالهداية والتوفيق من شاء نعمة ومنّةً وفضلاً، فهذا عدله وحكمته وهو العزيز الحكيم، وذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى به طرفة عينٍ عن فضله ورحمته.

وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، أرسله رحمةً للعالمين، وقدوةً للعالمين، ومحجةً للسالكين، وحجةً على العباد أجمعين، فصلّى الله وسلّم وبارك عليه كما وحّد الله - عزَّ وجلَّ - وعرفنا به ودعا إليه، وسلِّم تسليمًا.

ثمّ أمّا بعد:

فقد اطلعت على رسالة ابني الحبيب/ هشام عبد الجوّاد (المعاني الإيمانية في القصص القرآني)، وذكر فيها فوائد وآثار إيمانية في قصة طالوت، وقصة موسى

(*) كنتُ بعد ظهور الجزء الأول من (كنوز قرآنية) قد كتبتُ رسالة وسميتُها (المعاني الإيمانية في القصص القرآني) وطلبت من الشيخ مقدمةً لها، فاستجاب جزاه الله خيرًا - وكتب هذه المقدمة، ولكن لم يقدِّر الله ظهور الرسالة، فجعلتها في الجزء الثاني من كتاب (كنوز قرآنية) كفصلٍ من فصوله، ورأيتُ أن أنقل مقدمة الشيخ لها مع ظهور الكتاب بجزئيه، والله المستعان.

مع فرعون، وقصة سليمان مع ملكة سبأ، وقصة آدم وإبليس، وقصة الذي مرّ على قرية، ونبّه على لطائف في المعاني والألفاظ، ودقائق بيانية ممّا عهدناه عنه في كتابه السابق البديع (كنوز قرآنية)، وليته يتمّ هذا العمل مع بقية القصص القرآني، حتى يستشعر القارئ حلاوة القرآن، وتتفجر معانيه؛ فالتربية بالقصة من أنجع الوسائل حيث تأخذ القصة بمجامع القلب والفكر، والقصص القرآني لا يُقصد به مجرد التسلية، وإنّما يقصد به غرس المعاني الإيمانية، وتعميق المفاهيم الإسلامية، والارتقاء بمستوى الأمّة الأخلاقي والإيماني، ولذا يسكت القصص عن كثيرٍ من التفصيلات التي ليست فيها عبر وعظة، وهو قصصٌ حق ليس من الخيال، أو من صنع البشر، وإنّما هو من كلام خالق البشر، ورب كلّ شيء ومليكه، وهو يشمَل على ثلث القرآن تقريبًا، وهو من مميزات القرآن المكي حيث احتاج الصحابة إلى التسلية بأخبار السابقين، ومعرفة سنن الله عزّ وجلّ، والتثبيت على الحق ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، فأسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبارك لابني هشام في قلمه، وأن يوفقه إلى مزيد من الخير، وأن ينفع به، ويرفعه فوق كثيرٍ من خلقه، وصلّى الله وسلّم وبارك على محمّدٍ وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د. أحمد فريد

الإسكندرية ٢ جمادى الأولى ١٤٢٧هـ

مُقدِّمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدِّين.

ثمّ أمّا بعد: فهذا هو الجزء الثاني من كتاب «**كنوز قرآنية**»، فأسأل الله أن ينفعني به أنا وجميع المسلمين في الدنيا والآخرة، وأن يجعله سببًا لزيادة الإيمان في قلوبنا، وسببًا لشرح صدورنا بالقرآن وللقرآن، ولا أنسى أن أنبّه على أمرين:

١ ـ ما ذكرتُه من معنىً إنّما هو احتمال ظهر لي أو لغيري صحته، ولا يعني هذه أنّه هو وحده الاحتمال الصحيح، ولا حتى أنّه صحيحٌ يقينًا، ولكن حسبي أن ألفت النظر إلى دقة القرآن وحلاوته، وإلى أنّ كل كلمةٍ بل كلّ حرفٍ منه مقصود.

٢ ـ قد عزوتُ بعض النقول عن الزمخشري، وهو من أئمّة المعتزلة، وقد قيل إنّه تاب من ذلك قبل موته، والله أعلم بصحة ذلك، وعلى كلٍ فهو من فحول أئمة اللغة، التي بفهمها يتسنى كمال فهم القرآن، ولذا نقلتُ من كلامه فيما يتعلق باللغة ما ظهر لي صحته، ولا يعني ذلك الحث على قراءة كتابه الكشاف للمبتدئين الذين قد يفتنون بكلامه في الاعتزال، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم.

كتبه

د/ هشام عبد الجواد الزهيري

الفصل الأول

الكنوز الإيمانية في الحروف المقطعة



وقد كثر كلام العلماء في أسرار فواتح السور والمراد منها، ولكلٍ منهم اجتهاده ـ رحمهم الله أجمعين ـ، ولكن ما نجزم به هو خطأ القول بلزوم التوقف عن تفسيرها، وأنّها من الغيب الذي لا يُبحث عنه، إذ عموم قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص:٢٩)، يفيد أنّ آيات الكتاب كلّها نزلت للتدبر، فكيف يتدبر المرء ما يلزمه التوقف عن البحث في معناه؟ وكذا نجزم بخطأ بل ببطلان القول الذي يجعلها دليلاً على عمر الأمّة فهو قولٌ باطلٌ سندًا ومتنًا وواقعًا، فالغيب لا يعلمه إلاّ الله، وهذه الطريقة مأخوذة عن أهل الكتاب من اليهود، لا عن النبي ﷺ وصحابته ﷺ، وهي مخالفة لما أتى به رسولنا من نفي علم الغيب عن غير الله، خاصةً إنّ عمر الأمة معناه انتهاء الدنيا وقيام الساعة، لأنّ أمّة الإسلام آخر الأمم، أفاده الشيخ ياسر برهامي.

قلتُ: والذي يظهر من هذه الحروف ـ والله أعلم ـ أنّها تدل على المعاني المذكورة في السور التي بدأت بها، وذلك بأمرين:

١ ـ صفات هذه الحروف المناسبة للمعاني المذكورة في السورة، وكذا مخارجها.

٢ ـ الكلمات التي تدل على المعاني المذكورة في السورة، وفي هذه الكلمات تكثر الحروف التي بدأت بها السورة، وربما كان في السورة كلمات لم تذكر في غيرها، ويكون فيها كثير من هذه الحروف المقطعة كما سأبين ـ إن شاء الله تعالى ـ.



سورة البقرة

وقد بدأها الله بقوله: ﴿الم﴾، وفيها ثلاثة أحرف:

﴿أ﴾، ومن صفاتها الشدة، الانفتاح، ومخرجها الحلق.

﴿ل﴾، ومن صفاتها التوسط، الاستفال، والانفتاح، الانزلاق.

﴿م﴾، ومن صفاتها التوسط، الانفتاح، الاستفال، الانزلاق.

فإذا عرفت هذا، فتأمّل ما ذكر في سورة البقرة من أمر البقرة التي أُمر بنو إسرائيل بذبحها، وكيف شددّوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم (الشدة التي هي من صفات الألف)، وكذا ما ذُكر من أمر تحويل القبلة وكيف كان الأمر كبيراً شديداً إلاّ على المؤمنين: ﴿وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله﴾ (البقرة:١٤٣)، وكذا ما ذكرت من شدة بغض إبراهيم للكفار حتى أنّه سأل ربه أن يخص المؤمنين بالرزق، فأخبره الله بأنّ رزق الدنيا لكل أحد: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٦)، وكذا ما ذكر فيها من بيان شدة أمر الدَّين وكتابته حتى نزلت في كتابته أكبر آية في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٢).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة بغض الكفار من المشركين وأهل الكتاب للمسلمين حتى أنّهم ما يودون أن ينزل عليهم من خير: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة:١٠٥).

وكذا ما ذُكـر فيها من شدة أمر السـحر، فتعلّمه من هارون ومـاروت كفر: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٠٣).

وكذا ما ذُكـر فيها من رغـبة نبينا الشديدة في تحـويل القبلة: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة حرص اليهود على الحياة وحبّهم لها: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٩٦).

وكذا ما ذُكر فيها من التشديد على بني إسرائيل في التوبة من عبادة العجل، وذلك بقتل بعضـهم بعضًا: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٥٤).

وكذا ما ذُكـر فيها مـن شدة انتقام الله من المجـرمين من بني إسرائيل الذين بدّلوا أمره وتحايلوا عليه سواء من اصطادوا يوم السبت، أو الذين بدلّوا أمره عند دخولهم القرية: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥)، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (البقرة: ٥٨-٥٩).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة أمر الربا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩).

وكذا ما ذُكر فيها مما فتح الله به على بني إسرائيل (المناسب للانفتاح صفة الألف، اللام، الميم)، ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة: ٦٠). ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٥٧).

وكذا ما فتح الله به على العرب ببعثة أشرف رسول لهم: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩).

وكذا ما فتح الله به على عبديه طالوت، داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٤٧). ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (البقرة: ٢٥١).

وكذا ما فتح الله به على رسوله الخليل إبراهيم في مجادلته للملك الكافر: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨)،

وكذا ما فتح به عليه من إحياء الموتى أمامه ليصل إلى أعلى درجات اليقين: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

وكذا ما فتح الله به على الذي مرّ على القرية بعد هلاك أهلها، فأماته الله مائة عام: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

وكذا ما فتح الله به على بني إسرائيل من إرسال الملائكة إليهم بالتابوت المقدس بعد ضياعه منهم ليكون آيةً لهم على ملك طالوت: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٨).

وكذا ما فتح الله به على رسله ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وكذا ما يفتح الله به على الشهداء: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٥٤).

وكذا ما ذُكر فيها من اليُسر في الدِّين (المناسب لصفة الانزلاق لحرفي الميم واللام)، فقد ذكر فيها سبحانه تيسيره لأمر الصيام ورفع الحرج فيها عن المريض: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وكذا تيسيره بإباحة الأكل والجماع حتى طلوع الفجر: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ

وَعفَا عنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة:١٨٧).

وكذا تيسيره بإباحة التجارة في أشهر الحج: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٨)، فقد نزلت في إباحة الإتجار أيام الحج، وكذا الأمر بالتيسير على المعسر: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨٠).

وكذا تيسيره سبحانه على من تمتع بالعمرة إلى الحج وتأذى من رأسه: ﴿ وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة:١٩٦)، وكذا تيسيره سبحانه بأن ضيّق دائرةالمحرمات، بل وأباحها عند الضرورة: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٣)، فلا إله إلا الله، محمد رسول الله، اللهمّ إنّ عظمة كتابك وكلامك قد ملئت علينا قلوبنا، فأدخلنا به الجنّة، واغفر لنا تقصيرنا يا أرحم الراحمين، أيُّ كلامٍ كلامك، وأيُّ عظمةٍ عظمتك، لا إله إلا أنت سبحانك إنّا كنّا من الظالمين.

وكذا ما ذُكر فيها من دناءة همّة بني إسرائيل بطلب الأدنى من الطعام (وذلك مناسب لصفة الاستفال التي هي صفة الميم، اللام)، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ (البقرة:٦١).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر إبليس لمّا أبى واستكبر عن أمر الله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)، وكذا ما ذُكر فيها من هبوط آدم وزوجه إلى الأرض لمّا عصيا ربهما: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ

وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: ٣٦)، ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٣٨).

وكذا ما ذُكر فيها من دناءة همّة اليهود وحرصهم على الحياة، ولو كانت مهينةً ذليلةً، وقد تقدم ذكر ذلك، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر المعتدين يوم السبت: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر التابعين مع المتبوعين يوم القيامة: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٦-١٦٧).

وكذا استفال أمر الذين يكتمون ما أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٤)، وكذا استفال أمر الربا: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

ثمّ تأمل ما ذُكر فيها من كلمات تشتمل على هذه الحروف الثلاثة: (الألف، اللام، الميم) ممّا يدور حوله الآيات كآدم، الملائكة، جبريل، ميكال، ونفي أن يكون الشهداء أموات، تحويل القبلة، وقوله: (أتموا الصيامَ إلى الليل)، (أشهر معلومات)، (ألدُّ الخصام)، (زللتم)، (مرضات الله)، (أصلح)، (الغمام)، (لحم الخنزير)، (أُهلّ)، (مثل الذين كفروا)، (خلوا)، (فاقتلوا أنفسكم)، (إبراهيم وإسماعيل)، (بقلها)، (فومها)، (مسلَّمة لاشية فيها)، (مسلمون)، (مخلصون)، (على قلبك)، (ملك سليمان)، (ببابل)، (ماروت)، (الملكين)، (المشرق والمغرب)، (أسلم)، (إسرائيل)، (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)،

(ليعلمون أنّه الحق)، (صلوات من ربهم ورحمة)، (هم المهتدون)، ثم تأمل آية الكرسي التي هي أعظم آية في البقرة، وفي القرآن كلّه كيف كثرت فيها الكلمات التي تحتوي على هذه الأحرف الثلاثة: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

فائدة: قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ مَخرج الألف من الحلق وهو أول المخارج من الداخل، ومخرج اللام من اللسان وهو أوسطها، ومخرج الميم من الشفة وهو آخرها، ولذا اشتملت السور التي بدأت بذكر هذه الحروف الثلاثة على ذكر أول الخلق (قلتُ: وفي سورة البقرة ذكر لقصة خلق آدم، وقصة إبليس معه) وأوسطه من مخاصمات الرسل مع أقوامهم، وما يكون آخر الخلق، فناسب ذكرها لأول الخلق وأوسطه وآخره على ترتيب مخارج هذه الحروف.

* * *

سورة آل عمران

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ (آل عمران: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة انتقام الله من الكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران: ٢٤)، وكذا ما ذُكر فيها من شدة بؤس الكفار يوم القيامة وشدة عذابهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٠)، وكذا شدة الميثاق الذي أخذه الله على رسله، وكذا على أتباعهم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ٨١-٨٢). ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة بغض الكفار للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (آل عمران: ١١٨).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة الغمّ الذي أصاب المؤمنين يوم أُحد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة إيذاء الكفار للمؤمنين: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)، وكذا شدة ما ينتظر اليهود ـ الذين سبوا الله ـ من عذاب: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨١-١٨٢).

وكذا ما ذُكر ممّا فتح الله به على رسله وآل رسله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣٤)، وكذا ما فتح الله به على مريم وأمّها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران: ٣٦-٣٧)، ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢).

وكذا ما فتح الله به على عبده زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٣٩-٤٠).

وكذا ما فتح الله به على رسوله وصحابته بإمدادهم بالملائكة لتجاهد معهم عدوهم: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

(١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٤، ١٢٦).

وكذا ما فتح الله به على أمّتنا بجعلها خير أمّة أخرجت للناس: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وكذا ما فتح الله به على رسوله وأصحابه من ثباتٍ وأمانٍ بعدما أصابهم الغمّ: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٤)، ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٤).

وكذا ما يفتح الله به على الشهداء: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

وكذا ما يفتح الله به على المؤمنين من نعمة التآخي في الله بعد العداوة والهداية بعد الغواية: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

وكذا نعمة بعث الرسول إليهم: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وكذا ما فتح الله به على رسوله من عظيم خلق: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر من كفر بالرسول مع علمه بالحق: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ (آل عمران: ٨٦-٨٨).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر المؤمنين إذا ما اتبعوا أهل الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٠)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٩).

وكذا استفال أمر من ابتغى غير الإسلام، وكفر به: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران: ١٢)، وكذا دناءة شهوات الدنيا وعُلُو نعيم الآخرة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (آل عمران: ١٤-١٥).

وكذا استفال أمر من عادى الرسل والأولياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران: ٢١-٢٢)، وكذا استفال حال ومآل من يدخل النّار ولو نالوا ما نالوا من الدنيا والعياذ بالله: ﴿رَبَّنَا

إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ (آل عمران:١٩٢)، ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (آل عمران:١٩٦-١٩٧).

وكذا استفال أمر من يحبون أن يحمدوا على ما لم يفعلوا: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٨٨)، وكذا استفال أمر البخلاء: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، وكذا استفال أمر من كفر بعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (آل عمران:٥٥-٥٦).

وكذا ما ذُكر فيها من تيسير الله على عباده في تكليفهم بالحج للمستطيع فقط: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران:٩٧)، وكذا ما ذُكر فيها من تخفيف الله عن عباده المؤمنين مصابهم يوم أُحد (وذلك مناسب لانزلاق اللام، والميم): ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (آل عمران:١٣٩-١٤٠).

وكذا ما ذُكر فيها من سهولة أمر خلقة عيسى عليه السلام في قدرة الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران:٥٩-٦٠).

فائدة: من بدائع كتاب الله أنّ الألف أول حرف في اللغة العربية، فتأمّل كيف ذُكر في سورة البقرة آدم أول البشر، وإبليس أبي الجنّ، وقصة أول

الخليقة، وكذا ما ذكر في سورة آل عمران من كون الكعبة أول بيت وضع للعبادة: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (آل عمران: ٩٦-٩٧).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف الثلاثة مثل: (منزلين)، (مسومين)، (الملائكة)، (تفشلا)، (تمسسكم)، (إن الله بما يعملون محيط)، (مثل ما ينفقون)، (ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)، (يتلون)، (يأمرون بالمعروف)، (ينهون عن المنكر)، (حبلٍ من الله)، (شاورهم في الأمر)، (فبما رحمت من الله لنت لهم)، (يخذلكم)، (يغلل)، (بما غلّ يوم القيامة)، (ضربت عليهم المسكنة)، (ما يعلم تأويله)، (الراسخون في العلم)، (أموالهم ولا أولادهم)، (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم)، (ما لهم من ناصرين)، (اللهم مالك الملك)، (محضرًا)، (يحذركم الله)، (آل إبراهيم)، (آل عمران)، (قصة مريم)، (متوفيك)، (مطهرك)، (يعلم ما في السموات وما في الأرض)، (كلمة سواء)، (حاججتم فيما لكم به علم)، (الله يعلم وأنتم لا تعلمون)، (يصوركم في الأرحام)، (لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم)، (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، (المنفقين والمستغفرين)، (كل الطعام)، (حلاً لبني إسرائيل)، (حرّم)، (له أسلم من في السموات والأرض)، (أقررتم وأخذتم)، (مصدقٌ لما معكم)، (من الشاهدين)، (من يعتصم)، (صراطٍ مستقيم)، (الكتاب المنير)، (مناديًا)، (لا يخلف الميعاد)، (أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، (لمغفرةٌ من الله ورحمة)، (يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)، (فليتوكل المؤمنون)، (ليس لك من الأمر شيء)، (فإنهم ظالمون)، (الأيام نداولها)، (ليمحق الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين)، (بل الله مولاكم).

سورة الأعراف

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف:١)، وقد تقدم ذكر صفات الألف، واللام، والميم، وأمّا (ص) فمن صفاتها الاستعلاء، التفخيم، والإطباق.

فتأمّل ما ذُكر فيها من شدة نقمة الله على المعاندين للرسل المكذبين لهم، وكيف كان استفال أمرهم، فقال سبحانه عن قوم نوح: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ (الأعراف:٦٤)، وقال عن قوم هود: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٧٢)، وقال عن قوم صالح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (الأعراف:٧٨)، وقال عن قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٨٤)، وقال قوم شعيب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٩١-٩٢).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة أخذ الله لقوم فرعون واستفال أمرهم: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٣٦)، وكذا ما ذُكر فيها من شدة بطش فرعون وتنكيله بالمؤمنين بغيًا منه وظلمًا: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف:١٢٧)، ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (الأعراف:١٤١).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة انتقام الله من الناكصين عن شرعه من بني إسرائيل، وكيف كان استفال أمرهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف: ١٦٥-١٦٦).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر المعاندين من بني إسرائيل إلى يوم القيامة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٦٧)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال همم من ورثوا الكتاب من بني إسرائيل: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٩).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الصادّين عن سبيل الله: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف: ٤٤-٤٥).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر عبدة العجل، وكذا كل مفترٍ إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ (الأعراف: ١٥٢)، وكذا ما ذُكر من استفال همم السحرة في بداية أمرهم (وذلك يناسب اللام، والميم).

وكذا علو همتهم واستعلاءهم بالإيمان عن كل شهوات الدنيا ومطامعها (وذلك يناسب حرف الصاد)، ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ (الأعراف: ١١٣-١١٤)، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٣-١٢٦).

وكذا ما ذُكر فيها من استكبار واستعلاء فرعون وملأه عن الحق: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ١٠٩-١١٢)، ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٢-١٣٥).

وكذا ما ذُكر فيها من استكبار واستعلاء الأمم المكذبة عن الإسلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأعراف: ٥٩-٦٠)، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف: ٦٥-٦٦)، وقال عن قوم فرعون: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف: ٧٦-٧٧)، وقال عن قوم صالح: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢)، وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨).

وكذ ما ذُكر فيها مما يفتح به الله على الأمم لو آمنت بالله ورسله من خيرٍ عميم (وذلك يناسب صفة الانفتاح): ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦)، وكذا ما فتح به على عباده من خيرٍ عميم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ

إذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٧)، وكذا ما فتح الله به على عبده موسى، وكذا ما حباه به من علو مكانة: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٤-١٤٥).

وكذا ما ذُكر فيها من سهولة ويسر أحكام الشرع وتكاليفه وكثرة ما أبيح وقلّة المحرمات منه (وذلك يناسب صفة الانزلاق): ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الأعراف:٤٢)، ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧)، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف:٣٢-٣٣).

وكذا ما ذُكر فيها من انزلاق بني إسرائيل في هاوية الكفر: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٤٨-١٤٩)، ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:١٣٨-١٤٠).

ثمّ تأمل ما ذُكر فيها من أمر الميثاق الذي أُخذ على البشر في أول الأمر، وهم في ظهر آدم: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٤)، وذلك مناسب لحرف الألف أول حروف اللغة العربية، وكذا ما ذُكر فيها من أمر أول الخلق للسموات والأرض: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤). وكذا قصة آدم مع إبليس وما حدث أول الخليقة، وكلٌّ ذلك مناسب لحرف الألف، وكذا ما ذُكر فيها من مخاصمة الشيطان لربه، ومخاصمة الرسل لقومهم، وذلك مناسب لحرف الصاد.

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف (الألف، اللام، والميم، والصاد) فكلمة (الميثاق)، (مشارق الأرض ومغاربها)، (ذكر نبينا الأمي)، (كثرة ذكر موسى)، (ميقات)، (مفصلات)، (آدم)، (الليل)، (لنقصنّ)، (بعلم)، (الملائكة)، (معايش)، (قليلاً ما تشكرون)، (الناصحين)، (يخصفان)، (تلكما)، (لأملأنّ)، (من بين أيديهم ومن خلفهم)، (مذءومًا مدحورًا)، (مخلصين)، (الضلالة)، (قبيلة)، (أجلهم)، (أظلم)، (نصيبهم)، (ينالهم)، (لكل أمّة أجل)، (الصالحات)، (أصحاب)، (لعنت)، (أمم)، (يصدون)، (فصلناه)، (أنصح لكم)، (ناصح أمين)، (قصورًا)، (ألقوا)، (انقلبوا صاغرين)، (ألق عصاك)، (فغلبوا هنالك)، (نقصٍ من الثمرات)، (إلى أجلٍ هم بالغوه)، (ليلة)، (أصلح)، (يحل لهم)، (نصروه)، (ظللنا)، (المصلحين)، (نفصل)، (أملي لهم)، (من يضلل)، (لهم

قلوب)، (فاقصص القصص)، (مثلاً)، (ألهم أرجل)، (لا أملك)، (لا يقصرون)، (بصائر)، (الآصال)، (أم أنتم صامتون).

وتأمل ما ذُكر فيها من تضييق فرعون على أهل مصر وسوقهم بالإكراه: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف: ١١١-١١٢)، وذلك مناسب لصفة الإطباق لحرف الصاد، وكذا تضييقه وجبروته - لعنه الله - على أتباع موسى المؤمنين: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

وكذا ما ذُكر فيها من إحكام الله الخناق على الفراعنة ليتوبوا ويتعظوا، ولكن لم يتعظوا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

ســورة يونس

وقد بدأت بقـوله تعالى: ﴿ الر ﴾ (يونس:١)، وقد تقدم الكـلام على صفات (الألف واللام)، وأمّا (ر) فمن صفاتها التكرير، الانزلاق.

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة عذاب الكفار: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس:٤)، وكذا ما ذُكر فيها من شدة تمسك الفراعنة بباطلهم حتى أنّهم لا يريدون مجرد الالتفات عنه: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٧٨)، وكذا شدة ندم الكفار يوم القيـامة واستفال أمرهم: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ (يونس:٥٤)، وكذا شدة ظلم الإنسان وكفره، فـما أسرع نسيانه لفضل الله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس:١٢).

وكذا ما ذُكر فيها استفال أمر الدنيا وأنّ ما ينبغي الفرح به هو أمور الآخرة: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (يونس:٥٨)، ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس:٢٤).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر السحر والسحرة والمفسدين: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس: ٨٠-٨٢)،

وكذا استفال أمر فرعون وأتباعه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (يونس: ٩٠-٩٢).

وكذا استفال أمر الكفار يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ۝٢٩ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٢٨-٣٠).

وكذا ما ذُكر فيها مما فتح الله به على عباده من فضله وكرمه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١)، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥-٦)، وكذا ما فتح الله به من نعمه على بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (يونس: ٩٣).

وكذا ما ذُكر فيها من تكرار كفر الكفار وعدم اتعاظهم في كل عصر ومصر، واستمرار نصر الله للمؤمنين (وذلك يناسب صفة التكرار الخاصة بالراء) ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۝١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٢-١٠٣)، وكذا تكرار كفر النّاس بنعمة الله بعد خروجهم من المآزق: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢-٢٣).

وكذا استمرار كفر الكفار ولو جاءتهم كل آية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٩٦-٩٧)، وكذا استمرار حصول الخير للأولياء في كل عصرٍ ومصر، وعدم تبدل ذلك: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (يونس: ٦٢-٦٤).

وكذا استمرار تكذيب الأمم للبينات: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (يونس: ٧٤)، وكذا تكرار قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ (يونس: ٧)، ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ (يونس: ١٥)، وكذا تكرار ذكر ما ينفي الشك فيما أُنزل إلى رسولنا: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ (يونس: ٩٤)، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ (يونس: ١٠٤).

ثمّ تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف مثل كلمة (أسلفت)، (خلائف)، (تلقاء)، (لتلفتنا)، (لقاءنا)، (أكبر)، (أصغر)، (اتل)، (لا أملك)، (يفلح)، (فاختلط)، (أولياء)، (فزيلّنا)، (دار السلام)، (ذلّة)، (الضلال)، (مظلمًا)، (لا تبديل)، (يروا العذاب الأليم)، (ذرية)، (السحر)، (سيبطله)، (فرعون)، (أدركه الغرق)، (اصبر)، (يردك بخير)، (فلارادّ لفضله)، (برحمتك)، (فرعون لعالٍ)، (المسرفين)، (كره المجرمون)، (ألقوا ما أنتم ملقون)، (بشر).

ثم تأمّل ما ذكر فيها من أول أمر خلق السموات والأرض، وذلك مناسبٌ لحرف الألف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٣).

وتأمل ما ذُكر فيها من سهولة الخلق، وسهولة إعادته على الله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يونس: ٣٥)، وكذا سهولة إحصاء أعمال العباد على الله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)، وكذا سهولة هداية الخلق جميعًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ٩٩-١٠٠)، وذلك كلّه مناسب لصفة الانزلاق.

سـورة هـود

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ (هود:١)، مثل سورة يونس.

فتأمّل ما ذُكر فيها من شدة هول يوم القيامة، وشدة ما ينتظر الكفار فيه من عذاب: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ (هود:١٠٣-١٠٦)، وكذا شدة أخذ الله للأمم المكذبة: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)، وكذا ما ذُكر فيها من شدة استغراب زوجة إبراهيم عليه السلام لولادتها: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود:٧١-٧٢)، وكذا ما ذُكر فيها من ركون لوطٍ عليه السلام لركن الله الشديد: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود:٨٠).

وكذا ما ذُكر من استفال أمر المجرمين الصادّين عن سبيل الله: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (هود:١٨-٢٢)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر مَنْ طلب الدنيا، وجعلها أكبر همّه، وكذا استفال أمر مكذبي نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى ـ عليهم السلام ـ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ

مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود: ١٠٠-١٠١)، وكذا استفال أمر مَنْ ركن إلى الظالمين ووالاهم: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾ (هود:١١٣).

وكذا استفال أمر فرعون وقومه: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (هود:٩٧-٩٩)، وكذا ما ذُكر فيها مما حبا الله به آل بيت إبراهيم عليه السلام: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود:٧٣)، (وذلك يناسب صفة الانفتاح)، وكذا ما فتح الله به على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من ذكر أخبار الأمم السابقة ليثبته، ولتكون له ولقومه الموعظة: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ١٢٠)، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩)، وكذا ما فتح الله به على رسوله وأمّته من إنزاله لهم الكتاب مفصلاً: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

وكذا سعة كرم الله وعلمه الشامل بكل مخلوق (وذلك أيضًا يناسب صفة الانفتاح) ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (هود:٦).

وكذا ما تكرر ذكره من إهلاكه سبحانه وإبعاده للأمم المكذبة: ﴿أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ﴾ (هود: ٦٠)، ﴿أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (هود:٦٨)، ﴿أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود:٥٩)، وكذا ما تكرر من الرسل من أمرهم قومهم بتوحيد الله، كما في قوله سبحانه عن قول هود: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: ٥٠)، وقال عن صالح: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود:٦١)، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: ٨٤).

وكذا تكرار نفي الرسل لطلبهم الأجر على دعوتهم إلاّ من الله كما في قوله تعالى عن نوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ (هود:٢٩)، وقوله عن هود: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هود:٥١)، وكذا تكرار أمر الرسل قومهم بالاستغفار، فقال سبحانه مخبراً بما قاله شعيب لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠)، وقال أيضًا: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود:٦١)، وقال مخبراً عن قول هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود:٥٢). ، وكذا إخباره سبحانه باستمرار اختلاف النّاس: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (هود:١١٨-١١٩).

ثمّ تأمل ما ذُكر فيها من أول أمر خلق السموات والأرض، وذلك يناسب حرف الألف: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود:٧).

ثم تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الأحرف الثلاثة، مثل: (لعنة)، (ليهلك)، (القرى)، (بظلم)، (أهلها مفلحون)، (كلّما مرّ)، (سخروا منه)، (تسخرون)، (نسخر)، (اركبوا)، (مجراها ومرساها)، (ربي لغفور رحيم)، (ابلعي)، (أقلعي)، (ربه)، (أهلك)، (الرسل)، (تغفر لي وترحمني)، (بركاتٍ عليك)، (أليم)، (اعتراك)، (تشركون)، (استعمركم)، (ربي قريب)، (مرجوًا)، (طرفي النهار وزلفًا من الليل)، (ذكرى للذاكرين)، (غير تخسير)، (ينصرني)، (رجلٌ رشيد)، (أمر الله)، (رحمة الله وبركاته)، (ركن)، (أريد)، (الإصلاح)، (أخالفكم)، (يجرمنّكم)، (ربي رحيم)، (استغفروا ربكم)، (أرهطي)، (وراءكم ظهريًا)،

(إنّا لنراك)، (يرجع الأمر كلّه)، (عملٌ غير صالح)، (أخرّنا)، (كفور)، (أجرٌ كبير)، (لفرحٌ فخور)، (ليس مصروفًا)، (أخبتوا إلى ربهم)، (تارك)، (صدرك)، (فالنار)، (مرية)، (الرأي)، (لا أسألكم عليه مالاً)، (ملك)، (إن افتريته فعليّ إجرامي)، (بريء مما تجرمون)، (ليس لهم في الآخرة إلا النار)، (بعشر سور مثله مفتريات)، (رزقها)، (يعلم مستقرها).

تنبيه: قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ (هود: ٨٢)، واستفال قوم لوط، وجعل أعلى القرية أسفلها يناسب صفة الاستفال، وسبحان من هذا كلامه.

وتأمل ما ذُكر فيها من سهولة إتيان الله بالعذاب: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ**﴾ (هود: ٣٢-٣٣)، وكذا سهولة إتيان الله بقومٍ آخرين بدلاً من الأمم المكذبة: ﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**﴾ (هود: ٥٧)، وكذا سهولة رزق الله عباده بالولد ولو كان الأبوان عقيمين: ﴿**قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾ (هود: ٧٢-٧٣)، وكذا سهولة جعل الله النّاس أمةً واحدة ـ لو أراد ـ: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ (هود: ١١٨)، وذلك كلّه مناسب لصفة الانزلاق.

سورة يوسف

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿الر﴾ (يوسف: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة جمال يوسف: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١)، وكذا ما ذُكر فيها من شدة تعلّق امرأة العزيز به: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٣٠).

وكذا شدة صبره وحلمه عليه السلام حيث لم يبادر بالخروج من السجن حتى تثبت براءته، وكذا لمّا أوّل لهم الرؤيا مع أنّهم ظلموه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٠).

وكذا شدة صبر يعقوب عليه السلام لمّا أخبروه بفقد يوسف ثمّ أخبروه بحبس أخيه بنيامين، وهو لا يزيد على قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨)، وكذا شدة حقد إخوة يوسف عليه وشدة جفائهم في مخاطباتهم لأبيهم، وسيأتي بيانٌ لذلك - إن شاء الله -.

وكذا ما ذُكر فيها مما فتح الله به على نبيه يوسف عليه السلام من تمكينه في الأرض وعلّو مكانته، وكيف أقر إخوته له بذلك: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا

نُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٤-٥٦)، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١)، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ٩٩-١٠٠)، وكذا ما فتح الله به على رسوله ﷺ من ذكر الأخبار الغيبية في الأمم السابقة: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال كيد إخوة يوسف وظهور خطأهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٥)، ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩٧).

وكذا استفال كيد امرأة العزيز والنسوة وظهور براءة يوسف: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٢٨-٢٩)، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١).

وكذا ما كرر ذكره فيها (وذلك يناسب صفة الراء) كتكرار ذكر أمر الرؤيا سواء ما رآه يوسف لنفسه، أو ما رآه أهل السجن الذين سجنوا معه، أو ما رآه الملك، وكذا تكرارمجيء إخوة يوسف له في أول الأمر ثمّ لمّا وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ثمّ لما أُخذ أخوهم منهم، وكذا تكرار دعوة النساء يوسف عليه السلام للفاحشة وإباءه سواء من امرأة العزيز وحدها أو مع النسوة، وكذا تكرار شك يعقوب عليه السلام في بنيه سواء لما ضيّعوا يوسف أو لما أُخذ منهم بنيامين، وكذا تكرار ذكر الأدلة على البراءة يوسف من الفاحشة سواء لما ذكر الشاهد الدليل، أو لمّا

برأته النسوة، أو لمّا قالت امرأة العزيز أولاً: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ (يوسف:٣٢)، وآخرًا: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف:٥١).

وفوق ذلك كله تبرئة الله له بقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف:٢٤)، وكذا تكرار تلطف يوسف عليه السلام في دعوته لرفيقيه في السجن، وقوله لهما: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ (يوسف:٤١).

ثم تأمل ما ذُكر فيها من أمر قصة يوسف عليه السلام مع إخوته من أولها، وذلك مناسبٌ لحرف الألف الذي هو أول حروف اللغة العربية.

ثم تأمل كثرةالكلمات التي ذكرت فيها هذه الحروف الثلاثة: ﴿الر﴾، مثل كلمة: (تأويل)، (شروه)، (دراهم)، (ألقوه)، (أرسله)، (أكله)، (غافلون)، (غالبٌ على أمره)، (فأدلى دلوه)، (أسروه)، (لنعلمه من تأويل)، (رحم ربي)، (الرسول)، (ربك)، (يأكلن)، (علمني ربي)، (امرأة)، (أعرضي)، (الكيل)، (فلا كيل لكم)، (لفاعلون)، (تقربون)، (أستخلصه لنفسي)، (لأجر الآخرة)، (راودته)، (تراود)، (تأويله)، (ملّة)، (أرباب متفرقون)، (القهار)، (من سلطان)، (خمرًا)، (يصلب)، (الطير)، (تأكل)، (الأمر)، (ذكر ربه)، (لبث)، (أحلام)، (روءياي)، (للرؤيا)، (تعبرون)، (العليّ)، (أرجع)، (نرفع درجات)، (فاطر)، (أقبلوا)، (حمل بعير)، (رحل أخيه)، (لا تثريب)، (ضلالك)، (فلن أبرح)، (أعلم من الله ما لا تعلمون)، (معرضون)، (أهل القرى)، (تفصيل كل)، (عبرة لأولي الألباب)، (جاهلون)، (أستخلصه)، (أكثر)، (أراني أعصر)، (بصيرة).

وتأمل ما ذكر فيها من تيسير الله لمن شاء من عباده ما لا يمكن وقوعه إلا بتيسيره: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٧٦)، وكذا تيسير الله لتمكين يوسف عليه السلام بمصر لمّا أخذه عزيز مصر، وألقى الله في قلبه حبه، ثمّ لمّا دخل السجن ورأى صاحباه رؤياهم وأخبرهم بها فعلموا علمه في التأويل، ثمّ يسر الله أن رأى الملك الرؤيا التي لم يكن يعرف تأويلها غير يوسف عليه السلام فأوّلها لهم، ونال حظوةً عظيمةً عند الملك، ثمّ اضطر إخوته إلى المجيء إلى مصر للميرة، فعرفهم، ويسر الله له أخذ أخيه بنيامين منهم، ثمّ عودتهم إليه ليخبرهم بحقيقته، ليرجعوا إلى أبيهم يعقوب، ويأتوا مصر بأهليهم أجمعين، ويجتمع شمل الأسرة كلّها على الخير والحبّ والتقوى.



سورة الرعد

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓر ﴾ (الرعد: ١).

فتأمّل ما ذُكر فيها من شدة العذاب الذي ينتظر من كفر بالله ورسله: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ (الرعد: ٣٣-٣٤)، وكذا شدة يأس المؤمنين من هداية النّاس بحولهم وقوتهم، ويقينهم أنّ ذلك لا يكون إلاّ بقدرة الله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (الرعد: ٣١)، وكذا شدة رغبة الكفار أن ينجوا يوم القيامة من العذاب ولو افتدوا بمال الأرض كلّه: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (الرعد: ١٨).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة عقاب الله وانتقامه من أعدائه: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ (الرعد: ١٣)، ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (الرعد: ٥).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على عباده من جزيل نعمائه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٣-٤)، وكذا ما يفتح به على عباده من نعيمٍ في الجنة: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ

(٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٢٣-٢٤)، ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد:٣٥).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال مكر الكفار وضعفه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد:٤٢)، وكذا استمرار بعثة الرسل الذين لهم أزواج وذرية، واستمرار تقيدهم بما يوحى إليهم لا يتعدونه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد:٣٨).

وكذا ما ذُكر فيها من سهولة الأمور على الله لا يستعصي عليه شيء (وذلك يناسب صفة الانزلاق لحرف الميم واللام والراء): ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (الرعد:١٠)، وكذا سهولة هداية الخلق عليه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (اللرعد:٣١).

ثم تأمل ما ذكر فيها من أمر أول الخلق، وذلك مناسب لحرف الألف: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (الرعد:٢).

ثم تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشمل على هذه الحروف ﴿المر﴾، مثل: (معقب)، (يمحو الله ما يشاء)، (متجاورات)، (الأمثال)، (دائم)، (ظلّها)، (مئاب)، (متاب)، (الملائكة)، (المتقون)، (أمر الله به)، (علم الكتاب)، (مغفرة للناس على ظلمهم)، (منذر)، (بمقدار)، (الثقال)، (المتعال)، (المحال)، (وال)، (ضلال)، (يضرب الله الأمثال)، (لا

يغـير)، (يغـيـروا)، (البرق)، (الرعـد)، (المثـلات)، (الأغلال)، (كلٌ يجـري لأجل)، (الأرحـام)، (بمقدار)، (القـهار)، (فسـالت)، (فاحـتمل السـيل زبداً رابيًـا)، (يوصل)، (سـلامٌ عليكم بما صـبـرتم)، (سـرًا وعـلانيـة)، (صلح)، (ذرياتهم)، (ربهم)، (صـبـروا)، (الألبـاب)، (ضـلال)، (يضلل)، (لتـتلوا)، (يكفرون بالرحمن)، (قارعة)، (تحلّ)، (قـريبًا من دارهم)، (لا يخلف الميعاد)، (برسل من قـبلك)، (فـأمليت)، (جـعلوا لله شـركـاء)، (بظاهرٍ من القـول)، (مكرهم)، فلا إله إلا الله ـ حـقًا إنه كـلامُ ربي الذي لا يستطيع البـشر أن يأتوا بمثل أصغر سورةٍ فيه.

٭٭٭

سورة إبراهيم

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ الر ﴾ (إبراهيم: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة ما ينتظر الكفار من عذابٍ واستفال أمرهم في الآخرة: ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٧-٥٠)، ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (إبراهيم: ٢)، ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٢)، ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٣٠)، ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ (إبراهيم: ٤٢-٤٣).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة بطش فرعون ببني إسرائيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٦)، وكذا ما ينتظر بني إسرائيل من عذاب شديد إذا كفروا: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧).

وكذا ما ذُكر فيها مما فتح الله به على عباده من جزيل نعمائه: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤)، وكذا ما دعا به إبراهيم لمكة من خيرات وقد بينت السُّنة أنّ الله استجاب له: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

وكذا ما ذُكر فيها من استمرار إنعام الله على الشاكر (وذلك يناسب صفة التكرار الخاصة بالراء) ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)، وكذا ما ذُكر فيها من استمرار عذاب الكفار في النار وخلودهم فيها: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (إبراهيم: ١٥-١٧).

وكذا ما ذُكر فيها من أثر كلمة التوحيد في استمرار نبات الإيمان في قلب المؤمن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٥)، وكذا ما ذُكر فيها من أنّ بعثة الرسل بلسان أقوامهم هو الأمر الذي أتت به كل الرسالات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم: ٤). فهذه سُنّة مستمرة لم تتغير.

وكذا تكرار ذكر قول الرسل لقومهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠)، ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (إبراهيم: ١١)، وكذا تكرار كلمة (ربنا)، (رب) في دعاء إبراهيم عليه السلام في الآيات من (٣٥ ـ ٤١).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿الٓر﴾، مثل كلمة (رسلهم)، (لسان)، (بلاء)، (لأزيدنكم)، (قالوا إنا كفرنا بما أرسلتم)، (كل جبار)، (لنهلكنّ)، (يؤخركم إلى أجل)، (بشر مثلنا)، (بسلطان)، (لنصبرنّ)، (فليتوكل المتوكلون)، (سبلنا)، (تر)، (ضرب)، (كلمة)، (كشجرة)، (أصلها)، (فرعها)، (يضرب)، (لعلّهم يتذكرون)، (كفرًا)، (أحلّوا)، (دار البوار)، (يضلّ)، (القرار)، (الأنهار)، (الليل والنهار)، (ولا خلال)، (مصيركم إلى النار)، (سرًا وعلانية)، (ذرية)، (ربنا)، (سخر لكم)، (اغفر لي)، (يؤخرهم ليومٍ)، (زرع)، (المحرم)، (كفّار)، (برزوا)، (لله الواحد القهار)، (سرابيلهم)، (قطران)، (سريع)، (ليذكر)، (الأمثال)، (مكرهم)، (لتزول)، (الجبال)، (رءوسهم)، (لا يرتدّ)، (صبّار شكور).

ثمّ تأمّل كيف ذُكر فيها أمر مكة ـ شرّفها الله ـ في أوائل عهد إبراهيم عليه السلام بها وذلك مناسب لحرف الألف الذي هو أول الحروف.

وتأمل ما ذُكر فيها من سهولة إتيان الله بخلقٍ جديد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ (إبراهيم:١٩-٢٠)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق.

———•❋•———

سورة الحجر

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾ (الحجر: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من استفال أمر إبليس بعد المعصية: ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الحجر: ٣٤-٣٥)، وكذا استفال أمر المستهزئين برسولنا ﷺ وكفايته الله إيّاهم: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٩٥-٩٦)، وكذا استفال أمر أتباع الشيطان: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الحجر: ٤٢-٤٤).

وكذا ما ذُكر فيها من شدة أخذ الله لقوم لوط عليه السلام: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ (الحجر: ٦٦)، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الحجر: ٧٣-٧٤)، وكذا شدة أخذ الله لأصحاب الأيكة: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر: ٧٨-٧٩).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على عباده من جزيل نعمائه: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ (الحجر: ١٩-٢٢)، وكذا ما يفتح الله به على المؤمنين في الجنة من النعيم المقيم: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (الحجر: ٤٥-٤٨).

وكذا ما ذُكر فيها من استمرار كفر المعاندين ولو اطلعوا على الآيات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (الحجر:١٤-١٥)، واستمرار كفر المتكبرين والمجرمين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١٠-١٣)، وكذا استمرار إغواء إبليس وعداوته لبني آدم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (الحجر:٣٦-٤٠).

وكذا لزوم استمرار العبادة حتى الممات: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩)، وكذا استمرار حفظ الله للقرآن وبقاءه بين النّاس: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وكذا استمرار أهل الجنة وخلودهم فيها: ﴿لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (الحجر:٤٨)، وكذا بقاء مكان قوم لوط ليكون عظة لمن بعدهم: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ (الحجر:٧٦).

ثم تأمل ما ذُكر فيها من أمر أول الخليقة، وما جرى بين آدم وإبليس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٦-٢٧)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٨-٣١).

ثم تأمّل كثرة الكلمات التي ذُكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿آلر﴾، مثل: (سلطان)، (بقدرٍ معلوم)، (ربما)، (نزلنا الذكر)، (له لحافظون)، (يلهم الأمل)، (سكرت أبصارنا)، (بسلامٍ)، (غلٍّ)، (وجلون)،

(صلصال)، (عـليك اللعنة)، (فاعلين)، (تبـشرون)، (رحمـة ربه)، (المعلوم)، (سررٍ)، (يعرجـون)، (ألقينا)، (رواسي)، (جعلنا عاليها سـافلها)، (صدرك)، (يقـولون)، (لنســألنّهم)، (النذير)، (القـرآن)، (الخـلاّق الـعليم)، (تؤمـر)، (أعرض)، (المشركين)، (فـاخرج)، (رجيم)، (فأنظرني)، (المنظـرين)، (الغفور الرحيم)، (العذاب الأليم).

وتأمل ما ذُكر فيها من سهولة إحياء الموتى وحشرهم على الله، وكذا سهولة إحصـاء الله لهم جـميـعًا: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحِجر:٢٣-٢٥)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق.

سورة مريم

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ (مريم:١).

(ك) ومن صفاتها الشدة والانفتاح والاستفال.

(هـ) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال.

(ي) ومن صفاتها الاستفال والانفتاح.

(ع) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال، والجهر.

(ص) ومن صفاتها الاستعلاء، الإطباق.

فتأمل ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على عبده زكريا، ووهبه الولد: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ (مريم:٧)، وكذا ما فتح الله به على عبده يحيى بإعطاءه النبوة وهو صبيٌّ: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ (مريم:١٢)، وكذا مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾ (مريم:١٨-١٩)، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ (مريم:٢٣-٢٦)، وكذا ما حبا الله به رسوله موسى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم:٥٣).

ثم ذكر سبحانه آيةً عامةً تبين ما فتح به على أنبيائه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (مريم:٥٨)، ومن الفوائد البديعة أنّه لمّا كثر ذكر من فتح الله عليهم أتت حروف كثيرة تتصف بالانفتاح كـ(ك، هـ، ي، ع).

ولمّا كثرت الحروف التي تتصف كذلك بالاستفال، كثر ذكر من خاب سعيهم وضلّ أمرهم وكان مآلهم الاستفال: ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ (مريم:٨٦-٨٧)، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم:٩٨)، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ (مريم: ٧٤)، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ (مريم:٧٥). وكذا تأمّل ما ذُكر فيها من شدة قبح نسبة الولد إلى الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم:٨٨-٩١)، كذا شدة حسرة الكفار يوم القيامة: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (مريم:٣٩)، وكذا شدة وغلظ ردّ آزر لدعوة ابنه إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (مريم:٤٦)، وكذا شدة أمر الحمل والنفاس على مريم ـ عليها السلام ـ: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ (مريم:٢٣).

وكذا ما تضمنته من جهر عيسى بالتوحيد في أول أمره: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ (مريم: ٣٠)، ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (مريم:٣٤-٣٦)، وكذا جهر إبراهيم بالدعوة إلى الله: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ (مريم:٤١-٤٢) وذلك مناسب لصفة الجهر لحرف العين، وكذا ما تضمنته من ذكر عُلّو حال المؤمنين حين القدوم على ربهم: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ (مريم: ٨٥).

وذلك مناسب لصفة الاستعلاء، وكذا ذكر علو مكانة إدريس التي رفعه الله إليها: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم:٥٦-٥٧)،

وكذا عُلُو الله وتنزهه عن الشبيه والنظير: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٦٥)، وكذا عُلُو مكانة موسى، وكيف كلّمه ربه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (مريم: ٥١-٥٢)، وكذا عُلُو شأن يحيى عليه السلام: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (مريم: ٧).

ثم كثرة الكلمات التي عليها مدار السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿ كهيعص ﴾، مثل: (زكريا)، (هداً)، (المهد)، (هين)، (عليًا)، (جذع)، (وعد الرحمن)، (صادق الوعد)، (صديقًا)، (صدق عليًا)، (صومًا)، (صبيًا)، (نجيًا)، (بكيًا)، (مأتيًا)، (نسيًا)، (تقيًا)، (صليًا)، (رءيًا)، (سريًا)، (حيًا)، (يحيى)، (وعده)، (أكن)، (بدعائك)، (العظم)، (اشتعل)، (بكرةً وعشيًا)، (أك)، (مكانًا قصيًا)، (هزِّي)، (مباركًا)، (إبراهيم)، (يمسك)، (أعتزلكم)، (الكتاب)، (مخلصًا)، (هدىً)، (اهتدوا)، (أضعف)، (هل تعلم له سميًا)، (آلهةً)، (عزًا)، (نعدُّ لهم عداً)، (أهلكنا)، (لا يملكون)، (عهدًا)، (كلا)، (ليكونوا).

وتأمل ما ذكر فيها من ملك الشامل لكل شيء، وعدم وقوع شيء من أمر عباده إلاّ بإذنه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم: ٤٠)، ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٣-٩٥)، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ (مريم: ٦٥)، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (مريم: ٦٤)، وذلك مناسب لصفة الإطباق لحرف الصاد، وكذا ما ذُكر فيها من حشر الجميع ومرورهم على الصراط وعدم إفلات أحد من ذلك: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (مريم: ٦٨-٧٠)، وذلك أيضًا يناسب الإطباق.

سورة طه

وقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿طه﴾ (طه:١).

(ط) ومن صفاتها الشدة، الاستعلاء، الإطباق.

(هـ) ومن صفاتها الاستفال، والانفتاح.

فتأمل ما ذكر فيها من طغيان فرعون وتكبره واستعلاءه في الأرض بغير الحق: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ (طه:٤٣-٤٥)، وكذا استعلاء سحرة فرعون بإيمانهم عن تهديده، وكذا ظهور استفال وضعف أمر فرعون وخيبة سعيه أمام قومه: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:٧١-٧٣)، وكذا علوّ موسى على سحرة فرعون: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ (طه:٦٨).

وكذا استفال أمر العجل وعبدته، فتأمّل قول موسى عليه السلام للسامري: ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ (طه:٩٧)، واستفال أمر المجرمين يوم القيامة: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (طه:١٠٠-١٠٢)، وكذا ضنك الحال والاستفال الذي ينتظر مَنْ أعرض عن الطاعة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (طه:١٢٤-١٢٦).

وكذا استفال أمر الدنيا وهوانها: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه:١٣١).

وكذا ما ذكرت من شدة موسى في أمر الله: ﴿قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا (٩٢) ألا تتبعن أفعصيت أمري (٩٣) قال يا بنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ (طه:٩٢-٩٤)، ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي﴾ (طه:٨٦)، وتأمل شدته على السامري: ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا﴾ (طه:٩٥-٩٧)، وكذا شدة أمر يوم القيامة: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (١٠٥) فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (١٠٧) يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا (١٠٨) يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا﴾ (طه:١٠٥-١٠٩).

وكذا ما ذكرت من شدة العذاب يوم القيامة: ﴿قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى (١٢٦) وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ (طه:١٢٦-١٢٧)، وكذا ما ذكر فيها مما فتح الله به من جزيل نعمه على العرب بإنزال هذا الكتاب العظيم إليهم: ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ (طه:١٣٣).

وكذا ما فتح الله به على رسوله بإنزال هذا القرآن: ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا﴾ (طه:٩٩)، وكذا ما فتح الله به على عبده ورسوله موسى من اختياره وكلامه: ﴿فلما أتاها نودي يا موسى (١١) إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه: ١١-١٣)، وكذا ما ذكر فيها من إطباق علم الله وإحاطته بكل شيء (وذلك يناسب صفة الإطباق للطاء): ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (طه: ٧)، وكذا إطباق ملك الله لكل ما في الكون: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (طه: ٦).

وكذا تأمّل كثرة الكلمات في هذه السورة التي تشتمل على هذين الحرفين ﴿طه﴾، مثل: (هوى)، (طوى)، (لا تطغوا)، (تجهر)، (هدى)، (هواه)، (أهش)، (هارون)، (يفقهوا)، (أهلي)، (اذهب)، (طغى)، (أعطى)، (النهي)، (مهدًا)، (يذهبا)، (فطرنا)، (أكرهتنا)، (خطايانا)، (جهنّم)، (إلهك)، (إلهكم)، (همسًا)، (هضمًا)، (عهدنا)، (اصطبر)، (زهرة)، (أهلك)، (الصراط)، (اهتدى)، (أهلكناهم)، (أطراف)، (طلوع).

سورة الشعراء

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿طسم﴾ (الشعراء:١)،

(ط) ومن صفاتها الشدة، الاستعلاء، الإطباق، القلقلة.

(س) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال.

(م) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال، والانزلاق.

فتأمل ما ذكر من شدة بطش عاد واستعلاءهم، وتأمّل قول نبيّهم لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٣٠)، وكذا ما ذكر من شدة إهلاك الله لقوم لوط: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾ (الشعراء:١٧٢).

وكذا شدة ندم أهل النار واستفال أمرهم: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٩٤-١٠٢)، وكذا شدة غيظ وحنق فرعون وقومه على المؤمنين: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ (الشعراء:٥٣-٥٦)، وكذا ما ذكرت من شدة بغض لوط لعمل قومه الشنيع: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ (الشعراء:١٦٧-١٦٨)، والقالي هو المبغض شديد البغض.

وكذا شدة العذاب الذي أخذ قوم شعيب: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:١٨٨-١٨٩)، وكذا ما

ذُكر فيها من استعلاء فرعون واستكباره، فتأمّل قوله لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (الشعراء: ٢٩)، وكذا استعلاء السحرة بالإيمان على تهديد فرعون: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٤٩-٥١)، وكذا استعلاء موسى على السحرة وسحرهم: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشعراء: ٤٣-٤٥).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على عباده من خير: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٧-٨)، ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٧٧-٨٠)، وكذا ما فتح به على بني إسرائيل من توريثهم أرض مصر: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: ٥٧-٥٩)، وكذا ما فتح الله به على العرب من إنزال هذا القرآن العظيم بلغتهم: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٩).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر فرعون وانحطاط منزلته حتى تذلّل للملأه وجعلهم الآمرين له: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ (الشعراء: ٣٤-٣٥)، وكذا استفال غاية السحرة

وهمتهم أول مجيئهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء: ٤١).

وكذا استفال الشياطين وعدم قدرتهم على المجيء بمثل هذا الوحي: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢)، وكذا استفال أمر متاع الدنيا وأنّه ولو طالت مدته حقير بالنسبة لعذاب الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء: ٢٠٤-٢٠٧).

وكذا ما ذُكر من سهولة إخضاع الله للناس للإيمان ـ لو أراد ـ: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم.

وكذا ما ذُكر فيها من إحكام الله قبضته على المجرمين، وجمعهم جميعًا في جهنم: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء: ٩٤-٩٥)، وذلك يناسب صفة الإطباق لحرف الطاء، وكذا إحكام فرعون الخناق على أهل مصر، حتى أنّه إذا أراد جمع السحرة جمعهم رغمًا عنهم، وكذا يحشر الناس قهرًا: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشعراء: ٣٦-٤٠).

ثم تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف ﴿طسٓمٓ﴾، مثل: (المبين)، (مؤمنين)، (محدث)، (موسى)، (لساني)،

(فأرسل)، (مستمعون)، (رسول)، (سنين)، (إسرائيل)، (موقنين)، (لميقات)، (معلوم)، (مجتمعون)، (ملقون)، (ساجدين)، (أسر)، (مقامٍ)، (مشرقين)، (الطود)، (يطعمني)، (خطيئتي)، (أطمع)، (لسان)، (سليم)، (للمتقين)، (أطيعون)، (نسويكم)، (حسابهم)، (بطشتم)، (أمدكم)، (سواءٌ)، (المرسلين)، (المسرفين)، (المسحرين)، (تمسوها)، (لوط)، (القسطاس)، (مطر)، (أمطرنا)، (المخرجين)، (المنذرين)، (المجرمين)، (الأمين)، (فأسقط)، (لمعزولون)، (السمع)، (الشياطين)، (سيعلم)، (الساجدين).

——— ❋ ———

سورة النمل

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿طس﴾ (النمل:١).

فتأمل ما ذُكر فيها من استفال أمر ثمود: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٠-٥٢)، وكذا استفال أمر قوم لوط لمّا كفروا بالله ورسله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (النمل:٥٧-٥٨)، وكذا استفال أمر الكفار يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾ (النمل:٨٣-٨٥).

وكذا ما ذُكر فيها من استعلاء سليمان عليه السلام على الرشوة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل:٣٦-٣٧)، وكذا ما ذُكر فيها من علو سلطانه بالحق في الأرض: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ (النمل:٣٨-٤٠)، وكذا علو همّة الهدهد وجوبه في الأرض من أجل الدين: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ

السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: ٢٢-٢٤)، وذلك مناسب لصفة الاستعلاء لحرف الطاء.

وكذا ما ذُكر فيهـا من شدة أمر يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (النمل:٨٧)، وكذا شـدة أخذ الله وإهلاكه للمـجرمين: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (النمل: ٦٩).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على عباده: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٦٠-٦٤)، وما فتح الله به على عبده سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٦-١٧).

وكذا ما ذُكـر فيها من إطباق ملـك الله وشموله لكل شيء: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٩١)، وكذا إحكامه لكل ما صنعه وخلقه: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، وذلك يناسب صفة الإطباق لحرف الطاء.

ثم تأمّل ما ذكر من طغيان الأمم المكذبة، وذلك مناسب لحرف الطاء، فتأمّل ما ذُكر من طغيان ثمود وتآمرهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا

لَصَادِقُونَ﴾ (النمل:٤٨-٤٩)، وكذا طغيان قوم لوط ومخالفتهم للفطرة: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل:٥٤-٥٦)، وكذا طغيان وتكبر قوم فرعون: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (النمل:١٢-١٤).

ثمّ تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفين ﴿طس﴾، مثل: (آنست)، (سآتيكم)، (موسى)، (حسنًا)، (سوء)، (تسع)، (سحر)، (الأخسرون)، (استيقنتها)، (سليمان)، (مساكنكم)، (فتبسّم)، (بسلطان)، (تصطلون)، (الشيطان)، (قاطعة)، (السبيل)، (تسجد)، (طرفك)، (تستعجلون)، (تستغفرون)، (رهط)، (طائركم)، (لوطًا)، (يتطهرون)، (مطر)، (المضطر)، (ينطقون)، (إسرائيل)، (تقاسموا)، (أفسدوها)، (أسلمت)، (بسم الله).

سورة القصص

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ طسم ﴾ (القصص: ١).

فتأمّل ماذكر فيها من شدة أخذ الله لقارون واستفال أمره: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١)، وكذا شدة قوة موسى عليه السلام: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص: ١٥)، ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ (القصص: ٢٦)، وذلك لمّا رأت منه ما لا يقدر على فعله إلاّ الأشداء من الرجال، وكذا شدة إهلاك الله للمجرمين والمتكبرين: ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (القصص: ٧٨)، ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ (القصص: ٥٨).

وكذا استفال أمر فرعون وقومه وشدة أخذ الله لهم: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (القصص: ٤٠-٤٢)، وكذا استفال وخيبة المشركين: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص: ٦٢-٦٦).

وكذا ما فتح الله به على عباده من كل خير: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:٧٣)، وكذا ما فتح الله به على موسى من آيات: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ (القصص:٣٢)، وكذا ما فتح الله به على قوم موسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص:٥-٦)، وكذا ما فتح به على قارون من المال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص:٧٦).

وكذا ما ذُكر فيها من استعلاء وتكبر قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص:٧٦)، وكذا استعلاء وطغيان فرعون وهامان وقومهما: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص:٣٨).

وكذا ما ذُكر فيها من إطباق علم الله وملكه: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص:٦٩-٧٠)، وكذا إطباق فرعون الخناق على بني إسرائيل: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٤)، وذلك يناسب صفة ا لإطباق.

وكذا ما ذُكر فيها من تيسير الرجل الصالح على موسى أمر الخدمة: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ

قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (القصص: ٢٧-٢٨)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم.

وكذا ما يسر الله به على العرب من إيصال دعوة الخير إليهم دون تكليفهم مشقة الذهاب والبحث عنها: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص: ٥١)، وكذا تيسير الله على عبده موسى بأخيه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (القصص: ٣٣-٣٥)، وكذا تيسيره سبحانه لأمّ موسى أمر إرضاعه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (القصص: ١٢-١٣).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف ﴿طسم﴾، مثل: (طائفة)، (المفسدين)، (يستحي)، (موسى)، (ربطنا)، (فالتقطه)، (الشيطان)، (فاستغاثه)، (خطبكما)، (الطور)، (شاطئ)، (المباركة)، (رسولاً)، (مساكنهم)، (تسمعون)، (فخسفنا)، (عملوا السيئات)، (يستصرخه)، (بالأمس)، (سقيت)، (آنست)، (اسلك)، (بطرت)، (سرمدًا).

سورة العنكبوت

بدأت بقوله تعالى: ﴿الم﴾ (العنكبوت: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة الأثقال التي سوف يحملها الكفار بسبب ذنوبهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (العنكبوت: ١٢-١٣)، وكذا شدة أخذ الله لقوم نوحٍ لشدة كفرهم وعتوِّهم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٤).

وكذا ما ذكر فيها من شدة أخذ الله للكفار من الأمم المكذبة: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٨-٤٠).

وكذا ما ذكر فيها من استفال أمر الدنيا: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الكفار وشدة العذاب بهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٣-٥٥)،

وكذا حلول الرجز واستفال الحال بقوم لوط: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (العنكبوت: ٣٤)، وكذا استفال حال الأمم المكذبة يوم القيامة: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٥).

وكذا ما يفتح الله به على من جاهد نفسه لله، ومن جاهد لإعلاء كلمة الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وكذا ما فتح الله به على عباده من خير عميم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١-٦٣).

وكذا ما ذكر فيها من سهولة ويسر إعادة الخلق على الله (وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم، واللام): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠).

وتأمل ما ذُكر فيها من بدء الله الخلق أول مرة (وذلك مناسب لحرف الألف الذي هو أول حرف) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ١٩-٢٠).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف ﴿الم﴾، مثل: (آمنّا)، (فليعلمنّ)، (يعملون)، (ما يحكمون)، (لقاء)، (السميع العليم)، (العالمين)، (لنجزينّهم)، (ما ليس لك به علمٌ فلا

تطعهما)، (مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)، (لندخلنّهم)، (لنحمل خطاياكم)، (أثقالهم)، (خمسين عامًا)، (ألف)، (إبراهيم)، (للعالمين)، (أمم من قبلكم)، (المبين)، (يرحم من يشاء)، (لقائه)، (ما أنتم بمعجزين)، (اتخذتم)، (من رحمتي)، (مودة بينكم)، (مهاجر)، (فآمن)، (ماسبقكم بها من أحدٍ من العالمين)، (ناديكم المنكر)، (القوم المفسدين)، (منجوك)، (مدين)، (جاثمين)، (مساكنهم)، (مستبصرين)، (جاءهم موسى)، (المبطلون)، (بنعمة الله)، (من حولهم)، (جهنم)، (مثوى)، (من أظلم)، (جعلنا حرمًا آمنًا)، (فلمّا نجّاهم)

* * *

سورة الروم

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ (الروم: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من شدة الأمم المكذبة السابقة لقريش، وكيف أهلكهم الله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩).

وكذا شدة كفر المعاندين حتى بعد رؤيتهم نعم الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (الروم: ٤٨-٥١)، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٥٨-٥٩).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا يفتح الله به على عباده: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ ﴾ (الروم: ٢١-٢٤)، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم: ٤٧-٥٠)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم: ٤٦).

وكذا ما يفتح الله به على عباده المؤمنين من نصرٍ لهم وإذلالٍ لعدوِّهم: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٦-٤٧).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الظالمين: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (الروم: ٥٧)، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ (الروم: ٤٣)، وكذا استفال أمر المجرمين: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (الروم: ١٢-١٦).

وكذا ما ذُكر فيها من سهولة بدء الخلق وإعادته على الله، فلا يعجزه شيء: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم واللام.

وتأمل ما ذكر فيها من بداية الخلق وذلك مناسب لحرف الألف: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢٠-٢١).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿الم﴾، مثل: (غلبت الروم)، (لله الأمر من قبل ومن بعد)، (العزيز الرحيم)، (لا يخلف الله)، (لا يعلمون)، (بلقاء ربهم)، (وعمروها)، (تقوم الساعة)، (يلبس المجرمون)، (آمنوا وعملوا الصالحات)، (مودة ورحمة)، (طمعًا)، (ابتغاؤكم من فضله)، (منامكم بالليل)، (له المثل الأعلى)، (مثلاً من أنفسكم)، (مما ملكت أيمانكم)، (منيبين)، (أقيموا الصلاة)، (فأقم)، (من المشركين)، (يمهدون)، (ابن السبيل)، (أموال)، (المسكين)، (لمحي الموتى)، (لا تسمع الموتى)، (إلى قومهم)، (فانتقمنا من الذين أجرموا)، (من قبله لمبلسين)، (مبطلون)، (يعلمون)، (ولوا مدبرين)، (يقسم المجرمون)، (ليذيقكم من رحمته)، (إذا أذاقهم منه رحمة).

* * *

سورة لقمان

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ (لقمان: ١).

فتأمل ما ذكر فيها من شدة عذاب الكفار: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (لقمان: ٢٣-٢٤)، وشدة يوم القيامة وعدم نفع الولد الكافر لوالده: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لقمان: ٣٣)، وكذا عظم وشدة قبح الشرك وكونه أعظم الظلم: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

وكذا ما ذُكر فيها مّما فتح الله به على عبده لقمان من علم وحكمة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (لقمان: ١٢)، وكذا ما فتح به على عباده من خير عميم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠)، ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١٠-١١).

وكذا ما ذُكر فيها من شمول وانفتاح علم الله الذي أحاط بكل شيء: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ١٦)، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣٤).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الكفار والمضلين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (لقمان: ٦-٧).

وكذا استفال أمر الآلهة التي تُعبد من دون وبطلانها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (لقمان: ٣٠)، وكذا ما ذُكر فيها من سهولة البعث ويسره على الله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (لقمان: ٢٨)، وذلك يناسب صفة الانزلاق لحرف الميم واللام.

وتأمّل ما ذُكر فيها من خلق السموات والأرض في أول الأمر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (لقمان: ١٠)، وذلك مناسب لحرف الألف.

ثمّ تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿الم﴾، مثل: (رحمةً للمحسنين)، (يقيمون الصلاة)، (هم بالآخرة هم يوقنون)، (على هدىً من ربهم)، (هم المفلحون)، (بغير علم)، (لهم عذاب مهين)، (لم يسمعها)، (عمدٍ)، (الظالمون في ضلال مبين)، (ماذا خلق الذين من دونه)، (لقمان)، (الحكمة)، (حميد)، (لظلمٌ عظيم)، (حملته أمّه)، (فصاله في عامين)، (اشكر لي ولوالديك إليّ المصير)، (ما ليس لك به علم)، (صاحبهما)، (من أناب إليّ)، (ثمّ إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون)، (مثقال)، (من عزم الأمور)، (لا تمش)، (كل مختال)، (من يسلم)، (محسن)، (نمتعهم قليلاً)، (أقلام)، (ما خلقكم ولا بعثكم)، (لهم اتبعوا)، (موجٌ كالظلل)، (يعلم ما في الأرحام)، (مولود)، (فمنهم مقتصد).

سورة السجدة

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ (السجدة: ١).

فتأمّل ما ذُكر فيها ممّا يفتح الله به على عباده: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة: ٢٧)، وكذا ما فتح به على بني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٣-٢٤).

وكذا ما ذكر فيها من شدة عذاب الكفار: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (السجدة: ٢٠-٢١)، ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٤)، وكذا ما ذكر فيها من شدة اجتهاد المحسنين وخوفهم حتى أنّهم ليتركون النّوم من أجل القيام: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (السجدة: ١٥-١٦).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر المجرمين: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢)، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (السجدة: ٢٨-٢٩)، ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ١٢).

وكذا ما ذُكر فيها من سهولة أمر الهداية ـ لو أرادها الله لجميع الخلق ـ وذلك يناسب صفة الانزلاق لحرف الميم واللام: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣).

وتأمل ما ذُكر فيها من أمر أول الخلق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (السجدة: ٤)، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (السجدة: ٧-٨)، وذلك مناسب لحرف الألف.

ثمّ تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذه الحروف ﴿آلم﴾، مثل: (ملك الموت الذي وكل بكم)، (إنا موقنون)، (لأملأنّ جهنمّ)، (لقاء يومكم هذا)، (عذاب الخلد)، (وهم لا يستكبرون)، (المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم)، (يوم الفتح)، (إيمانهم)، (وطمعًا وممّا رزقناهم)، (فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم)، (بما كانوا يعملون)، (جنات المأوى)، (كلما أرادوا)، (لنذيقنّهم)، (أو لم يهد لهم)، (آتينا موسى الكتاب)، (أئمة)، (بأمرنا).

تنبيه: ذُكر في هذه السور أعني التي بدأت بـ ﴿آلم﴾، كالروم، والسجدة، ولقمان، والعنكبوت، أمر أول الخلق، وكذا آخره من ذكر القيامة والموت وغيرهما، وكذا أوسط الأمر من الدعوة إلى الله والمخاصمة بين الرسل وأممهم، وذلك مناسب لحروف ﴿آلم﴾، إذ الألف مخرجها من الحلق وهو أول المخارج من الداخل ثمّ اللام من اللسان وهو أوسطها ثمّ الميم من الشفة وهي آخرها.

***

سورة يس

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿يس﴾ (يس:١).

(ي) من صفاتها الاستفال، وتُسمّى بأنّها من الحروف الشجرية.

(س) ومن صفاتها الانفتاح، الاستفال.

فتأمل ما ذُكر فيها من استفال أمر مكذبي الرسل الذين قتلوا الرجل المؤمن: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس:٢٨-٢٩)، وكذا استفال أمر مكذبي رسولنا ﷺ: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (يس:٧-٩)، وكذا استفال أمر الآلهة الباطلة وعدم نفعها لعابديها: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (يس:٢٣-٢٤)، وكذا استفال أمر المجرمين يوم القيامة: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس:٥٩)، ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:٦٢-٦٥)، وكذا ضعف قوة من يُعمّر: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ (يس:٦٨).

وكذا ما ذكر فيها ممّا فتح الله به على عباده: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ

﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٣-٣٨)، ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ (يس: ٧١-٧٣)، وكذا ما يكرم الله به عباده المؤمنين: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ (يس: ٥٥-٥٨)، وكذا ما أكرم به عبده المؤمن لمّا قتله قومه بسبب دعوتهم إلى الله: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٥-٢٧).

ثمّ تأمّل صفة ذلك العبد المؤمن، وكيف أنّ قومه قتلوه، وتمنّى لهم بعد موته أن يعلموا بكرامة الله له ليهتدوا، فكان كالشجرة التي يرميها النّاس بالحجر لتلقي لهم الثمر، كما أنّ الشجر ينتفع كل الخلق به، وكذا الحيوان حتى بعد موت الشجرة ويبسها، فكذلك الداعية إلى الله إذا كان مخلصًا صادقًا، فناسب جدًا أن يُذكر في الحروف المقطعة في هذه السورة حرف الياء الذي هو من الحروف الشجرية، فلا إله إلا الله، اللهم إنّا نشهدك ونشهد ملائكتك وجميع خلقك بأنّنا نؤمن بعظمة كتابك، وأنّه كلامك حقًا، لا إله إلا أنت سبحانك إنّا كنّا من الظالمين.

ثمّ تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على حرفي (ي، س) مثل: (يسعى)، (المرسلين)، (مستقيم)، (سدًا)، (المرسلون)، (فاسمعون)، (يا حسرة)، (نسلخ)، (المستقر)، (يسبحون)، (ولا الليل سابق)، (سلامٌ)، (رحيم)، (يكسبون)، (ننكسه)، (لا يستطيعون)، (يسّرون)، (نسي)، (لطمسنا)، (رميم).

سورة ص

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ص﴾ (ص:١).

(ص) ومن أهمّ صفاتها الاستعلاء والإطباق.

فتأمّل ما ذكر فيها من استعلاء قريش وصناديدها واستكبارهم على الإسلام: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (ص:٦)، وكذا ما ذكر فيها من استعلاء إبليس واستكباره عن السجود لآدم: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص:٧٥)، وكذا ما ذكرت من تكبر صناديد قريش وسخريتهم من أهل الإيمان، فاسمع لقولهم وهم في النار: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾ (ص:٦٢-٦٣).

وتأمل ما ذُكر فيها من خصومات (وذلك مناسب لحرف الصاد) كاختصام الملأ الأعلى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (ص:٦٧-٦٩)، وكذا اختصام أهل النار: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص:٦٤)، وكذا مخاصمة إبليس اللعين لربه: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٧٥-٨٥)، وكذا نبأ الخصم الذي أتى داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ

بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ (ص: ٢١-٢٣).

فائدة: لمّا ذكر سبحانه في هذه السورة استكبار إبليس وإباءه عن الإيمان، ناسب أن يذكر فيها إخبات وتواضع وإنابة المتقين، فذكر سبحانه توبة داود، وسليمان ـ عليهما السلام ـ، وكذا ذكر ابتلاء أيوب ليدلّ على أنّ ابتلاء الرسل بالفقر والمحن في الدنيا لا يعني نقص منزلتهم عند الله، والله أعلم.

ثمّ تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على حرف ﴿ص﴾، مثل: (مناص)، (فصل الخطاب)، (الخصم)، (تخاصم)، (الصافنات)، (الأصفاد)، (غوّاص)، (صابرًا)، (المصطفين)، (قاصرات الطرف)، (يصلونها)، (أولي الأيدي والأبصار)، (يختصمون)، (المخلصين)، (أخلصناهم بخالصة).

ثمّ تأمّل ما ذكر فيها من إحكام سليمان عليه السلام القبضة على رعيته: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (ص: ٣٧-٣٨)، وذلك مناسب لصفة الإطباق، وكذا إحكام ملك داود ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ (ص: ٢٠).

ســورة غـافـر

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿حم﴾ (غافر: ١).

(ح) ومن صفاتها الانفتاح، الاستفال.

(م) ومن صفاتها، الانفتاح، الاستفال، الانزلاق.

فتأمّل ما ذُكر فيـها من أمر الكفار في الدنيا والآخرة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ⑤ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٥-٦)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ㊾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ (غافر: ٤٩-٥٠)، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ٨٣-٨٥)، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (غافر: ٢١-٢٢)، ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (غافر: ٧٠-٧٢).

وكذا استفال أمـر فرعون وقومه واستفال وخـيبة كيدهم: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

الْعَذَاب ﴾ (غافر: ٤٥-٤٦)، ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧)، وكذا استفال أمر الظالمين يوم القيامة: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر: ١٨)، ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (غافر: ٥٢).

وكذا ما ذُكر فيها ممّا فتح الله به على رسله وأوليـاءه من نصرٍ في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (غافر: ٥١-٥٢).

وكذا ما فتح الله به على عباده من خيرٍ عميم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (غافر: ٦٤)، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ (غافر: ٧٩-٨١).

وكذا ما فتح الله به على عبده المؤمن الذي دعى آل فرعون إلى الإيمان بموسى: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤١-٤٥).

ثمّ تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة، وتشتمل على هذين الحرفين ﴿ حم ﴾، مثل: (إليه المصير)، (قوم نوحٍ والأحزاب من بعدهم)،

(ليدحضوا به الحق فأخذتهم)، (أنهم أصحاب النّار)، (وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا)، (يحملون العرش)، (عذاب الجحيم)، (من صلح من آبائهم)، (الحكيم)، (رحمته)، (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين)، (فالحكم)، (يلقي الروح من أمره)، (الملك اليوم لله الواحد)، (سريع الحساب)، (حميم)، (بيوم الحساب)، (هم أصحاب النّار)، (يتحاجّون)، (فأحسن صوركم)، (يحيي ويميت)، (يُسبحون)، (تُحملون)، (حاجةً في صدوركم)، (فرحوا بما عندهم)، (حاق بهم)، (آمنّا بالله وحده).

تنبيه: قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: ٥٧)، يدل على سهولة خلق النّاس على الله، وذلك مناسبٌ لصفة الانزلاق لحرف الميم.

سورة فصلت

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿ حم ﴾ (فُصلت: ١).

فتأمّل ما ذكر فيها ممّا فتح الله به على عباده من خيرٍ عميم: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (فُصلت: ٩-١٢)، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فُصلت: ٣٩).

وكذا ما سيفتح الله به ويظهره من آيات تدل على وحدانيته وعظيم قدرته: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فُصلت: ٥٣)، وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الكفار في الآخرة: ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فُصلت: ٢٧-٢٨)، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (فُصلت: ٢٢-٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ (٢٣-٢٤)، وكذا استفال أمر مكذبي الرسل: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا

أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ⑮ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ (فصلت: ١٥-١٦)، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑰ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (فصلت: ١٧-١٨).

وكذا ما ذُكر فيها من تيسير الله وتخفيفه أمر الموت على من استقام على طاعته (وذلك مناسبٌ لصفة الانزلاق لحرف الميم) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ㉚ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ㉛ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

ثم تأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفي ﴿حم﴾، مثل: (الرحمن الرحيم)، (حجاب فاعمل)، (مثلكم يوحي)، (إلهكم إله واحد)، (آمنوا وعملوا الصالحات)، (وأوحى في كل سماء)، (بمصابيح وحفظًا)، (يجحدون)، (بغير الحق)، (ثمود)، (فاستحبوا العمى)، (يوم يحشر)، (حق عليهم)، (من أحسن)، (عمل صالحًا)، (حميم)، (حظٍ عظيم)، (لمحي الموتى)، (حكيم حميد)، (تحمل من أنثى)، (من محيص)، (محيط).

ســورة الشــورى

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١-٢).

(ح) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال.

(م) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال والانزلاق.

(ع) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال.

(س) ومن صفاتها الانفتاح والاستفال.

(ق) ومن صفاتها الشدة والاستعلاء.

فتأمل ما ذكر فيها من شدة وقع الشرك على السموات والأرض: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الشورى: ٥)، قيل تفطر السماء من قبح الشرك وقيل من كثرة ما فيها من ملائكة لحديث: «**أطتّ السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلاّ وملك لله ساجد أو راكع**»، وكذا شدة عذاب من جادل ليضل: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى: ١٦)، وكذا شدة أمر الساعة على المؤمنين وشدة شفقتهم منها: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ (الشورى: ١٧-١٨)، وكذا شدة يوم القيامة: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ (الشورى: ٤٧).

وكذا استفال أمر الكفار والمجرمين يوم القيامة: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى: ٤٤-٤٦)، ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ (الشورى: ٢١-٢٢).

وكذا ما فتح الله به على عباده من خير عميم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٢٧-٢٩)، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى: ٣٢-٣٣)، وكذا ما فتح الله به على رسوله من بعثته بهذا الشرع العظيم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢)، وكذا ما يُفتح به على عباد الله المؤمنين في الجنة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الشورى: ٢٢-٢٣).

وكذا ما ذكر فيها من علو الله عن مشابهة خلقه (وذلك يناسب صفة الاستعلاء لحرف القاف) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وكذا علُو وسمو شرع الله لرسوله وأمته: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٣)، وكذا علو الله عن الأنداد والشركاء: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ (الشورى: ٩-١٠)، وكذا علو الحق أبدًا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى: ٢٤)، وكذا علو المؤمنين على أهل البغي: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٣٩-٤٠)، وكذا عُلو شأن الله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٥١).

ثمّ تأمّل كثرةالكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذه الحروف ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، مثل: (يوحي)، (العزيز الحكيم)، (العلي العظيم)، (حفيظٌ عليهم)، (عربيًا)، (ومن حولها)، (السعير)، (في رحمته)، (يحيي الموتى)، (فحكمه إلى الله)، (جعل لكم)، (السميع)، (عليم)، (نوحًا)، (شرع)، (عيسى)، (تدعوهم)، (العلم)، (فادع)، (أمرت لأعدل)، (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)، (يجمع)، (لهم عذاب)، (يستعجل)، (يعلمون)، (بعيد)، (بعباده)، (العزيز)، (حرث)، (واقعٌ)، (عباده)، (يمح)، (يحق الحق)، (عليمٌ)، (عن عباده)، (يعفوا عن السيئات)، (يعلم ما تفعلون)، (آمنوا وعملوا الصالحات)، (رحمته)، (كسبت أيديكم)، (بمعجزين)، (كسبوا)، (حسنًا)، (حسنةً)، (مسمّى)، (يسبحون)، (يستغفرون)، (يسكن)، (يعلم)، (فمتاع)، (الإثم والفواحش)، (عفا)، (سبيل)، (الخاسرين)، (خسروا)، (مقيم)، (مردّ)، (أرسلناك)، (الإنسان)، (عقيمًا)، (عليمٌ)، (يرسل رسولاً)، (عليّ حكيم)، (روحًا)، (أوحينا)، (بالحق والميزان)، (لعل الساعة).

تنبيه: ذكرفي السورة سهولة ويسر أمر الهداية على الله، وأنّه ـ لو شاء ـ لجعل النّاس كلّهم على التوحيد: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ (الشورى:٨)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم، وكذا سهولة البعث على الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٢٩)، وكذا سهولة معاقبة الله للعصاة ـ لو شاء ـ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ۝٣٢ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى:٣٢)، وكذا سهولة أمر الرزق بالأولاد، فهو سبحانه يهب ما يشاء كيف يشاء: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٤٩-٥٠).

سورة الزخرف

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿حم﴾ (الزخرف: ١).

فتأمّل ما ذكر فيها ممّا فتح الله به على عباده من جزيل نعمه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (اتلزخرف: ١٠-١٢)، وكذا ما يفتحه على عباده من زخرف الدنيا: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥)، وكذا ما يفتحه على عباده المؤمنين في الجنة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (الزخرف: ٦٩-٧٣).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر فرعون وقومه لمّا كذبوا وعاندوا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ (الزخرف: ٥٥-٥٦)، وكذا استفال أمرالكفار يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف: ٧٤-٧٧)، وكذا استفال أمر الظالمين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٦-٣٩).

وتأمل ما ذكر فيها من سهولة ويسرٍ أمر خلقة عيسى عليه السلام على الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (الزخرف: ٥٩-٦٠)، وكذا سهولة انتقام الله لرسوله من المكذبين له: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ (الزخرف: ٤١-٤٢)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم.

ثم تأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفين ﴿حم﴾، مثل: (حكيم)، (صفحًا)، (مسرفين)، (مضى مثل)، (سبحان)، (مقرنين)، (للرحمن)، (الحلية)، (مبين)، (مستمسكون)، (مهتدون)، (مفترون)، (الحق)، (سحر)، (رحمت)، (يحسبون)، (المشرقين)، (منتقمون)، (مقتدرون)، (أوحي)، (يضحكون)، (الساحر)، (ملك مصر)، (تحتي)، (مثلاً)، (مهين)، (بالحكمة)، (الأحزاب)، (تحزنون)، (تحبرون)، (بصحاف)، (أورثتموها)، (الحكيم)، (فاصفح عنهم)، (سلام)، (سبحان).

سورة الدخان

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿حم﴾ (الدخان: ١).

فتأمّل ما ذكر فيها ممّا يفتح الله به على عباده من أرزاق العام كلّه في ليلة القدر التي نزل فيها القرآن: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ (الدخان: ٣-٥)، وكذا ما فتح الله به على بني إسرائيل من الآيات: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ (الدخان: ٣٠-٣٣).

وكذا ما يفتح الله به على عباده المؤمنين في الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الدخان: ٥١-٥٧)، وكذا ما فتح الله به على بني إسرائيل من ميراث الخيرات بعد إهلاك فرعون وقومه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٥-٢٨).

وكذا ما ذُكر فيها من استفال أمر الكفار يوم القيامة: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ (ادخان: ٤٣-٥٠)، وكذا ما ذكر فيها من استفال أمرفرعون وقومه: ﴿فَأَسْرِ

بعبادي ليلاً إنكم متبعون (٢٣) واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾ (الدخان: ٢٣-٢٤)، ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ (الدخان: ٢٩).

وتأمّل ما ذُكر فيها من تيسير الله وتسهيله للقرآن وإبلاغه، وذلك مناسبٌ لصفة الانزلاق لحرف الميم: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ (الدخان: ٥٨).

وتأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفين ﴿ حم ﴾، مثل: (مباركة)، (الرحيم)، (أمرٍ حكيم)، (رحمة)، (يحيي ويميت)، (البحر)، (مغرقون)، (مقامٍ)، (موتتنا)، (علمٍ)، (بمنشرين)، (بالحق)، (رحم)، (الحميم)، (الجحيم)، (بحورٍ)، (الموت)، (آمنين)، (يضحكون)، (يكفرون بالرحمن)، (أوحي)، (بالحكمة)، (فاصفح عنهم).

سـورة الجاثيـة

وقد بدأت أيضًا بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ (الجاثية: ١).

فتأمل مـا ذُكر فيها ممّا فـتح الله به على بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ (الجاثية: ١٦-١٧)، وكذا ما فتح الله به على نبينا من عظيم الرسالة التي فيـها الهدى والرحمة: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ١٨)، ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٢٠)، وكذا ما فتح الله به على عباده من جزيل نعمائه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٢-١٣)، وكذا ما يفتح الله به على عباده المؤمنين في الجنة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (الجاثية: ٣٠).

وكـذا ما ذُكر فيـها من استفال أمر الكفار وخـزيهم بسبب عملهم: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الجاثية: ٢٧-٢٨)، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (الجاثية: ٣٣-٣٥)، وكذا استفال أمرالمعرضين عن آيات الله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا

فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الجاثية: ٧-١٠).

وتأمل ما ذُكر فيها من سهولة أمر البعث على الله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٥ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الجاثية: ٢٥-٢٦)، وذلك مناسب لصفة الانزلاق لحرف الميم.

وتأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفين ﴿حمٓ﴾، مثل: (الحكيم)، (الرياح)، (القومٍ)، (بالحق)، (لكم البحر)، (جميعًا منه)، (من عمل صالحًا)، (الحكم)، (ورحمة)، (أم حسب)، (اجترحوا)، (عملوا الصالحات)، (محياهم)، (حياتنا)، (نموت ونحيا)، (حجتهم)، (يحيكم ويميتكم)، (رحمته)، (مستيقنين)، (حاق بهم)، (الحمد)، (العالمين)، (يحكمون).

سورة الأحقاف

وقد بدأت بقوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ (الأحقاف: ١).

فتأمل ما ذُكر فيها من استفال أمر الكفار: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٧-٢٨)، ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ (الأحقاف: ١٧-١٨)، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٠).

وكذا استفال أمر عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: ٢٤-٢٦)، ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (الأحقاف: ٣٤).

وكذا ما ذُكر فيها من انتشار الدعوة وانفتاحها حتى شملت الجنّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣٠).

وكذا ما يفتح الله به على عباده المستقيمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف:١٣-١٤)، وكذا ما ذُكر فيها من سهولة إحياء الموتى على الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف:٣٣)، وكذا سهولة أخذ الله للمكذبين: ﴿وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف:٣٢)، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأحقاف:٢-٧)، وذلك مناسبٌ لصفة الانزلاق لحرف الميم.

وتأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على هذين الحرفين ﴿حمٓ﴾، مثل: (الحكيم)، (بالحق)، (وأجل مسمّىً)، (حشر)، (للحق لمّا جاءهم)، (سحرٌ مبين)، (ما يوحى)، (ورحمةً)، (للمحسنين)، (هم يحزنون)، (أصحاب)، (إحسانًا)، (حملته)، (حمله)، (الرحيم)، (أعمل صالحًا)، (أصلح)، (أحسن ما)، (حق عليهم)، (حياتكم)، (قومه)، (بالأحقاف)، (ممطرنا)، (ريح)، (تدمّر)، (فأصبحوا)، (مساكنهم)، (مكنّاهم)، (مكّناكم)، (يجحدون)، (حاق بهم)، (حولكم)، (فلمّا حضروه)، (يحيي الموتى).

سورة ق

وبدأت بقوله تعالى: ﴿ق﴾ (ق:١).

(ق) ومن صفاتها الشدة، الاستعلاء، القلقلة.

فتأمّل ما ذُكر فيها من شدة عذاب المجرمين: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (ق:٢٤-٢٦)، وكذا ذكر الوعيد، وجهنم وامتلاءها بأهلها، وكذا ذكر النفخ في الصور وذلك مناسبٌ جدًا لصفة الشدة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق:٣٠)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (ق:٢٠)، ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق:٤٥)، ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق:٤١-٤٣).

وكذا ما ذُكر فيها من استعلاء الأمم المكذبة وتكبرهم في الأرض: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ (ق:٣٦)، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ (ق:١٢-١٤)، وكذا استعلاء كفار قريش عن الإيمان برسولنا ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ (ق:٢-٥)، وكذا ما كُرِّر فيها من ذكر الوعيد، وتكرار القول: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لا

تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ (ق:٢٧-٢٨)، وقال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ (ق:٢٣)، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠)، وذلك مناسبٌ جدًا لصفة القلقلة، وكذا تكرار ذكر القرين.

وتأمّل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتشتمل على حرق ﴿قٓ﴾، مثل: (القرآن)، (تنقص)، (بالحق)، (أقرب)، (يتلقى المتلقيان)، (قعيد)، (قول)، (رقيب)، (قرينه)، (ألقيا)، (فألقياه)، (قدمت)، (نقول)، (تقول)، (بقلب)، (للمتقين)، (قرن)، (فنقبوا)، (قلب)، (ألقى)، (خلقنا)، (قريب)، (بالحق)، (تشقق).

* * *

سورة ن

وقد بدأن بقوله تعالى: ﴿نٓ﴾ (ن:١).

(ن) ومن صفاتها الاستفال، الانفتاح، الانزلاق.

فتأمّل ما ذُكر فيها من استفال أمر الحديقة وهلاكها: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (ن:١٩-٢٠)، وكذا استفال أمر المجرمين وذلّتهم يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (ن:٤٢-٤٤)، واستفال أمر من كذّب برسولنا، وتكبّر بماله وولده: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (ن:١٥-١٦).

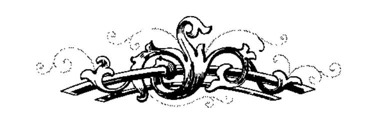
وكذا ما ذُكر فيها مما فتح الله به على رسولنا من أجرٍ عظيم وخلقٍ كريم: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (ن:٢-٤)، وكذا ما فتح الله به على نبيه يونس بعد توبته: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (ن:٤٨-٥٠).

وتأمل كثرة الكلمات التي ذكرت في هذه السورة وتحتوي على حرف ﴿نٓ﴾، مثل: (متقين)، (ليزلقونك)، (ممنون)، (مجنون)، (سنستدرجهم)، (أيمان)، (تدهن فيدهنون)، (الجنّة)، (مصبحين)، (المكذبين)، (المهتدين)، (نعمة)، (سالمون)، بل معظم آيات السورة تنتهي بحرف النون.

تنبيهان:

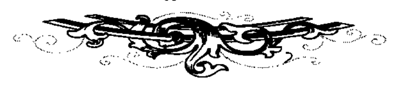
١ ـ العرب تسمّي الحوت باسم (النون)، وفي الحديث: «**أول طعام أهل الجنة زائدة كبد النون**»، فمن المناسب أن تبدأ السورة بحرف النون لاشتمالها على ذكر ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام، كما أنّ لبث يونس عليه السلام في بطن الحوت مناسب لصفة الاستفال ثمّ خروجه وما أكرمه الله به مناسبٌ لصفةً الانفتاح، والله أعلم.

٢ ـ قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (ن: ٥١)، مناسب لصفة الانزلاق لحرف النون جداً، فهم من شدة غيظهم على رسولنا يكادون أن يسقطوه على الأرض من شدة نظرهم إليه حقداً وحسداً.



الفصل الثاني

الكنوز الإيمانية في القصص القرآني



١ ـ قصة طالوت وقومه

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦-٢٥١).

الملخص العام للقصة:

يقص علينا القرآن قصة قومٍ من بني إسرائيل مع نبيّ لهم من بعد موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ، فطلبوا من نبيهم أن يختار الله لهم ملكًا قائدًا

ليجاهدوا معه في سبيل الله ليستنقذوا أراضيهم التي غصبها الكفار، فاختار الله لهم طالوت، رجلاً صالحًا ذا علم.

إلا أنه لم يكن غنيًا، فحسده أكثرهم وحقدوا عليه ولم يرضوا به، فجعل الله لهم آيةً أن تأتيهم الملائكة بالتابوت الذي فقدوه، وكانت فيه آثار لموسى وهارون وآلهما، وقد قيل أنهم كانوا يأخذونه معهم في معاركهم فينتصرون بإذن الله، إلا أنّ الكثير أصرَّ على حقده وحسده ولم تخرج معه للجهاد إلا قلّة.

فأراد هذا القائد الصالح أن يميز صفوف المجاهدين، فاختبرهم وأمرهم بألاَّ يشربوا من النهر إلا ما يسد عطشهم دون زيادة، فلم يستطع الكثير وبقي معه القليل، فلما رأى المجاهدون معه قوة العدو وكثرتهم جبن الكثير منهم وقالوا: لا قدرة لنا على قتالهم، وثبت مع طالوت قلّة صابرة هي التي نصرها الله وأيدها بفضله وكرمه.

المعاني الإيمانية والفوائد في الآيات:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

كلمة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تأتي في القرآن على صور:

(أ) لا تتعدى بـ ﴿إِلَى﴾، فيكون معناها: «ألم تعلم»؛ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (الفيل:١)، وعبَّر عن العلم بالرؤية، إذ أعلى درجات التأكد أن يرى الإنسان بنفسه.

(ب) تتعدى بـ ﴿إِلَى﴾، فيكون معناها: «ألم تنظر إلى»، فإن قيل: قد جاءت في مواضع لم ير رسولنا ﷺ أصحابها؛ كقوله هاهنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ (البقرة:٢٥٨).

قلتُ: أمَّا أخبار بني إسرائيل فلا إشكال فيها، إذ قد رأى رسولنا ذرية هؤلاء المذكورين من بني إسرائيل، ولما كانت الذرية ترتضي وتبارك ما فعله الآباء

خوطبوا كأنهم هم الذين فعلوا، وخوطب رسولنا كأنه رأى من فعل، وأمَّا قصة إبراهيم عليه السلام فلها احتمالان:

١ ـ أن شاكلة الذي حاج إبراهيم في ربه ستوجد ويراها الناظرون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فكم من طاغية تكبر بملكه وادَّعى لنفسه فوق منزلته.

٢ ـ أن يكون المعنى: «ألم تر بقلبك فكأنك رأيت بعينك إذ إخبار الله أصدق عند المؤمن من رؤية عينه».

ـ قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ ﴾، دليل على أن المشكلة الكبرى عند المسلمين اليوم ليست في فقد القواد الذين يقودنهم بشرع الله، ولكنَّها في فقد الطائفة المؤمنة التي تحمل شرع الله حق التحمل، وتعمل به حق العمل، فمتى وجدت الطائفة المؤمنة بعث الله لهم من يقودهم، ولو لم يكن قبلُ أهلاً للقيادة.

ففي الحديث الصحيح الذي أخبر فيه نبينا عن المهدي يقول: «**يصلحه الله في ليلة**»، كأنه لم يكن صالحًا من قبلُ، فالواجب إذًا الاهتمام بإيجاد الطائفة المؤمنة وليس الاهتمام بوصول القائد المسلم إلى الحكم.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾، دليل على جواز الجهاد بنية تطهير البلاد من الأعداء وبنية تخليص الأبناء من الأسر، ولكن بشرط كون ذلك في سبيل الله فيكون إعلاء كلمة الله هو الهدف الأساسي فلو ترك الكفار بلادنا لم يتوقف الجهاد، فلن تضع الحرب بين المسلمين والكفار أوزارها حتى يكون الدين كله لله ويعلو حكم الله الأرض كلها.

ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾، ولم يقل: «عليكم»، كما قالت بنو إسرائيل: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾، لأن الملك الرباني الذي يختاره

الله للأمة هو الذي يكون لهم فينصح لهم ويحب الخير لهم ويتواضع لهم، لا من يكون ملكًا عليهم فيتكبر عليهم ويتسلط عليهم بالإهانة والإذلال والتعذيب، والله المستعان.

- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾، ظنوا أنَّ الله طالما أفقره فهو غير راضٍ عنه، وهكذا شأن أهل الدنيا، يقيسون بالمال ويحكِّمون المال، مع أنَّ المقياس عند الله بصلاح القلب وحسن العمل.

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي فضله عليكم بالدِّين، وهذا علاج الحسد أن يعلم العبدُ أنَّ الخير الذي يوهب لأخيه إنما هو فضل، فلم يلوم الله على فضله؟

- قوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾، فيه مشروعية التبرك بآثار الأنبياء والرسل، لا بآثار غيرهم - كما هوالراجح من أقوال أهل العلم.

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي...﴾، كان هذا اختبارًا مناسبًا جدًا، إذ الدنيا ستفتح عليهم إذا انتصروا، فمن كان يقاتل منهم من أجل الدنيا فلن يفلح قتالُه، وهو الذي سيشرب من النهر الماء الكثير فهو لا يصبر عن الشهوات إذا وجد إليها سبيلاً، ومن كان قنوعًا زاهدًا فلن يشرب من النهر إلا ما يكفيه ويسد حاجته.

- قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، فيه أنَّ الدين لا يهتم بالأكثرية، إنما يهتم بتمييز الصفوف وتمحيصها، فهذا طالوت الملك العالم أقام الاختبارات مع علمه بأنَّ الصف سيفترق ويقل عدده، ومع ذلك لم يبال، فأقول هذا لمن لا همَّ لهم إلا توحيد الصفوف ولو على الباطل، وحتى لو ضمّ الصفُّ الجاهلَ والمنافقَ والعالماني، والله المستعان.

▪ وفيها دلالة لحسن وصدق كلمة مشايخ الدعوة: «لابد من كلمة التوحيد قبل توحيد الصف».

- قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾، فيه أنَّ الذي يثبت عند الفتن وعند البلاء إنما هو من يؤمن باليوم الآخر، إذ إيمانهم يجعلهم يستصغرون الدنيا ويعلمون أنه لابد من الرجوع إلى الله. فلأن يرجع المرء وهو على الطاعة خيرٌ من أن يرجع وهو على المعصية والجبن والهلع، ثمَّ إنَّ الجهاد لا يعجل من العمر شيئًا كما أنَّ الجبن عنه لا يؤخر العمر شيئًا.

- وفيه قوة إيمان هذه الطائفة ﷺ، فمع أنهم رأوا الجيش يقل عدده شيئًا فشيئًا، إلا أنَّهم لم تخر قواهم، بل زادهم هذا توكلاً على الله، إذ ربما اعتمد العبدُ على الكثرة والقوة، فإذا قل العدد كمل توكله على الله؛ لعدم وجود الأسباب، ومن كمل توكله لم يخب أبدًا، فمن حِكَم الله في تضييقه على العبد أن يكمل توكله عليه.

- قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، دليلٌ على كون الماء طعامًا، فالأحوط - ولكن لا يجب - ترك الربا فيه، خاصةً إذا كان يُباع كالمياه الجوفية، فلا تُبادَل زجاجتان من ماء بزجاجة واحدة، ويدل كذلك على قاعدة سدّ الذرائع، إذ يُخشى على من طعمه أن ينجر إلى الشرب منه.

- قوله تعالى: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، ولم يقولوا: «لا طاقة بنا»، كأنهم يقولون: لم يهب الله لنا طاقة على مواجهة هؤلاء، فيكون التقدير: «لا طاقة لنا موهوبة من الله»، ففيه نسبة القوة إلى الله والهبة إليه، بعكس ما لو قالوا: «لا طاقة بنا»، فربما يظهر منها أنَّ وجود القوة بهم كافٍ في الجهاد، وهذا

ما ظهر لهم خلافه، فتأمَّل قولهم ﴿الْيَوْمَ﴾، كأنهم قبل ذلك لم يكونوا على حالهم الذي هم عليه الآن، فإن قيل: فما حالهم قبل وما حالهم الآن؟ قلتُ: كأنهم قبلُ ظنوا أنَّ وجود القدرة البدنية بالعبد وحدها كافية، فكان لسان حالهم: «الطاقة بنا كافية»، فلما رأوا جالوت وجنوده وجدوا أنَّ عزائمهم على الجهاد قد خارت، فأدركوا أنه لابد مع القوة التي بهم من توفيق الله لهم، فالجهاد يحتاج إلى التوفيق من الله للعبد، فقالوا: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾، أي لا توفيق لنا ولا طاقة لنا موهوبة من الله زائدة على القوة التي كانت بنا، وأدركنا ذلك اليوم، فطاقة المؤمن إن لم تصاحبها طاقةٌ له من الله فلا فائدة فيها.

- وفيه أنَّ القناعة وحدها ليست كافية، ولا الزهد وحده كافيًا، فهؤلاء الذين قالوا هذا كانوا ممَّن زهد في الشرب من النهر على الراجح، ومع ذلك لم يكن توكلهم كاملاً، فلابد للعبد من مراقبة قلبه في كل الأعمال القلبية ولا يرضى عن نفسه لوجود عملٍ أو عملين.

- وفيه أيضًا أنَّ العبد لا يتحقق من الأعمال القلبية إلا عند الاختبار، فكأني بهؤلاء قبل رؤية جالوت وجنوده يظنون أنفسهم متوكلين، خاصةً وقد زهدوا في الماء، فلما حدث الاختبار فشلوا .. فما أخوفني على نفسي وعلى المؤمنين الذين لم يختبروا في الأعمال القلبية بعدُ؟ فكم من رجلٍ ظنّ في نفسه الرضا، فلما ابتُليَ ما وجد في نفسه حتى الصبر!! وكم من رجلٍ ظنَّ في نفسه التفويض، فلما ابتلي ما وجد حتى التوكل!! والله المستعان.

- وفيه أيضًا أنَّ العبد لا يحزن من البلاء، بل يفرح به؛ لأن البلاء هو الوسيلة الوحيدة لتقييم العبد لإيمانه في الدنيا قبل انتقاله إلى الله، وفي الحديث الصحيح: «**كانوا يفرحون بالبلاء كما تفرحون بالرخاء**».

تنبيه: ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ الذين جاوزوا النهـر مع طالوت كان فيهم من شرب وعصى، وهؤلاء هم الذين خارت عزائـمهم عند ملاقاة العدو، ولكنَّ الجمهـور على ما قدمت من كون الذين قـالوا هذا لم يشربوا، ويدل له أنَّهم لو شربوا مـا جعلهم طالوت معـه أصلاً؛ لعلمه بأنَّ المعـصية سـببُ الهزيمة، ويدل كذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾.

فإن قيل: أليس الذين شربـوا من المؤمنين ولكنهم عصاة؟ قلتُ: بلى، ولكنَّ لفظة ﴿مَعَهُ﴾ تقتـضي المعية الإيمـانية والمشاكلة ولا يصـدق هذا اللفظ على من شرب، ولعـلَّ هؤلاء الذين قلّ يقينهم هم الذين اغـترفـوا غرفـةً بأيديهم، ومن كمل يقينهم لم يشربوا أصلاً، ويدل لصحة هذا التعبير القرآني الدقيق في قوله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، فلو كان من اغترف ومن لم يشرب بمنزلة واحـدة لقال: «ومن لم يطعمه أو اغـترف غرفةً بيـده فإنه مني»، ولكن لم يأت السيـاق هكذا، بل نسب إلى نفـسه من لم يطعم أصـلاً واستثنى من اغترف ممَّن شرب. فسبحان من هذا كلامه!!

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا﴾، هل القائل هو من ثبت وكمل يقينه أم الجميع قالوا هذا وقـاتلوا إذ من لم يشرب فيهم إيمان، وأزال الله ضعف قوتهم بتثبيت الآخرين لهم؟؟ الظاهر ـ والله أعلم ـ أنَّ الجميع قاتلوا لأدلة:

(أ) في الحديث الصحيح: قال البراء: «كـنا نتحدث أنّ عدة أهل بدر كعدة أصحـاب طالوت الذين جاوزوا مـعه النهر ثلاثمـائة وبضعـة عشر رجـلاً، وما جاوزه معه إلا مؤمن»، فالظاهر كون كل من جاوز النهر قاتل معه.

(ب) قوله تـعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾، ولـم يقل: «فبـرزوا»، لأن الفاء تدل على السـرعة، فلو كـان من قاتل هم الواعـظون فقط لما تأخـروا، بل لسارعـوا إلى

القتال، ولكان المناسب أن يقول: «فبرزوا»، ولكنَّ لما قال: ﴿ولَمَّا﴾، دل على وجود بعض التأخر ولعلَّهم تأخروا حتى تكمل الثقة في قلوب الموعوظين ليكونوا جميعًا على قلب رجلٍ واحد، ففيه أنَّ الإمام لو وجد من بعض جنده ضعف العزيمة وعظهم ونصحهم قبل الإقدام على المعركة.

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾، ولم يقل: «ولما برز لهم جالوت وجنوده»، كأنَّ جالوت وجنوده كانوا في الفضاء منتظرين لمن يقاتلهم، وذلك لفرط قوتهم وغرورهم وزهوهم.

ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، ما أجمل هذا الدعاء وهذا الترتيب!! لأن العبد قد يصبر ثم مع طول القتال يجزع ويفرّ، فسألوا الثبات مع الصبر وقد يصبر العبد ويثبت ولا يُنصر على العدو، فسألوا الله النصر كذلك، فإن قيل: وكيف لا ينصروا مع الثبات والصبر؟ قلتُ: لعدم أخذهم بأسباب القوة من الاستعداد بما يقدرون عليه من قوة أو بسبب طلب بعضهم للدنيا كما حدث في أحد أو بسبب وجود المعاصي عند بعضهم.

ـ وتأمل قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾، ولم يقولوا: «أنزل»، وذلك لمزيد حاجتهم إلى صبر كثير، ولذا أيضًا قالوا: ﴿صَبْرًا﴾؛ للتعظيم ولم يقولوا «الصبر»، فكأنهم قالوا: «ربنا أنزل علينا صبرًا عظيمًا كثيرًا».

وتأمل قولهم: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، ولم يقولوا: «الغاصبين»، ليدل على أنَّ السبب الذي من أجله يقاتلون الأعداء هو كفرهم بالله وشركهم، ولو كانوا من بني جلدتهم، فالموالاة والمعاداة على أساس الدين وليست على أساس اللغة أو النسب أو الوطن أو غيرها من أسباب الموالاة والمعادة عند أهل الدنيا.

فائدة: في طلب بني إسرائيل للجهاد وتولي أكثرهم عنه ابتداءً، ثم تولي الكثير مع الاختبارات التي ابتلاهم الله بها ردٌ على من سخّر جهده لمناهضة الحكومات ومطالبتها بفتح أبواب الجهاد دون أن يهتم بتربية أبناء الصحوة على المعاني الإيمانية التي تقوي القلوب وتعدّها للجهاد .. فليس الفلاح إذًا بفتح أبواب الجهاد لأمة ضعيفة القلوب، قد تشبثت بالدنيا وتكالبت عليها وعلى شهواتها، ولكنَّ الفلاح بوجود طائفة مومنة قوية تعرف معنى الجهاد وتستحق نصر الله وتمكينه، فإذا لم يعرف أبناء الصحوة ذلك المعنى صاروا ظالمين لأنفسهم كما فعل بنو إسرائيل؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، فوسمهم سبحانه بالظلم، والله المستعان.

---

٢ - قصة موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن

يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١٠-٦٧).

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ

وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (الأعراف: ١٠٢-١٣٧).

قال تعالى في سورة طه نقلاً لتكذيب فرعون بآيات الله: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ

هَرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (طه: ٥٦-٧٦).

الملخص العام للقصة:

يخبر الحق - سبحانه وتعالى - بقصة إرسال موسى عليه السلام وهارون عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكيف أنَّ موسى وهارون دعواه إلى الحق فأبى وتكبر وجمع السحرة من كل مكان في مصر، سواء من كان منهم ذا خبرة واسعة فيه أو من هم أقل من ذلك، إلا أنَّ معجزة موسى ظهرت واضحة، فأسلم السحرة كلهم، فشاط فرعون غضبًا وهددهم بالقتل، إلا أنهم ثبتوا على الحق. والظاهر أنه لعنه الله قتلهم كما هدد.

المعاني الإيمانية والفوائد في الآيات:

أولاً - المعاني الإيمانية والفوائد في آيات سورة الشعراء:

قوله تعالى نقلاً لكلام موسى لفرعون لما عيّره بقتله للقبطي: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، أي من التائهين كما يُقال: «فلان ضلَّ الطريق»، فهذا كما قال تعالى لنبيه في سورة الضحى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧)، ولا يعني الضلال عن العمل بالحق، فالأنبياء معصومون من الفسق قبل وبعد الرسالة، فمعنى الضلال هاهنا إذًا هو عدم الاهتداء لتفاصيل الشرع، فالأنبياء والرسل لم

يزالوا على التوحيد وعمل الخيرات وترك المنكرات قبل وبعد الرسالة، إلا أنهم لم يعرفوا تفاصيل الشرع إلا بعد الرسالة أو النبوة.

ـ قوله تعالى نقلاً لكلام موسى لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، فقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ يدل على جواز فرار الداعية إذا غلب على ظنه الهلاك وكان بقاؤه لا يحدث مصلحةً، ولا يُعدُّ هذا خورًا أو نقصًا، فليس الكمال في الإقدام دائمًا، ولكنَّ الكمال في معرفة الداعية للمصالح والمفاسد، فيحدد متى يقدم ومتى يحجم.

▪ وفي هذا أكبر درس لمن لم يفهموا المصالح والمفاسد وأخذتهم الحميّات فتعجلوا، فضاعت ثمرات جهود سنين من الدعوة، فها هو موسى عليه السلام يفرّ ويهرب لوجود المفاسد العظيمة في بقائه والمصالح في هربه، فلو بقي لقتل أو حُبس على الأقل ولم ينتفع المسلمون به، ولكن لمَّا هرب آتاه الله الرسالة وأيده بالمعجزات ووعده النصر والتمكين، فعاد يدعوا بقوة وبصيرة.

ـ قوله تعالى نقلاً لكلام موسى: ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، يدل على أنَّ وقوع الخوف الفطري من ظالمٍ أو حيوان مفترسٍ مثلاً لا لوم فيه ما لم يستقر، فحدوث هذا الخوف طبيعي، فأمَّا المؤمن الكامل فيدفعه عن نفسه بالتوكل على الله وحده، فإن لم يقدر المرء على دفعه كان بقاؤه نقصًا إلا أنَّ المرء لا يأثم إلا لو أدّى به هذا الخوف إلى ترك الطاعة أو فعل المحرم.

ـ قوله تعالى نقلاً لكلام موسى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، فيه دليل لصحة قول من قال من السلف: «على قدر البلاء يكون العطاء» فها هو موسى عليه السلام يُبتلى بالخوف من الظالمين ويهرب ويترك بلده وأهله وإخوانه المؤمنين، فآتاه الله أعظم عطية، ألا وهي الرسالة، فعلى المبتلى أن يصبر ويرضى ولينتظر من الله الفضل العظيم.

ـ قوله تعالى نقلاً لكلام فرعون لموسى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، ولم يقل «مع المسجونين»، كأنه على عادة الظالمين سيجعله في سجنٍ وحده وليس مع المجرمين خشية أن يدعوهم إلى الله فيهتدوا، خاصةً مع صدق منهجه وبعد المسجونين المجرمين عن أسباب الشهوات، فيسهل التزامهم، وقد أدرك أعداء الخير هذا فجعلوا للدعاة سجونًا خاصة غير سجون المجرمين.

▪ وفي الآية كذلك بيان لضعف أعداء الحق، إذ يلجأون إلى العنف عند ظهور ضعفهم، وذلك لعدم وجود حجةٍ عندهم، وأمَّا أهل الحق فهم بمنهجهم الحق أقوياء ولو كانوا مستضعفين.

ـ قوله تعالى نقلاً لكلام موسى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، فيه طبع الظالمين المتكرر على مدى الدهور من كونهم لا يريدون معرفة الناس بحقيقة عداوتهم للحق ولأهله، بل يظهرون للناس أنهم يحاربون الفساد والتطرف وأنهم يريدون الخير ويتبعون الحق، ولذا قال فرعون لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾، ولم يقل له: «ولو جئت به»، لئلا يظهر للناس عداوته لذات الحق وأهله، فكأنه أراد بقوله لموسى: ﴿فَأْتِ بِهِ﴾، أن يظهر للناس أنَّه لا يعادي ذات الحق ولا أهله، بل سيقبله إذا أتاه. ولم يكن يتوقع ـ لعنه الله ـ أن يأتي موسى بهذه الحجة الباهرة النيّرة التي لا يبقى معها تردد في قبول الحق، فلم يقبله، بل سلك طريق الظالمين الثاني إذا رأوا قوة أدلة أهل الحق من تسليط أتباعهم لمواجهة أهل الحق من جنس أدلتهم فيكرِّسون دعاةً من أهل الباطل وعلماء سوء ليأتوا بالأدلة المحرفة التي تؤيد الباطل، وهكذا صنع فرعون حيث بحث عن السحرة الذين برعوا في جنس ما أتى به موسى ليحاربوه فينتصروا عليه، فيظهر للناس بطلان دعوة موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ

عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ .

فلمَّا انتصر موسى على السحرة سلك فرعون طريق الظالمين الثالث، إذا رأوا انتشار دعوة أهل الحق من تعذيب أهل الحق لردهم عن الحق، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

وتأمّل قول الطاغية لملأه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ففيه بيان حرص الفراعنة على الملك، وشدة خوفهم على فواته، حتى أنّهم يتذلّلون، ويلجأون لملأهم - الذين هم تحتهم - لتثبيت ملكهم، كما فيه دلالة على استغلاله لحب الملأ - وهم مثله - للسلطة والتعظيم، فبالغ في تعظيمهم حتى جعلهم الآمرين له.

- قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾، فيه بيان لسياسة الظالمين إذا أحسُّوا بفساد العلاقات الخارجية حاولوا إصلاح العلاقات الداخلية مع شعوبهم، فها هو فرعون لما رآه قومه قد فرَّ وهرب من عصى موسى وخاف من سقوط سلطانه تودد إلى شعبه بعد أن كان يجبرهم ويسوقهم إلى مراده هو ولو بكرهٍ منهم، فها هو يبث جنوده في الناس يدعونهم لحضور لقاء موسى عليه السلام مع السحرة، فتأمل قولهم للناس كما أخبر القرآن عنهم: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾، وفيه من الحض المؤدب الليّن ما فيه.

ثم تأمَّل الدهاء الفرعوني إذ يخبرون الناس بأنهم طالبون للحق وباحثون عنه وليسوا متعصبين لأنفسهم، فقالوا كما أخبر القرآن: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ

﴿الْغَالِبِينَ﴾، بل فيها والله كذلك سياسة التهديد المقنَّع، فكأنهم يأمرون الناس بتشجيع السحرة وعدم مناصرة موسى ولكن دون تصريح، فهم لم يقولوا: «لعلنا نتبع من ينتصر»، بل قالوا: ﴿نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾، فسبحان من أخبر بصفات الفراعنة منذ قديم الزمان!!

ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، الظاهر من سياق القرآن أنَّ فرعون جمع نوعين من السحرة: السحار والساحر، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ (الأعراف:١١٢)، فالسحار كثير السحر وكبير الخبرة فيه، وأمَّا الساحر فدون ذلك.

وتأمل السياق القرآني العظيم الذي يصف ما قاله كل فريق وما قيل لهم، فأمَّا السحار فقال الحق عنهم في سورة الشعراء: ﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ...﴾، فقال سبحانه: ﴿وَابْعَثْ﴾، وهي تقتضي قيامًا بعد ركود، فكأنهم كانوا قد عزموا على ترك السحر، ولذا قالوا لفرعون فيما نقله الحق عنهم في سورة طه: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ (طه:٧٣)، وقال أيضًا عنهم في سورة الشعراء: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وصيغة المبني للمجهول ﴿فَجُمِعَ﴾ تدل على أنهم أُجبروا، بينما قال الملأ عن الساحرين فيما نقله الحق عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ (الأعراف:١١١-١١٣)، فتأمَّل قولهم: ﴿وَأَرْسِلْ﴾، فكأنَّ الساحر يكفي مجرد الإرسال إليه، ثم تأمل قوله عن السحارين: ﴿فَلَمَّا﴾، التي تدل على عدم مبادرتهم بالمجيء، بل كان هناك تأخر ورفض أو تردد على الأقل. ثم تأمَّل قول

السحارين لفرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، فسألوه بالشك وقالوا: ﴿أَئِنَّ﴾، وذلك لعلمهم بنظام السُّخرة الذي اتبعه فرعون معهم ومع غيرهم من قبل، ولذا قالوا: ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، أي لو انتصرنا نحن دون أن ينتصر موسى في أيّ جولة، فمع أنهم عدلاً يستحقون الأجر لو كانت الجولة الأخيرة لهم ولو كانت لموسى جولات، إلا أنَّ علمهم بفرعون جعلهم يطلبون الأجر لو كانت كل الجولات لهم، فقالوا: ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، وأمَّا الساحرون فقد كانوا مغترين ببريق أهمية هذه المعركة، فطمعوا في فرعون وأجره فقالوا فيما نقله الحق عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ (الأعراف:١١٣)، فجزموا وقالوا ﴿إِنَّ﴾، ولم يقولوا كالسحارين: ﴿أَئِنَّ﴾، وكذا بادروا بالمجيء لتوِّهم فقال سبحانه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، ولم يقل: «فلمَّا» كما قال عن السحارين.

ثم تأمَّل دهاء فرعون حيث أجاب كل فريق بما يجعله يبذل قصاري جهده، فأمَّا الساحرون فقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، أي ولو لم تنتصروا فخوضكم في هذه المعركة لصالحي يقربكم مني، وذلك لكونهم صغار السنّ، ولو كان السيف على رقبتهم لربما ارتبكوا فلم يحسنوا العمل، فطمأنهم ليبذلوا قصارى الجهد، وأمَّا السحارون فقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، فزاد: ﴿إِذًا﴾ أي لن تحظوا عندي بأيّ منزلة إلاَّ لو انتصرتم، وذلك لكونهم خرجوا كارهين، فخشي الطاغية أن يقصروا، إذ الكاره للشيء لا يحسنه، فهددهم بأنهم إن لم ينتصروا فلا شيء لهم، بل وربما عاقبهم.

ثم تأمَّل الدهاء السياسي للفراعنة حيث قال للجميع: ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، ولم يقل: «المقربون»، لئلا يظنّ الملأ المحيط الآن به أنَّ السحرة سينالون منازلهم عند فرعون إذا انتصروا، فربما لو علموا ذلك لسعوا بكل ممكن لفشلهم، فطمأنهم فرعون على أنهم لن يُزالوا عن حظوتهم ليكسب الجميع .. فتبًا له من داهية!!

ثانيًا ـ المعاني الإيمانية والفوائد في سورة الأعراف:

ـ قال تعالى نقلاً لكلام فرعون فيما قاله عن موسى عليه السلام: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، وفيه ما طبع عليه الظالمون من قلب الحقائق والتشنيع على الدعاة ليكسبوا بغض الناس لهم وتعاطفهم مع الظلمة، فقال لقومه: «إنما يريد موسى أن يخرجكم من بلدكم»، مع أن موسى عليه السلام ما طلب منه إلا أن يترك له بني إسرائيل، فقال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: ١٦-١٧).

وتأمَّل قول الطاغية لملأه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾، فكأنه أراد أن يثبت ملكه بملأه وشعبه، فأصلح ما بينه وبينهم، ولذا خاطبهم وكأنهم هم الآمرون له استغلالاً منه لما جبل عليه الكثير من المصريين من حب التعظيم والتبجيل وحب الرئاسة والسلطة.

وفيه كذلك عظم حب الفراعنة للملك منذ قديم الزمن، حتى أنَّهم إذا أحسُّوا بما يهدد ملكهم فقدوا القدرة على التفكير والتخطيط، بل يلجأون إلى الحاشية لتشير عليهم وتخطط لهم.

ـ قوله تعالى عن السحرة: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، فيه بيان لحقيقة سحر السحرة، وهو التخييل، فالساحر لا يقلب الأعيان، بل يلبِّس على البصر، وأما موسى عليه السلام فقد قلب ـ بإذن الله ـ العصا إلى ثعبان، ولذلك لم يتمالك السحرة أنفسهم فخروا سجدًا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

تنبيه: قال علماء أهل السُّنَّة: «للسحر حقيقة تأثيرية». قلتُ: ومعنى ذلك أنه يؤثر بإذن الله في إمالة قلب إلى قلب أو إبعاده عنه، وكذا في مرض البدن وغيرها، وأمَّا تغيير الأعيان فلا.

ـ قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾، أي صار واقعًا بعـد أن كان رجاءً وأملاً، فالله المستعان على إعطاء أُمتنا أملها ورجاءها في نصر الله وتمكينه.

ـ قال تـعالى نقـلاً لما قاله فـرعون للسـحرة: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بينما قال في الشعراء: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الشعراء: ٤٩)، فكأنه خاطب السحـارين في سورة الشعراء وقال لهم: «إنَّ مـوسى هو الذي علمكم السحر، ولذا غـلبكم ثم هددهم بأشد العقاب ولـم يؤكـده باللام فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وذلك لعلم فرعون بحب الصغـار للدنيا فلـم يؤكد عقـوبتهم بل طمع أن يرجـعوا فكأنه قـال لهم: «هذا العقاب غير مؤكد فقد أرجع عنه إذا رجعتم إلى طاعتي»، وأما كبار السحرة فقد علم ثباتهم ويأس من إغوائهم ولذا أكد العقوبة باللام فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ومن بدائع كتاب ربـي ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّه قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ونهى بها الآية ثم قال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ﴾، ليدل على أنَّ تـهديد فرعـون للساحريـن كان فيـه رجاء رجوعهم، وأمَّا السـحَّار فجعلها سبحـانه في آية واحدة فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ﴾.

ـ وأيضًا قد علم الطاغيـة خوف الصغار من العقوبة فاكتـفى بمجرد التهديد إذ يكفي ذلك لردعهم، وأما الكبار فبالـغ في تخويفهم عسى أن يرجعوا إذا هُددوا بالعقاب الشديد.

ـ قال تعالى نقـلاً لكلام فرعون: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٤)، وقال في الشـعراء: ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء: ٤٩)، فكأن الطاغية لما رأى ثبات الجمـيع هدد الساحرين وزاد في تهديده لهم ﴿ثُمَّ﴾، لعلمه بمزيد خوفـهم وضعف قلوبهم عن السحارين عسى أن يرجـعوا فكأنه قال

لهم: «لن أكتفي بقتلكم وقطع الأيدي والأرجل بل سأصلبكم بعد ذلك»، وأما السحارون فقد كانوا أصلاً كارهين للخروج ولم يكن عندهم من الأمل في الحياة والطمع فيها ما كان عند الساحرين ولذا قال لهم: ﴿لأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ فقط، ولكن شاء الرب - تبارك وتعالى - أن يثبت الجميع بما قذفه في قلوبهم من قوة إيمان فزهدوا في الدنيا وما فيها.

- وتأمَّل رد الفريقين فأمَّا السحارون الزاهدون في الدنيا الساخطون على نظام فرعون فقالوا: ﴿لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٥٠-٥١)، وقال عنهم سبحانه في طه: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ٧٢-٧٣)، وفي ردِّهم تظهر قوة الثبات وعدم المبالاة بالدنيا وأما الساحرون فقد كان الأمر أصعب عليهم، ولذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، فلجأوا إلى الله ليثبت قلوبهم أمام التهديد بفقدان الحياة فثبتهم الله - رضي الله عنهم -.

تنبيه: يلاحظ أنَّ فرعون قال للساحرين: ﴿آمَنتُم بِهِ﴾، التي تدل على التصديق والاتباع فكأنَّه يقول للصغار: «لقد تعودتم على التبعية المجردة دون تفكير فلما رأيتموه انتصر اتبعتموه دون ترو منكم ولا تبصر فاتركوا ذلك واسموا بأنفسكم»، وأما الكبار فقال لهم: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾، ليحث قلوبهم على الكفر بموسى فكأنَّه يقول لهم: أنتم رؤساء السحر وكباره فكيف ترضون بالتبعية والانقياد لغيركم.

- قال تعالى نقلاً لما قاله فرعون: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾، مع أن الذي يتوقع أن يقتل موسى ومن معه أنفسهم ولكن صرف الله فرعون عن ذلك بفضل استعاذة موسى لربه حيث قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ

بربّي وربّكم مّن كلّ متكبّرٍ لاّ يؤمن بيوم الحساب﴾ (غافر:٢٧)، وبقوله: ﴿وإنّي عذت بربّي وربّكمْ أن ترجمون﴾ (الدخان: ٢٠)، فالاستعاذة بـالله من شيطان الإنس تنفع كما تنفع الاستعاذة من شيطان الجن إذ بيد الله قلوب العباد ونواصيهم.

ـ وفي هذا سبب كـبير للتوكـل على الله وحده والركون إليه وعـدم الجزع أو الهلع مما يفعلـه الظالمون وليعلم المؤمن بأن تسليط الكفـار إنما هو بإقدار الله لهم وإرادته لذلك لمصالح وحكم عظيـمة يعود النفع فـيها على المؤمنين فتـأمل قوله تعالى في سورة الشعراء عن فرعون وقومه: ﴿فلمّا تراءى الْجمْعان قال أصْحاب موسىٰ إنّا لمدْركون (٦١) قال كلاّ إنّ معي ربّي سيهْدين (٦٢) فأوْحيْنا إلىٰ موسىٰ أن اضْرب بّعصاك الْبحْر فانفلق فكان كلّ فرْقٍ كالطّوْد الْعظيم (٦٣) وأزْلفْنا ثمّ الآخرين﴾ (الشعراء:٦١-٦٤)، فمع أنهم هم الذين طاردوا موسى وقومه إلاّ أنّ الله قال: ﴿وأزْلفْنا﴾، فهو سـبحانه الذي حرّكهم وجعلهم يطاردون موسى وقومه ولو شاء الله ما فعلوا ذلك.

ثالثًا ـ المعاني الإيمانية والفوائد في سورة طه:

ـ قوله سبحانه وتعالى لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿اذْهبا إلىٰ فرْعوْن إنّه طغىٰ (٤٣) فقولا له قوْلاً لّينًا لّعلّه يتذكّر أوْ يخْشىٰ﴾ (طه:٤٣-٤٤)، فيـه أدب الداعيـة مع المدعو ولو كـان طاغيـة ظالمًا وهو اللين والرفق فما كـان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع منه إلا شانه كمـا صح بذلك الحديث، وقال تعالى: ﴿ادْع إلىٰ سبيل ربّك بالْحكْمة والْموْعظة الْحسنة وجادلْهم بالّتي هي أحْسن﴾ (النحل:١٢٥).

ـ قوله سبحانه نقلاً لكلام فرعون: ﴿قال أجئْتنا لتخْرجنا منْ أرْضنا بسحْرك يا موسىٰ (٥٧) فلنأْتينّك بسحْرٍ مّثْله فاجْعلْ بيْننا وبيْنك موْعدًا لاّ نخْلفه نحْن ولا أنت مكانًا سوًى﴾ (طه:٥٧-٥٨)، قوله: ﴿سوًى﴾، أي مكانًا مـحـايدًا بيننا وبينكم فـمع أن الأرض كلهـا مصرية ملكٌ للفراعنة إلا أنه قال: ﴿سوًى﴾، وذلك تنبيهًا على عادة اليهود منذ

قديم الزمن وهي أنهم يتجمعون في البلد التي يسكنون في مكان واحد أو حي واحد خاص بهم ولا يخالطون الناس في أحياءهم ولذا قال فرعون: ﴿سُوًى﴾، أي وسطًا بين مكانكم ومكان بقية الناس.

- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (طه:٥٩)، قوله: ﴿يُحْشَرَ﴾، بالمبني للمجهول يدل على إجبار الناس على ذلك وهكذا المصريون منذ قديم الزمان - كثيرٌ منهم - يريح نفسه ولا يتعبها في طلب الحق والبحث عنه فمع أن المعركة ستكون في يوم عيد لئلا يحتج أحدهم بعمله ومع ذلك احتاجوا إلى أن يحشروا لذلك ولعل سر هذه السلبية هو ظلم حكامهم واستبدادهم بالأمر وخوفهم منهم، فكأن لسان حالهم يقول (لا فائدة ولا أمل) فآثروا الانسحاب بالكلية، وهذا الفعل ليس صحيحًا على إطلاقه فحضورهم لمعرفة الحق من الباطل واجبٌ وحتمي ليتبعوا الحق ويتركوا الباطل، وأما مشاركتهم في المجالس الانتخابية مثلاً. فعلى حسب المصالح والمفاسد يقدم المرء أو يحجم.

تنبيهات:

١ - لا يعارض قول فرعون هنا: ﴿يُحْشَرَ النَّاسُ﴾، قوله في سورة الشعراء: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ (الشعراء:٣٩)، فلعلّ فرعون أراد إجبار الناس ثم شاور ملأه فأشاروا عليه بترك ذلك ليكسب قلوبهم والله أعلم.

٢ - ويستفاد من القصة غير ما ذكرنا أثر الإيمان العظيم والعجيب والسريع في تغيير النفوس، وتهذيب مراداتها وغاياتها، فقد كان السحرة لا همّ لهم عند مجيئهم غير المنصب والمال والجاه، فلمّا آمنوا زهدوا في كلّ ذلك، بل ضحّوا بحياتهم من أجل دينهم، فسبحان مقلّب القلوب.

٣ ـ ويستفاد منها كذلك أنّ قوة الإيمان لا ترتبط بزمن الالتزام، بل بما قام في القلب من أعمال القلوب، فهؤلاء ـ مع قرب ـ التزامهم كانوا أشدّ إيمانًا من كثيرٍ من أتباع موسى قديمي الالتزام، حتى أنّ بعضهم سأل موسى بعد مجاوزة النّهر أن يجعل لهم إلهًا كما للقوم آلهة.

٤ ـ وفيها كذلك الحذر من الجزم لعاصٍ ـ ولو كان كافرًا ـ بالنّار، فقد كان هؤلاء السحرة أول النّهار سحرة فجرة ثمّ كان في آخره شهداء بررة، كما قال بعض السلف.

٥ ـ وفيها كذلك أنّ الله قد يقيض من مكر الكفار وكيدهم ما يكون سببًا لظهور الحقّ وإيمان النّاس، فهل كان ببال فرعون وملأيه أن يؤمن السحرة بموسى عليه السلام وأن يظهر الحق هكذا؟

٣ـ قصة سليمان مع ملكة سبأ

قال تعالى في سورة النمل: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

الملخص العام للقصة:

يخبر الحق سبحانه وتعالى ـ بقصة سليمان وكيف أنه كان عادلاً تقيًا داعيًا إلى الله وعلى الرغم من عظم ملكه إلا أنه كان متواضعًا مشهورًا بين رعيته ـ حتى عند النمل ـ بالعدل وعدم الظلم، وكيف كان أهل مملكته ناصحين له مهتمين بالدعوة إلى الله مثله فالرعية غالبًا ما تهتم بما يهتم به ملكها، وكيف أنه سخر ما مكنه الله فيه لخدمة الدين والدعوة إليه ولو كان هذا المدعو خارج مملكته فالمؤمن عالي الهمة ويحب الخير والصلاح لكل الناس.

المعاني الإيمانية والفوائد في الآيات:

ـ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾، ولم يقل: «ملكًا» مع أنهما قد آتاهما الله ملكًا عظيمًا ليدل على أن أهمية العلم وتفضيله على المال والملك، وانظر إلى علمهما بالله حيث قالا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، فعلما أن التفاضل إنما يكون بالإيمان لا بالملك ولا بالمال.

ـ قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾، لا يخالف ما صح عن نبينا ﷺ من قوله: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة**»، لأن ميراث داود هاهنا هو

العلم والنبوة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾، ولأن لداود أولاد غير سليمان ومع ذلك خص بالميراث سليمان فدل على أنه ميراث النبوة وليس ميراث المال.

- قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، فقال: ﴿حُشِرَ﴾، التي تدل على أن غيرهم حشرهم فكأنَّ فيهم كارهين، وبدأ بالجن قبل الإنس لكثرة من يستعصي منهم، وفي وجود من هو كاره القلب في مملكة سليمان دليل على أنه لا يشترط لتمكين الأمة التزام الجميع طوعًا ولكن المشترط غلبة الطائفة المؤمنة القوية وكثرتها بحيث تكون معها سلطة تمنع الطائفة القليلة المنافقة أو المستعصية من إظهار عصيانها.

- قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي يمنعون من السير حتى يكمل العدد ويجتمع الجميع ولعل سليمان عليه السلام فعل ذلك ليسير الجميع في مهابة وكثرة لإغاظة المنافقين الذين يكرهون تجمع الناس على الخير ولذا شرع لنا صلاة الأعياد في الخلاء لتظهر قوة المسلمين وكثرتهم مما يغيظ أعداء الله.

- قوله تعالى نقلاً لكلام النمل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾، فيه علم الرعية (النمل) بعدل الحاكم وعدم ظلمه فهم يعرفون أنه لا يتعمد إيذائهم أو تعذيبهم حتى ولو عاقبهم فإنما هو لهم كأبٍ لهم يؤدبهم.

- قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، فيه علم الهدهد بحقيقة الأمر وبأن الشيطان يصد الناس عن طريق الهداية، فما أجهل من كان الهدهد أعلم منه!! ولذا من الخطأ البين نسبة الغرب الكافر إلى العلم إذ من جهل الغاية التي خلق من أجلها فكفر بالله وكرَّس حياته

للدنيا فصارت مبلغ علمه وغـاية أمله، من كان هكذا فلا أجهل منه قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧).

ـ قـوله تعـالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَـرْشِ الْعَظِيمِ﴾، ولم يقل هاهنا: «ذو العرش العظيم»، كمـا قال في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٤٢)، بل قال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، لأنه قال هاهنا عن ملكة بلقيس: ﴿امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، فقال عن ذاته العلية: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، كأنه يقول: «الله ربها ورب عرشها ورب عرشه العظيم الذي لا مثيل له في عظمته».

▪ وفي قـوله عن نفسـه سـبحـانه: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، حث لأصـحاب الكراسي والمناصب والعروش في الدنيا بأن يكونوا فوق عـروشهم وكراسيهم فلا تستعـبدهم فيصـيروا عبيدًا لمناصـبهم وكراسيـهم بل عليهم أن يكونوا على الحق حاكـمين بالحق لا يخافـون في الله لومة لائم ولو هددوا بفقـد مناصبـهم، فإذا فعلوا ذلك صاروا فوق عروشهم حقًا وإلا صاروا عبيدًا لها.

ـ قوله تـعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، ولم يقل: «أم أنت من الكاذبين» فكأنه يقـول لو كذبت عليَّ الآن فطبعك الـكذب من القديم وليس الآن فقط.

▪ وإذا كان من كـذب ليخلص نفسـه من العـقاب المسـتحق عليـه موصـومًا بالكذب، فكيف بمن كذب ليـأكل أموال الناس بالباطل؟! وأمَّا من كـذب لينقذ نفسه أو غيره من ظلمٍ فلا لوم عليه.

ـ قوله تعالى نقـلاً لكلام بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾، وكرمه حسنه فـي مظهره فدل على أهمية النظام والمظهر العـام، فالنظافة والنظام

وحسن السمت من الإيمان، والكمال لا يتجزأ والنفس السوية تسعى للكمال في كل شيء ممكن إلاَّ أنَّ المؤمن لا يبالغ في اهتمامه بالمظاهر لئلا يفسد عليه قلبه، وقد صحَّ في الحديث: «**البذاذة من الإيمان**».

- قوله تعالى نقلاً لكلام بلقيس: ﴿**مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ**﴾، فيه ذكاؤها حيث خافت أن يظن بها أمراؤها الخور والجزع عند جمعها لهم وإذا خار الملك خارت رعيته فقالت لهم: «هذا الاجتماع ليس خوراً مني ولكنها عادتي وطبعي ألا أقطع أمرًا وأبت فيه حتى أشاوركم».

- قوله تعالى: ﴿**قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ**﴾، فيه كذلك ذكاؤهم حيث قدموا الإخبار بقوتهم لئلا تشعر منهم بالضعف والجبن فتقل عزيمتها إذ الملك يتعزز ويتقوى بقوة جنده.

- قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾، بعد نقله لكلام بلقيس يدل على مبدأ الإسلام العام في قبول الحق من كل من جاء به ولو كان كافرًا.

- قوله تعالى نقلاً لكلام بلقيس: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾، يدل على علم أهل الباطل بأنَّ طلب الدنيا وجعل عمل الآخرة من أجلها، فِعل ذلك ينافي الصدق والصلاح ولا تمكين معه، فعجبًا لمسلمٍ لا يعلم تلك الحقيقة.

- قوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي**﴾، فيه فضل قوة الدين على قوة البدن فها هو الذي عنده علمٌ من الكتاب يفوق في قوته العفريت الجني الذي عنده القوة البدنية، فما بالُ بلادٍ يشترطون في أجنادها أن يكونوا حالقين للحية وكلما زاد فسق الجندي كلما زادت منزلته عندهم!! بل ما بالُ دعاةٍ يهتمون بتقوية أبدانهم دون أن يهتموا بصلاح قلوبهم وتقويتها بطاعة الله!!

ـ قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، فيه خطورة التواجد مع الكفار والنشأة وسطهم فها هي بلقيس على الرغم من ذكائها وحسن عقلها إلا أنها كانت كافرة وما صدها عن الحق إلا صعوبة مخالفتها لقومها الكفار فما أعظم نعمة الله على العبد بأن يوجده في أمة مؤمنة وما أغرب ما يفعله البعض من هجرته لبلاد الكفر وتركه لبلاد الإسلام دون وجود مصلحة راجحة في سفره لهذه البلاد كأن يدعوهم ويعلمهم ليكونوا على أحسن حال.

ـ قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

▪ قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، زاد ﴿ضَاحِكًا﴾، لأن المرء قد يبتسم ضاحكًا وقد يبتسم ابتسامة الغاضب أو الماكر.

▪ قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، ولم يقل: «ألهمني» بل قال: ﴿أَوْزِعْنِي﴾، التي تدل على أنه طلب توزيع الشكر على كل أعضاء فكأنه سأل الله أن يرزقه الشكر بكل عضوٍ من أعضائه وذلك باستعماله في طاعة الله ومرضاته.

▪ قوله: ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾، هكذا الولد البار العالم بالله فهو يشكر ربه على نعمه التي أنعم بها على والديه إذ الخير الواصل للوالدين يعود نفعه على ولدهما خاصةً نعمة الإيمان والتقوى إذ يحفظ الله الذرية بصلاح أبويها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ (الكهف: ٨٢)، كما أن الوالد الصالح يربي أولاده من الصغر على الطاعة فتصير الطاعة عليهم عند الكبر سهلةً يسيره لا كلفة فيها بعكس من لم ينشئ على الطاعة منذ الصغر فإنه يشق عليه الالتزام عند الكبر فضلاً عمن يعاني

من عدم التزام والديه ومحاربتهما له على التزامه ثم إن الوالدين الصالحين يحسن الناس معـاملة أولادهما إحسـانًا وإكرامًا لوالديهم فـمن أعظم النعم على المؤمن التزام والديه.

- قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، وهكذا والله أخلاق المؤمن فهو يحسن الظنَّ لأبعد الحدود فها هو سليمان يتهم نفسه بأنه لا يرى الهدهد قـبل أن يتهم الهدهد بالغـياب إحسـانًا للظن بل ولعلمه برعيـته وحسن طاعة الهدهد، وتأمَّل الملك الفاهم الحاذق كيف عرف أن الذي ضُبِط مرةً على حالٍ غير مرضي ليست هذه هي أولى أخطائه فـما كان ليُفضح في الغالب من أول مرة ولذا قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، ولـم يقل: «أم غاب» ليدل على أنه لو كان قد أهمل وقصر وضبط هذه المرة فهـذه عادته التي كان عليها من قبل أن تُعلم حقيقة حاله.

- قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، لا إله إلا الله!! أيُّ رعيـة هذه وأيُّ حاكمٍ هذا!! فهكذا الرعـية المؤمنة في ظل حكم المؤمن تنصـحه وتقوِّمه ولا تخـاف منه لعلمها بحبه للنصـيحة وقبوله لها وفـرحه بها، ألم يقل عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله امرأً أهدى إليَّ عيوبي»؟؟ وها هو الهدهد يخبر سليمان عليه السلام بأنه علم ما لم يعلم وأحاط بما لم يحط به فما كان من نبي الله إلا أن استمع له.

٤ ـ قصة إبليس مع آدم

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١١-٢٧).

وقال في سورة ص: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ

﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٧١-٨٥).

وقال في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٤٣).

الملخص العام للقصة:

يخبر الحق سبحانه وتعالى بتكريمه لآدم ولبني جنسه وكيف أسكن وذريته في صلبه في الجنة وأباح له كل ما فيها إلا شجرة واحدة فوسوس إليه الشيطان حتى أكل آدم منها هو وزوجه فظهرت لهما عوراتهما فعرفا خطأهما وتابا إلى الله فتاب الله عليهما.

المعاني الإيمانية والفوائد في الآيات:

- قوله تعالى في سورة الأعراف نقلاً لكلام إبليس: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، بينما قال في سورتي الحجر، ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، وليس هذا تكراراً فقوله: ﴿فَأَنظِرْنِي﴾، يدل على ربط هذا بما قبله فكأنه قال: «إذا كتبت علي اللعنة إلى يوم القيامة

فأنظرني لأغوي من أستطيع من الخلق ليكونوا مثلي»، وأما قوله: ﴿أَنظِرْنِي﴾، فيحتمل أنّ إبليس سأل الله ذلك ابتداءً فقال: ﴿أَنظِرْنِي﴾، فلما أخبره الله بغضبه عليه سأله ثانيةً ليطمأن على تحقق طلبه فقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾، فزاد كلمة ﴿رَبِّ﴾، استعطافًا كأنه يقول له أنت الرب الذي يجيب طلب مخلوقه ويرزقه ولو كان كافرًا فأجب دعائي.

ـ وأما قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، فيحتمل أن يكون الرب لما علم من إبليس أنه يتوسل بالربوبية ليطمأن على طلبه، لما علم ذلك أخبره أنه لا داعي لتوسله بما يتكبر عنه؛ فالرب كما أنه الخالق الرازق إلا أنه السيد الآمر الناهي المشرع فكأنه قال له: «لا تخف من فوات طلبك ولا تتوسل بما تتكبر عنه فإنك قد كتب لك أن تكون من المنظرين»، ويحتمل أن يكون المحذوف تقديره: «إذا كانت الحياة هي طلبك والبقاء فيها هو أمنيتك فلا تخف فإنك من المنظرين»، ويحتمل أن يكون المحذوف تقديره: «أما إذ سألت وطلبت الإنظار فإنك من المنظرين» كأن الله قدر لإبليس الإنظار لأسباب وجعل من جملة هذه الأسباب طلبه وسؤاله ويحتمل أن يكون المحذوف تقديره: «قد وعدتك الإنظار وما أخلف الميعاد قط فلا تسألن ثانيةً فإنك من المنظرين» والله أعلم.

ـ وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾، فهي جواب سؤاله: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ولا محذوف فيها.

فائدتان:

١ ـ في طلب إبليس وإجابة الله له عبرة لكل داعٍ ملحٍ بما يراه أنفع له وهو في الحقيقة عين هلاكه فقد كان إنظار إبليس زيادةً في سيئاته وزيادةً لعقابه يوم القيامة، فمن دعا الله وألحَّ ولم ير جوابًا فلا يحزن فربما كان الخير في عدم الإجابة.

▪ وفي إجابة الله لإبليس كذلك مدعاةً لزيادة رجاء المؤمن في ربه إذ أجاب دعاء أكفر الخلق فإجابته لدعاء عبده المؤمن أولى ولكن ربما كانت الإجابة والخير في غير ما يدعوا به المؤمن إذ المخلوق قاصر العلم والرب بكل شيء عليم.

٢ـ في قول إبليس ﴿رَبِّ﴾، دليل على معرفته بربه ففي هذا ردٌّ لقول من قال: «الإيمان هو مجرد المعرفة ولو تُرِك التصديق والعمل»، فها هو إبليس يعرف ربه ولكنه أكفر الكافرين لإباءه واستكباره عن أمر ربه ولذا قال أهل السُّنَّة: «الإيمان هو التصديق بالجنان والعمل بالأركان مع القول باللسان».

ـ قوله تعالى نقلاً لقول إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، كلمة حقٍ أريد بها باطل، فإبليس لعنه الله يريد نفي المسئولية عن نفسه فكأنه يقول: «طالما أغويتني فلا لوم علي»، وهذا كلام باطل إذ إغواء الله لعبده العاصي لا ينفي مسئوليته.

والإغواء عند أهل السنة على نوعين:

(أ) **إغواء جزائي:** أي يغوي الله عبده عقابًا له على سلوكه طريق الغواية كما قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ (الصف: ٥)، وقال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ**﴾ (غافر: ٣٤).

(ب) **إغواء ابتدائي:** أي يخلق الله في قلب عبده الغواية وييسر له أسبابها ويجعله سالكًا لطرق الغواية وذلك لعلم الرب بقلب هذا العبد وبما يستحقه ولا ينفي ذلك مسئولية العبد إذ هو الذي يسلك طريق الغواية باختياره ويفعل بأعضائه المعاصي ولا يجد قوة خارجية ترغمه على فعل المعاصي.

ـ قوله تعالى نقلاً لقول إبليس: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٧)، فيه مزيد فضل عبادة الشكر حتى أن إبليس جعل خطته إغواء الناس عن عبادة الشكر، ومعلومٌ أنه يسعى لإبعاد الناس عن الخير وقد لام الله الناس على ترك

هذه العبادة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٣)، فتنبهوا عباد الله لهذه الطاعة الجليلة واشكروا الله على كل طاعة وفقكم لها وعلى كل معصية حال بينكم وبينها وعلى كل نعمة سخرها لكم ورزقكم بها فإذا أيقنتم بالعجز عن توفية الله حق شكره فاستغفروا من التقصير، فمن أدمن الحمد والاستغفار ذاق حلاوة الإيمان.

فصل فيما ورد في فضل الشكر:

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٧).

- عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»**(١).

- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أنعم الله على عبد نعمةً فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضل من تلك النعمة»**(٢).

- عن معاذ بن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أكل طعامًا ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه ومن لبس ثوبًا فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»**(٣).

- وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحان الله وبحمده»**(٤).

---

(١) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم ١١٠٤.
(٢) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم ٥٥٦٢.
(٣) حسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم ٦٠٨٦.
(٤) صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم ١٧٤.

▪ وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلا الله ولا يضرك بأيّهنَّ بدأت**»(١).

▪ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إنَّ الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها**»(٢).

▪ وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الحمد لله تملأ الميزان**»(٣).

فائدة: وحقيقة الشكر أن ينسب العبد النعم إلى الرب سبحانه ويستغلها في طاعته ومرضاته وأن يشكره بلسانه عليها وأن يعترف بعجزه عن توفية الرب حق شكره أو حق عبادته.

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، فيه كذب إبليس ومبالغته في تأكيد كذبه حيث أتى بـ «إنَّ» التي تدل على التأكيد وكذا أقسم وقدَّم ﴿لَكُمَا﴾، ولم يقل: «لمن الناصحين لكما» بل قدم ﴿لَكُمَا﴾، ليدل على الاختصاص فكأنه يقول: «لو لم أكن ناصحًا إلا لاثنين فقط لكنتما أنتما».

ـ وتأمل مكره حيث قال: ﴿لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، ولم يقل: «إني لكما الناصح» لئلا يظهر كذبه إذ قد علم آدم وحواء نصح الله لهما ونصح الملائكة لهما فأراد اللعين أن يخدعهما بكونه من جملة الناصحين.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿قَاسَمَهُمَا﴾، دقة بالغة حيث أنه أقسم ووسوس لكل واحد على حدة ولذا لم يقل الحق: «أقسم لهما» بل قال: ﴿قَاسَمَهُمَا﴾، أي أقسم لكل واحدٍ بمفرده.

---

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم ١٧٣.
(٢)، (٣) رواهما مسلم.

ـ قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، أي قربهما من الشجرة غارًا لهما فكأنه قال لهما: «اقتربا منها لتعلما صدقي في كونها لا ضرر فيها»، فأطاعاه ونسيا أنَّ الله نهاهما عن مجرد قربان الشجرة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ (البقرة: ٣٥)، فلما عصيا وأكلا بدت لهما عوراتهما وفي هذا عدة فوائد:

١ ـ لا يشترط أن يظهر للعبد ضرر ما نهى الله عنه فربما كان ظاهر المنهي لا ضرر فيه كهذه الشجرة فعلى المؤمن أن يعلم بأنَّ الله لا ينهاه إلا عما فيه ضرره، ولا يأمره إلا بما فيه نفعه ولو ظهر له بنظره القاصر خلاف ذلك.

٢ ـ أنه ينبغي للمرء عدم القرب من أسباب المعاصي لئلا يوقعه الشيطان فيها ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ (الإسراء: ٣٢)، وقال لآدم وحواء: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥)، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأنعام: ١٥١).

٣ ـ أنَّ العورة والنقص والسوءة في معصية الله ومخالفة منهجه، فلمَّا عصى آدم وحواء ظهرت عوراتهما ولم تكن ظهرت من قبل، فإذا ظهر النقص والعيب في المجتمع وانتشر الفساد فاعلم أنه قد ظهر ذلك بمعصية الله وقد قال العباس رضي الله عنه فيما صح عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة».

٤ ـ في الآيات كذلك دليل على أنَّ المؤمن لا تواتيه نفسه على المعصية إلا بعد تردد وهذا ما حدث من آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ فتأمل الدقة القرآنية في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾، ولم يقل: «فدلاهما فذاقا الشجرة» بل قال: ﴿فَلَمَّا﴾، التي تدل على وجود تراخٍ زمني بين القرب من الشجرة وبين الأكل منها لترددهما قبل الإقدام على الأكل.

٥- في الآيات كذلك بيان لمداخل إبليس على العبد فإنه يستغل ما فطر عليه الإنسان من حب الشرف وحب البقاء والخلود ويستعين على إغواء العبد بأقرب الناس إليه خاصةً الزوجة، وقد روى مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**ولولا حواء ما خانت امرأة زوجها قط**»، قلتُ: إذ هي التي غرها إبليس أولاً فغرت آدم، وتأمل قول إبليس فيما ذكره الحق عنه: ﴿**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾، فاستغل فيهما حب الشرف فقال: ﴿**أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ**﴾، وحب الخلود فقال: ﴿**أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾، وهكذا سعى في أبناء آدم من بعده يغويهم بالمعاصي مستغلاً فيهم هذين الأمرين فلحب الشرف والخلود في الدنيا ظهرت آفات الكبر والعجب والرياء وحب المال والتقاتل على جمعه ولو من حرام، وكذا ظهر الحقد والحسد والظلم والبغي وقطع الأرحام والشحناء والبغضاء والعداوات، فمن أراد السلامة لدينه فليحذر من حب الشرف ومن حب الدنيا والله المستعان.

٦- في الآيات كذلك بيان لسعة دائرة المباح وضيق دائرة المحرمات فقد أباح الله لآدم كل ما في الجنة إلا شجرة واحدة، ولكن جرت العادة بأنّ الممنوع مرغوب، فمن أراد أن تستقيم نفسه على ترك المحرم فلا يشعر نفسه بأنه محروم من المعاصي، بل ليعلمها بدناءة المعاصي وحقارتها لئلا تتوق نفسه إليها إذ النفس تشتاق إلى ما تشعر بالحرمان منه.

- قوله تعالى: ﴿**وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا**﴾، ولم يقل: «وقال لهما ربهما» لأنَّ النداء يقتضي البعد - نعم - ليس شيء بعيداً عن الله ولكنّ منزلتهما ومكانتهما قد قلَّت بسبب المعصية فلما تابا تاب الله عليهما.

تنبيهات:

١ ـ ذهب البعض إلى أنّ الجنّة التي كان فيها آدم وحواء ليست جنة الخلد ولكن الراجح ما ذهب إليه جمهور أهل السُّنَّة من أنّها جنَّة الخلد إذ الظاهر من لفظ الجنة كذلك ولا يخالف ذلك الظاهر إلا بدليل، ويشهد لهذا ما في الصحيح من حيث الشفاعة لما يذهب الخلق إلى آدم يوم القيامة يسألونه الشفاعة لهم فيقول لهم: «**وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم**»، وكذا ما في الصحيح من قصة احتجاج آدم وموسى عند الله فقال موسى لآدم ـ عليهما السلام ـ: «**أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة**».

▪ وفي هذا والله تذكير للمؤمن بالوطن الأول لكي لا يفتر عن الحنين إليه والسعي من أجل الرجوع إليه فقد فطر المرء على الحنين لوطنه، وقد غابت هذه الحقيقة ـ أعني كون الجنة هي الوطن الأول لنا ـ عن البعض فقال عن وطنه الدنيوي:

وطني إن شغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد (الجنّة) نفسي

وهذا من الغفلة عن هذه الحقيقة، ولما كانت نفوس المؤمنين متعلقةً في الدنيا بطاعة الله جعل الله لهم في وطنهم الحقيقي (الجنة) ما يعوضهم فهم يلهمون التسبيح والذكر بلا كلفة كما يتنفسون بلا كلفة، وأما شهوات الدنيا وزخارفها ففيها عيوب ونقائص، فجعل سبحانه نعيم الجنة بلا عيب ولا نقص، فلم يبق لأحدٍ عذر في محبة الدنيا على الآخرة.

٢ ـ الراجح عند أهل السُّنَّة والجماعة عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر معًا ـ نعم ـ في عصمتهم من الصغائر خلاف سائغ ولكن الراجح عصمتهم وأما معصية آدم فقد قال البعض كانت نسيانًا لقوله تعالى في سورة طه: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ (طه:١١٥)، ومعنى النسيان هنا نسيان التحريم وإلا فقد ذكره

إبليس بالنهي فقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾، فنسي آدم عليه السلام أن هذه النهي للتحريم فأكل من الشجرة وكذا ما ذكر عن بقية الرسل والأنبياء من معاصٍ، فالمقصود أنهم فعلوا خلاف الأولى أو نسوا أو أخطأوا وعُدَّ ذلك عصيانًا لكمال مرتبتهم كما قيل: «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، والدليل على عصمة الأنبياء والرسل حتى من الصغائر قوله تعالى نقلاً لكلام نبيه صالح: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ (هود: ٦٣)، وهو عام لكل معصية وقد صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**فمن يطع الله إن عصيته**»، وأيضًا هم قدوة لأممهم فلا يصح وقوعهم في المعصية عن عمدٍ منهم، ثم إنَّ كمالهم البشري المذكور في الحديث الصحيح: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع**» فهذا الكمال يقتضي عصمتهم من كل المعاصي ولو كانوا يقعون في الصغائر لكانوا كغيرهم، وإلا فكثير من كبار العارفين نادرًا ما يقعون في الصغائر وعلى كلٍ فقد أجمع العلماء فيما نقله القرطبي: «أنّ الأنبياء معصومون من الصغائر المزرية كالقبلة أو نظرة لمحرم أو سرقة لحبة وغيرها».

٣ـ في تقدير الله لخروج آدم من الجنة بيان للقاعدة الكلية في أقدار الله المؤلمة وهي أن الشر فيها نسبي ويترتب عليه من الخير أضعاف هذا الشر النسبي فقد ترتب على خروج آدم عليه السلام من الجنة الخير الكثير الذي لا يُحصر فعلى المؤمن أن يرضى بقضاء الله كله وليعلم بأنّ الخير فيه فإن قيل وهل يرضى المؤمن بالمعصية؟ قلنا لا يرضى بها ولكن يرضى بتقدير الله وفعله، إذ في تقدير الله للمعصية خيرٌ عام من وجود أمرٍ بمعروف ونهيٍ عن منكر ووجود الدعاة وظهور صبرهم على أذى العصاة والظالمين وظهور عبادة الجهاد واتخاذ الله شهداء وغيرها من الحكم الجليلة التي تزيد على الشر المترتب على هذه المعاصي بل إنّ المعصية قد تكون خيرًا للعاصي نفسه فهي تورث الذل والانكسار وعدم العجب بالنفس ولو تاب منها بدلت السيئات بحسنات كما وعد الرب ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فصل:

ويستفاد من قصة إبليس مع آدم غير ما ذكرنا:

١ ـ ضرورة الخوف من مكر الله وعدم الاطمئنان بالطاعة فقد كان إبليس طاووس الملائكة لكثرة عبادته واجتهاده في الطاعة ومع ذلك كتبت له أسوأ خاتمة؛ فعلى المؤمن دوام الخوف من سوء الخاتمة وقد صح عن النبي ﷺ أنه كان يكثر من قوله: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، وقد حذرنا تعالى من الغرور بالنفس فقال: ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٩٩).

٢ ـ ويستفاد من القصة كذلك حقيقة القضاء والقدر فيما يتعلق بطاعات العباد ومعاصيهم، فالعبد هو الذي يطيع ويهتدي وهو الذي يعصي ويضل إلاّ أنّ الله هو الذي يهديه أو يضله، ففعل العبد الاهتداء والضلال، وفعل الرب الهداية والإضلال، وهداية الرب وإضلاله بما يخلقه في قلب العبد من إيمان أو كفر، وبما ييسره للعبد من أسباب وظروف اجتماعية وبيئية تساعده على الطاعة أو على المعصية وبما يركبه في طبائع العبد مما يعينه على الطاعة أو على المعصية، فانظر إلى إبليس خلق من نار فكان في طبعه الكبر والعلو وحب الإفساد فأضله الله بما في قلبه من عجب وكبر وحب للفساد، وأما آدم فقد خُلق من طين فكان في طبعه التواضع والسكينة وحب الخير فهداه الله للتوبة من معصيته قال تعالى عنه: ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى** ﴾ (طه: ١٢٢).

٣ ـ ويستفاد من القصة كذلك الفارق الهام بين ترك الطاعة وبين الاستكبار عنها وإباءها؛ فآدم عصى ربه وتاب واعترف بخطأه، فتاب الله عليه وأمّا إبليس فعصى وزعم أنه أعلى من أن يسجد لآدم فأبى واستكبر، فكفر بالله قال تعالى عنه: ﴿ **فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة: ٣٤).

٤ ـ ويستفاد كذلك أنّ الجزاء من جنس العمل فها هو إبليس يتكبر فيقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، فأهانه الله وكتب عليه الذلة والصغار جزاءً وفاقًا فقال له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وأما آدم فقد اعترف بخطأه وقال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فكان الجزاء أن رفعه الله واجتباه وهداه قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ (طه: ١٢٢).

٥ ـ ويستفاد منها كذلك العداوة الأكيدة بين آدم وإبليس فتأمّل قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ولم يقل: «أنتما أعداء» بل قال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ليدل على تأكد العداوة لدرجة أنَّ أبعاض وأجزاء كل واحدٍ منهما تعادي أبعاض وأجزاء الآخر أو ليدل على امتداد هذه العداوة إلى الذرية من بعدهما فعلى الكيّس العاقل أن يتخذ الشيطان عدواً كما اتخذه هو عدواً قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦).

٦ ـ ويستفاد منها كذلك مداخل إبليس على العباد فإنه قد أعلن خطته لإغوائهم فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾، وقال عنه سبحانه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، فهو يغوي الناس بتزيين الدنيا لهم بما فيها من شهوات خاصة النساء والمال وقد صح في الحديث الشريف: «**فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**»، وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٦).

▪ وهو كذلك ـ أي الشيطان ـ لا يترك فرصة لإغواء العبد إلا وأغواه سواء من جهة اليمين بأن يزين له البدع على أنها طاعات أو يفتح له باب التنطع والتكلف

على أنَّه اجتهاد حتى ينقطع عن الطاعة بالكلية، وكذا يأتيه من جهة الشمال فيزين له المعاصي والشهوات، وكذا يأتيه من بين يديه فيطول عليه الأمل وينسيه الموت والقبر ويسوِّف له بالتوبة، ويأتيه من خلفه فينسيه معاصيه وذنوبه التي عملها فيغره برحمة الله ويعده الأماني الكاذبة وينسيه التوكل على الله فيخوفه على ذريته من بعده فيزين له جمع المال ولو من حرام ليكون لذريته من بعده.

٧ ـ ويستفاد منها كذلك أنه لا نجاة للعبد من إبليس ومكائده إلا بالله فمن أراد التوفيق فليستعن بالله على الشيطان وجنده كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)، وأمَّا من وثق في نفسه وركن إليها وظنَّ أنه قادرٌ ومستغنٍ عن الله فالهلاك حليفه، فتأمل قول إبليس فيما ذكره القرآن: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾، أي الذين اصطفاهم الله وأخلصهم لنفسه، فمن أراده الله وأخلصه لم يكن لإبليس عليه سلطان بل يحفظ الله قلبه من شره فما السماوات التي حرسها الله من تصنت الجن بأعظم حرمةً عند الله من قلب عبده المؤمن، وكما أنَّ وجود حراسة على السموات لا يمنع من وجود محاولات من الجن للتصنت فكذلك حراسة قلب المؤمن لا تمنع من وجود وساوس من الشياطين، ولكن على قدر إيمان العبد تكون حماية الله له من الوساوس وأثرها فكلما زاد إيمان العبد كلما قلَّت الوساوس وقلَّ تأثيرها على قلبه والله المستعان.

▪ وفي ذلك أيضًا منع لعجب النفس فإنها إذا وُفِقت لخيرٍ فإنَّ ذلك بفضل الله وحفظه لها وليس بمحض اجتهادها.

▪ وفي ذلك أيضًا سببٌ كبير لحزن النفس بعد فعل المعاصي فلولا أنها هانت على الله لما سلط عليها إبليس وقد قال بعض السلف عن العصاة: «هانوا على

الله فخذلهم بالمعاصي»، فلا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله!! فهلاّ حرص المؤمنون على ألاّ يهونوا على الله كما يحرصون على ألاّ يهونوا على أمرائهم ورؤسائهم!!

تنبيه: ظنّ البعض حرمة أو كراهة قولهم عن أنفسهم «أنا»، لئلا يشبهوا إبليس في قوله عن نفسه فيما ذكره الرحمن في كتابه ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فصار أحدهم إذا قال عن نفسه «أنا» قال بعدها: «وأعوذ بالله من كلمة «أنا»، وهذا خطأ؛ إذ الممنوع منه أن يتحدث المرء عن نفسه بصيغ العجب والكبر كما فعل إبليس، وأما من قال عن نفسه: «أنا» دون كبر فلا شيء في هذا ويشهد لذلك ما ورد في الحديث الصحيح المعروف لما سأل رسول الله ﷺ صحابته يومًا: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، فقال: «من شهد منكم اليوم جنازة؟»، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله، فقال: «من أطعم منكم اليوم مسكينًا؟»، فقال أبو بكر أنا يا رسول الله، فقال: «من عاد منكم اليوم مريضًا؟»، فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله**، ولم يقل أبو بكر عن نفسه كما يقول البعض: «العبد لله»، ولم يقل «وأعوذ بالله من كلمة أنا»، بل قال: «أنا» ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ ذلك، لعلمه بتواضع أبي بكر الجمّ وإخلاصه رضي الله عنه.

٨ ـ ويستفاد من القصة كذلك أنّ الحياء فطرة إنسانية فها هو آدم ومثله حواء يسعيان لإلقاء الورق على عوراتهما لئلا تنكشف وقد دل الشرع الكريم على أهمية الحياء وعلى خطر انعدامه؛ ففي الحديث الصحيح: **«إن لكل دين خلقًا وخلق الإسلام الحياء»** (رواه ابن حبان وحسنه الألباني)، وفي آخر: **«الحياء خيرٌ كله»** (رواه مسلم).

وقال ﷺ: **«إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»** (رواه البخاري).

وقد علم أعداء الدين خطورة هذا الخلق فسعوا بكل ممكن لمحاربته في المسلمين فبثوا الفواحش وأشاعوا الرذائل وغرُّوا النساء حتى خلعن الحجاب ففسد المجتمع المسلم ومات في الناس - إلا من رحم الله - الحياء من الله، وصار الرجل لا يستحي أن يماشي زوجته وابنته المتبرجتين ولا أن يشاهد العرايا في التلفاز وهما بجواره.

- فعلى الدعاة والمصلحين أن يجتهدوا في إيجاد هذا الخلق القويم - الحياء - في قلوب الناس ليستقيم حالهم، وليعود إلى المسلمين مجدهم، ومما يساعدهم على ذلك: ذكر الأحاديث التي ترغب في الحياء وتحذر من انعدامه وكذا بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأفضاله التي لا يقدر عبدٌ على توفية شكرها فكيف باستغلالها في معصية الله؟!

* * *

٥ـ قصة الذي مرَّ على قرية

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

الملخص العام للقصة:

يخبر الحق بقصة رجل صالح (لا دليل صحيح على عين هذا الرجل خلافًا لما يذكر البعض من كونه الخضر أو العزير أو غيرهما) مرَّ على قرية بعد فناء أهلها فاستعجب من بعثها ثانيةً ليوم الحساب فأماته الله هو وحماره ثم بعثه بعد مائة عام ليزول ما قد مرَّ بخاطره.

المعاني الإيمانية والفوائد في الآيات:

ـ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يدل على أن الرجل الصالح كان موحدًا غير شاكٍّ في قدرة الله على البعث ولذا قال ﴿أَنَّىٰ﴾، أي كيف ولم يقل «هل يحيي»، وكأنه إنما استعجب، ولذا قال تعالى نقلاً لقوله لما أحياه سبحانه وبيَّن له قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولم يقل: «علمتُ» فدل على أنه كان عالمًا بذلك ابتداءً.

- وقد يقال أن استصعاب البعث كان خاطرًا لم يستقر في نفسه فكان لا لوم عليه فيه لعدم قدرة المرء على التحكم في خواطره.

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، فيه دليل على جواز تكلم المرء بما غلب على ظنه وإن لم يكن يقينًا ولا يُعدُّ هذا كذبًا، وإنما قال الرجل ذلك لكون النائم لا يشعر بالزمن ثم إنه لَمَّا أفاق وجد الطعام على حاله لم يتسنه (لم يفسد) ووجد نفسه لم تهرم فقال ما قال.

ـ قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، فيه قدرة الله العظيمة حيث حفظ الطعام طيلة هذه المدة دون فساد وأمضى الزمن على الحمار حتى صار عظمًا وهكذا تمر حياة البرزخ على الموتى جميعًا فلا يشعرون فيها بمضي الزمن ويتحلل جسد بعضهم كما حدث لجسد الحمار، وبعضهم يكرمه الله بحفظ بدنه من التحلل كما حفظ الطعام وهذا خاص بالأنبياء والرسل نصًا وببعض الشهداء وبعض الصالحين فقد صح في الحديث: «**إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»، وقد صح عن جابر بن عبد الله أنه لما فتح مقبرة والده عبد الله بعد جري الماء على المقابر فأراد نقله فوجد جسده كما هو بعد ما يقرب من أربعين سنة من قتله شهيدًا رضي الله عنه في معركة أُحد، وكذا ورد أنهم في عهد بني أُمية قد وجدوا رجل عمر بن الخطاب كما هي لما حفروا ليوسعوا المسجد النبوي الشريف، فلا مانع من إكرام الله لغير عبد الله ولغير عمر ابن الخطاب من الصالحين.

ـ وتأمل قوله تعالى للرجل الصالح: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾، قبل أن يأمره بالنظر إلى حماره فله عدة احتمالات:

١ ـ ربما لأنَّ حال من يبعث وقد حفظ الله جسده من التحلل كما حفظ الطعام أكمل من حال أولئك الذين يتحلل جسدهم في قبورهم كما حدث للحمار.

٢ ـ وربما ليطمأن قلب الرجل إذ كان في صحراء خالية ولا طعام يباع فيها فلو فسد طعامه لربما خشي على نفسه الهلاك فطمأن الله قلبه أولاً ليتمكن من الاتعاظ إذ البال المشغول بالطعام والشراب غير صافٍ ولذا أمرنا في شرعنا ـ معاشر المسلمين ـ بعدم الإقدام على الصلاة عند وضع الطعام فقد صح في الحديث: «**لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يدافع الأخبثين**»، بل نص الفقهاء على أن القاضي لا يفصل في الخصومات وهو مشغول البال بالجوع والعطش قياسًا على الغضب المنصوص عليه ففي الحديث: «**لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان**»، والجوع والعطش كالغضب في شغل البال.

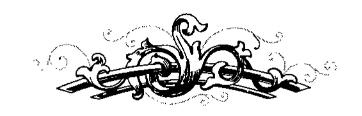
٣ ـ وربما لأنَّ القدرة تظهر وتتجلى في حفظ الطعام والشراب دون فساد بل هي أعظم في حفظ بدن ذلك الرجل الصالح طيلة هذه المدة دون فساد، فمن قدر على هذا لم يصعب عليه إحياء الموتى فسبحان الله العظيم الذي هو على كل شيء قدير.

ـ قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولم يقل: «لنجعلك آية للناس» بل قال: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾، فزاد الواو فدل على وجود محذوف والظاهر والله أعلم أنَّ المحذوف تقديره «فعلنا بك ذلك ليزداد يقينك ولنجعلك آية للناس» فحذف الجملة الأولى ودلَّ عليها بالواو، فما أدق كلام الله.

▪ وإنما كمل يقين ذلك الرجل الصالح إذ كان قبل أن يرى ذلك في منزلة علم اليقين ـ نعم ـ لاشك عنده في قدرة الله ولكنَّ منزلة ـ حق اليقين ـ التي صار إليها بعد رؤية ما رأى أكمل.

▪ قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾، أي دليلاً على كمال القدرة الإلهية وكذا دليلاً على الرحمة الربانية إذ يقيض للصادقين أسباب هدايتهم وييسر لعباده الهداية ولو بالمعجزات.

▪ ويستدل بهذه الآية على أن الخواطر التي لا تستقر لا يحاسب العباد عليها ولو كانت بما ينافي الاعتقاد وهذا قريب من قول الله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠)، فقد صح عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «هي أرجى آية في كتاب الله»، قلتُ: وذلك لدلالتها على عدم المؤاخذة بالخواطر غير المستقرة.



الفصل الثالث

الكنوز القرآنية في حروف الجرّ



١ ـ قال تعالى مخبراً عن توبة آدم عليه السلام بعد أكله من الشجرة: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:٣٧)، ولم يقل: (فتاب إليه) وذلك ليضمنها (فتاب إلى الله، فتاب عليه) أي: رجع عليه بالرحمة وقبل توبته، فكانت توبته محفوفةً بتوبة الله عليه بأن ألهمه التوبة ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، ثمّ بقبولها منه ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

٢ ـ قال تعالى ممتنًا على بني إسرائيل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة:٥٧)، ولم يقل: (وظللناكم بالغمام)، وذلك ليضمنها معنى التفضل، فكأنّه قال: (وظللناكم بالغمام تفضلاً عليكم).

٣ ـ قال تعالى مخبراً عن زهد بني إسرائيل في الأكمل الذي اختاره الله لهم، وطلبهم الأدنى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ (البقرة:٦١)، فتأمّل قولهم: (ادع لنا)، (يخرج لنا)، وذلك لفرط أنانيتهم فكأنهم أرادوا أن يكون ما تنبته الأرض خاصًا بهم لا يشاركهم فيه غيرهم.

٤ ـ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة:١٤٢)، فقال: (عليها)، ولم يقل: (إليها) ليدل على التمسك والثبات، ومع ذلك أمروا تبركها اختباراً

وتمحيصًا؛ فليست العبرة بالتوجه ناحية المشرق أو المغرب، ولكنّ العبرة بامتثال أمر الله.

٥ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٧٣)، فقال: ﴿أُهِلَّ بِهِ﴾، ولم يقل: (أهلّ عليه) ليضمنّها (ما تقرب به)، فيفيد تحريم ما تقرب به إلى غير الله، ولو ذكر عليه اسم الله، فأكرم بدقة القرآن.

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:١٨٥)، فقال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾، وقال في سورة الحج: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج:٣٧)، مع أنّ فعل تكبروا ـ كما قال في الكشاف لا يتعدى بـ (على) ـ ففائدة ذلك ـ والله أعلم ـ أنّه في آية البقرة التي عن الصيام ضمنّها (لتكبروا الله ولتشكروه على ما هداكم)، ففيه دليلٌ على مشروعيةالتكبير والتحميد بعد انتهاء الصيام، وكذا في آية الحج ضمنّها (ولتكبروا الله وتشكروه على ما هداكم) ففيه دليلٌ على مشروعية التكبير والتحميد أيام الذبح في عيد الأضحى، وهي يوم العيد، وأيام التشريق، وأمّا عرفة فقد دلّ فعل الصحابة على التكبير والتحميد فيه.

٧ ـ قال تعالى آمرًا المؤمنين بقتال المشركين: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:١٩١)، فقال: ﴿وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: فيما حوله من الحرم ثمّ قال: ﴿حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، ولم يقل (عنده) مع أنّهم لو قاتلوا في الحرم (عند المسجد الحرام)،

فكذلك؟ وذلك ليدل على أن الأصل منع القتال في الحرم، فلا يجوز بشبهة بل لابد من التأكد من إرادة الخصم للقتال والعدوان، ولذا ذكر سبحانه ما لا يقع معه شكٌّ في ذلك وهو قتال الكفار في المسجد الحرام نفسه، فقال «فيه»، كما أنّه يدل على أنّ ثواب الصلاة في الحرم المكي كثواب الصلاة في المسجد الحرام؛ إذ قال مرةً «عنده»، مرةً «فيه» فدلّ على تساويهما ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة:١٩٦)، وهم أهل الحرم بالاتفاق، فجعل أهل الحرم حاضري المسجد الحرام على الدوام.

٨ ـ قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:٢٢٦)، مع أنّ الإيلاء هو الحلف وهو يتعدى بـ (على)، فقال: ﴿يُؤْلُونَ مِن﴾، ولم يقل: (يؤلون على) فيحتمل أنّه ضمنّها معنى الامتناع، فيكون المعنى: (يؤلون ويمتنعون من وطء نسائهم) أفاده ابن هشام الأنصاري، وقيل ضمنّها معنى البعد، فيكون المعنى (يؤلون ويبتعدون من نسائهم) أفاده الزمخشري، قلتُ: وفي ذلك دقة بالغة إذ مجرد الحلف ليس فيه إلاّ الكفارة، وأمّا الذي يوقف له الزوج أربعة أشهر هو الامتناع والابتعاد من وطء النساء، فقال سبحانه: ﴿مِن﴾، ولم يقل (على)، ليضمنها ذلك، فأكرِم بحلاوة القرآن.

٩ ـ قال تعالى: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ (البقرة:٢٣٥)، مع أنّه يُقال (عزمت على كذا) ولا يقال: (عزمتُ كذا) ليضمنها (لا تبرموا عقدة النكاح) أو (لا تقيموا ولا تعقدوا عقدة النكاح)، وذلك ليدل على أنّ النكاح عقد شكلي لابد له من إيجاب وقبول، وليس بمجرد العزم يتمّ النكاح، فإن قيل: فلم قال ﴿تَعْزِمُوا﴾، ولم يقل: (تقيموا) ولا (تبرموا)؟

قلتُ: ليدلّ على أنّ العـزم على النكاح بالاتفاق عليـه، ولو من غير إقـامة العقد، لا يجوز، فكما تحرم إقامة العقد، كذلك يحرم العزم والاتفاق عليه أثناء العدّة.

١٠ ـ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٧)، فقال: ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾، ولم يقل (تغمضوا عـنه) ليضمنّها (تغبنوا فـيه)، لأنّ المرء قد يرى نفسه متنازلاً عن حقـه، وهو في الحقيـقة ليس كذلك، فلمّا قال: ﴿ فِيهِ ﴾، دلّ على وجود الغبن الحقيقي.

١١ ـ قال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢)، فقال: ﴿ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾، ليضـمنّها (من أنصاري بالإضـافة إلى نصرة الله)، أفـاده ابن عطية، قلتُ: فلابد من الأخـذ بالأسباب مع الثقـة في نصرة الله، أو يكون المعنى (من أنصاري في التجـائي إلى الله والتضرع إليه)، أفاده الزمخـشري، قلتُ: وفيه أنّ الالتجاء إلى الله والرغبة إليه في النّصر ليس بالتمني، ولكن لابد من الصدق في ذلك، ولا يكون صدقٌ بغير حسن عمل.

١٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٥)، فقـال: ﴿ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ ﴾، ولـم يقل: (تأمنه على دينار)، وذلك ليـضمنهـا المعاملـة، فكأنّه قال: (إن تعـامله بدينار)، وأتى بلفظ ﴿ تَأْمَنْهُ ﴾، ليشمل الأمانة ـ كذلك، وليـدلّ على أنّ أساس المعاملات المالية هو الأمانة، وقال: ﴿ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾، ليضمنّها مـعنى الإلحاح والتردد عليه، أفاده ابن عاشور.

١٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (النساء: ٨١)، فقال: ﴿ بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾، ولم يقل: (خرجوا من عندك)، ليدل على أنّهم بخروجهم من عنده يظهر ما يكتمون من النفاق فكأنّه قال: (فإذا خرجوا من عندك برز ما في قلوبهم) فحذف فعل «خرجوا» ودلّ عليه بقوله: ﴿ مِنْ عِندِكَ ﴾، وحذف (ما في قلوبهم) ودلّ عليه بقوله: ﴿ بَرَزُوا ﴾.

١٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ (النساء: ٨٣)، ولم يقل: (أذاعوه)، ليضمنها ما يترتب على هذه الإذاعة من إفسادٍ وإرجافٍ، فكأنه قال: (أذاعوه وأرجفوا به وأفسدوا به).

١٥ ـ قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٨٧)، ولم يقل: (ليجمعنّكم في يوم القيامة) ليضمنّها معنى التأخير، فكأنّه قال (ليؤخرنّكم إلى يوم القيامة ويجمعكم فيه).

١٦ ـ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨)، فقال: ﴿ عَمَّا ﴾، ليضمنّها النّهي عن الانحراف فكأنّه قال: (لا تتبع أهواءهم فتنحرف عمّا جاءك من الحق) أفاده الزمخشري، قلتُ: وذلك ليدل على أنّ اتباع أهواءهم يؤدي إلى الانحراف عن منهج الله.

١٧ ـ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤)، فقال: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل (للمؤمنين) ليضمنها معنى الحنوّ عليهم والعطف عليهم، أفاده الألوسي.

١٨ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا من دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨)، فقال: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، مع أنّه يقال: (فرط فيّ) وليس ﴿مِن﴾، ليضمنها (أغفلنا) أو (تركنا) أفاده الألوسي، قلتُ وفي قوله: (فرَّطنا)، إشارة إلى سوء وفحش قول القائلين بإنكار علم الله لكل شيء وكتابته له قبل وقوعه سواء الجزئيات أو الكليات، فذلك تفريطٌ ونقصٌ، والله منزهٌ عن النقص، بخلاف قوله (أغفلنا) أو (تركنا)؛ فإنّ المرء قد يترك الشيء عمداً، ولا يُعدُّ تركه تقصيراً أو نقصًا.

١٩ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٤٠-٤١)، فقال: ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، ولم يقل: (تدعون له) ليضمنها معنى التضرع فكأنّه قال: (فيكشف ما تتضرعون إليه وتدعونه من أجله).

٢٠ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٠)، فقال: ﴿فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾، ولم يقل (مثلهم)، ففيه دليلٌ لصحة قول كثيرٍ من الفقهاء بلزوم شهادة الشهود معًا حتى يقبل الحاكم شهادتهم.

٢١ ـ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف:٣٦)، ولم يقل: (استكبروا عليها) ليضمّنها معنى انصرفوا، أفاده ابن عاشور، قلتُ: وفائدة ذلك أن يدلّ على أنّ الانصراف عن الإيمان ليس لعدم اقتناعهم بالأدلة، فهي لا غبار عليها، ولكنّهم كفروا استكباراً.

٢٢ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨-٨٩)، فقال: ﴿عُدْنَا فِي﴾، لتضمينها (ندخل في)، وقال: ﴿عُدْنَا﴾، لوجود من كان كافرًا وآمن بشعيب عليه السلام وبمعرفة ذلك يزول ما استشكله كثيرٌ من المفسرين، إذ الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ معصومون من الشرك حتى قبل الرسالة، فكيف قال شعيب مع المؤمنين ﴿عُدْنَا﴾، فجواب ذلك هو النظر الدقيق في كلام ربي العظيم، فتأمّل كيف قال سبحانه ﴿عُدْنَا فِي﴾، ولم يقل (إلى) ليضمنها فعل (ندخل) الذي يتعدى بـ (في) ليكون هذا جواب من لم يشرك قبلُ كشعيب عليه السلام، وقال: ﴿عُدْنَا﴾، ليكون جواب من دخل في الدين بعد شركه، فشملت الآية الجوابين معًا، وسبحان من هذا كلامه.

٢٣ ـ قال تعالى مخبرًا عن ابتلاءه لقوم فرعون بأنواع البلايا ليتوبوا: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٣٣)، فقال: ﴿عَلَيْهِمُ﴾، ولم يقل (إليهم) ليدل على أنّه إرسال عقاب، وليس زيادة آيات، أفاده ابن عاشور.

٢٤ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٤)، ولم يقل (من ربهم يرهبون) ليضمن معنى الخضوع، فكأنّه قال: (يرهبون منه ويخضعون له)، أفاده ابن كثير.

٢٥ ـ قال تعالى مخبرًا عمّا كتبه على بني إسرائيل لمّا كفروا: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ

رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف: ١٦٧)، فقال: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل (إليهم) ليضمنّها معنى التسليط فكأنه قال: (ليسلطنّ عليهم) ليدل على أنّ ذلك مكتوبٌ عليهم لا يفوتنه ولا يفوتهم، أفاده ابن عاشور، قلت: وفي قوله تعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، دليلٌ على أنّه يقوِّي من كان خامدًا ويسلِّطه عليهم كحال من يُبعث بعد موته، وهذا ما يحدث إذا ما تركت الأمم دينها، فإنّ عدوّها يستقوي عليهم ويقوم بعد خموده.

٢٦ ـ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٧)، فقال: ﴿حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، ولم يقل (بها)، ليضمنّها معنى الكشف والسؤال فكأنه قال (تسأل عنها وتكشف عنها)، وفي هذا ردٌّ لمنهجٍ باطل انتهجه البعض من التقصي وراء اكتشاف عمر الأمّة والذي يلزم منه العلم بقيام الساعة، إذ هي آخر الأمم، فهذا رسولنا ﷺ ينفي عنه ربه أن يكون مهتمًا بوقت الساعة مستقصيًا البحث عن وقتها؛ ولذا قال ﷺ لمن سأله متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها»، هذا هو اللازم، وليس البحث عمّا حجب الله علمه عن أقرب المخلوقات وسيلةً لديه.

قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، ولم يقل (على) ليضمنّها (ثقيل أثرها في السموات والأرض)، إذ يتغير بمجيئها حال السماوات والأرض.

٢٧ ـ قال تعالى ممتنًا على المؤمنين بتثبيته إيّاهم يوم بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١)، فقال: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، ليدل على الإحاطة، يقال: ربط على الشيء إذا أحاط الرباط به وعمّه بخلاف ربط الشيء، فهي لا تفيد ذلك، كما في قوله تعالى عن أم موسى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ

قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (القصص: ١٠)، أفاده ابن القيم، قلتُ: وفي ذلك تنبيهٌ للمؤمن على حقيقة هامّة وهي حاجته الدائمة إلى الله، وفقره إليه، فلولا ربط الله على قلبه لضلّ، كما يدل المؤمن على مزيد حفظ الله إذا أحسن العمل، فإنّ الرباط الوثيق الذي يربطه الله على قلبه لا تستطيع الشبهات ولا الشهوات ولا الشيطان أن يفكّه، فالحمد لله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

٢٨ ـ قال تعالى: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٣-٤)، فقال: ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ ﴾، ولم يقل (لهم) ليضمنها معنى الأداء أي: (أدوا إليهم) أفاده أبو حيان في البحر المحيط، قلتُ: لقائلٍ أن يقول العلّة تضمنيها معنى القسط فكأنه قال: (فأتموا لهم عهدهم إقساطًا إليهم)، كما قال تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة: ٨)، فقال: ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾، أي: تعاملونهم بالقسط في ما تؤدونه إليهم من حقوق هذا العهد والعقد.

٢٩ ـ قال تعالى مخبرًا عن سبب تخلّف المنافقين عن الجهاد في سبيل الله: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٤٢)، قال: ﴿ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ﴾، ولم يقل (بعدت الشقة) ليضمنها معنى (ثقلت)، فالمسافة بعيدة بالنسبة للمؤمن والمنافق معًا، ولكنّها لا تثقل على المؤمن؛ إذ حلاوة الطاعة في القلب والسعادة بها تنسي العبد مشقة طول المسافة، وهل أخفّ من رحلة فيها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وكبار أصحاب رسولنا!!

٣٠ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (يونس:١١)، فقال: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾، فضمنّها (أوصل إليهم) فجعل الموت كالمسافر المنقطع ويحتاج إلى من يوصلّه ويبلّغه، فلما دعى الداعي أوصل الله الموت إليه، فكان دعاء المرء سبب القضاء عليه.

٣١ ـ قال تعالى مخبراً عن قلة مَنْ آمن مِن أهل مصر مع موسى عليه السلام: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (يونس:٨٣)، فقال: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾، ولم يقل (مع خوفهم) ليدل على أنّ خوفهم من الله كان أكبر، فعلا على خوفهم من فرعون الطاغوت المتكبر، وتدلّ كذلك على علوّ حبّهم لله على خوفهم من فرعون؛ إذ لذة وسعادة محبة الله تعلو على خوف المخلوق.

٣٢ ـ قال تعالى مخبراً عن دعاء موسى وهارون على فرعون وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس:٨٨)، فقال: ﴿اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾، مع أنه يُقال (طمست الشيء) ليضمنها (أنزل على أموالهم الهلاك بطمسها)، وقوله: ﴿اطْمِسْ﴾، يدل على وجود صور على عملاتهم المالية، فسأل موسى عليه السلام طمس هذه الصور، فلعلّها كانت بصور طواغيت الفراعنة، فأراد موسى ـ عليه السلام محو كل ما يدلّ على الكفر ويذّكر به، وإذا طمست الصور وتغيّرت هيئة العملات صار المال لا قيمة له كما هو متبع في أعراف النّاس.

٣٣ ـ قال تعالى ذاكراً ما قاله نوح عليه السلام لقومه لمّا سألوه طرد المؤمنين الفقراء: ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (هود:٣٠)، فقال:

﴿يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾، ليضمنها (مَنْ ينجيني من عذاب) أو (يخلصني من)، وعبّر عن ذلك بالنصر، إذ الخلاص من عذاب الله نصرٌ للنفس على الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وهذا هو الفوز الحقيقي؛ ولذا كما كثر تعبير القرآن عن ذلك بالفوز كقوله (ذلك الفوز المبين)، (ذلك الفوز العظيم).

٣٤ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله الكافرون من قوم هود له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:٥٣)، فقالوا: ﴿لَكَ﴾، ولم يقولوا (معك)، فهم يرون الإيمان ذلةً وخضوعًا لغيرهم، وهم لا يريدون أن يكونوا تابعين لغيرهم، وتأمّل قوم الفراعنة لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٧٨)، فقالوا: ﴿لَكُمَا﴾، وأما المؤمنون فهم يرون الإيمان معية ومصاحبة للرسل وللصالحين من عباد الله، فتأمّل قول الله عمن آمن من قوم نوح: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)، فقال: ﴿مَعَهُ﴾، وقول ملكة سبأ لمّا أسلمت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤)، فقالت: ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ﴾، فسبحان الله كيف ضلّ الكفار عن شرف هذه المعية الكريمة!! وتأمّل قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٩-٧٠).

٣٥ ـ قال تعالى ذاكرًا ما دار بين لوط عليه السلام وقومه، وهم يراودونه عن ضيوفه: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود:٧٨-٨٠)، فقال: ﴿بِكُمْ قُوَّةً﴾، ليدل على أنّه لو كان يجد قوة بوجودهم معه لقاتل

عنهم ولو إلى الممات، وتأمّل قوله ﴿قُوَّةً﴾، نكرة ليدل على أنّه كان سيدافع ولو التمس أيّ قوة ليعذر إلى الله، وليكون قد أدّى حق حماية الضيف، وتأمّل قوله ﴿بِكُمْ﴾، ليدلّ على أنّه عرف منهم كراهتهم لهذه الفعلة النكراء، وأنّهم سيكونون مدافعين عن أنفسهم معه مقوّين له.

٣٦ ـ قال تعالى ذاكرًا قول شعيب لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩)، فقال: ﴿مِّنكُم﴾، ولم يقل (عنكم) ليضمنها المثلية، فكأنّه قال (ما هم عنكم ببعيد بل قريبون منكم ومثلكم)، وفي ذلك دليلٌ على أنّ التكذيب بحكمٍ من أحكام الله، كالتكذيب بكل الأحكام، لا ينفع معه عمل، فقوم شعيب ما فعلوا فعلة قوم لوط، ولكن لمّا كذّبوا بحكم الله بتحريم التطفيف، وغيره صاروا كمن كذّب بحكم الله بتحريم فعلة قوم لوط.

٣٧ ـ قال تعالى ذاكرًا ما ردّ به قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود: ٩١)، فقالوا: ﴿فِينَا﴾، ليدل على أنّه كان قويًا في نفسه، ولكنّه ضعيفٌ بالنسبة لمجموعهم، فهو أضعف منهم، فالله أعلم بصحة ما ورد في الآثار من أنّ شعيبًا عليه السلام كان أعمى.

٣٨ ـ قال تعالى مبينًا وقوع الأمور على ما أراد، ولو أراد غير ذلك الكائدون: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، فقال: ﴿غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾، ليضمنها وقوع الأمور على ما أراد، ولو غالبه في ذلك أيُّ أحدٍ، فالله غالبٌ له لا محالة، فكأنّه قال (والله غالبٌ وتقع الأمور وفق أمره)، أو ليدل على أنّ الله أمره غالبٌ، ولو قاتل الكفار على وقوع مرادهم فالله غالبٌ ومنتصرٌ عليهم.

٣٩ ـ قال تعالى مبينًا ما قاله يوسف عليه السلام لمّا اجتمع شمل أسرته: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠)، فقال: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾، ولم يقل (إلي) ليضمنها معنى اللطف، فكأنه قال (لطف بي وأحسن إلي)، وذلك لأنّ كمال الإحسان أن يقع مع عدم توقعه وخفاء أسبابه، واللطف يدلّ على وقوعه مع خفاء أسبابه وعدم توقعه.

٤٠ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (إبراهيم: ٥)، فقال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، ليضمنها فعل الإنذار، فكأنه قال (ذكرهم، وأنذرهم بأيام) أفاده ابن عاشور بمعناه.

٤١ ـ قال تعالى مخبرًا عن دعاء إبراهيم لولده وأمّه لمّا تركهما في صحراء مكة: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، فقال: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾، ليضمنها (تنزع وتميل إليهم) أفاده الزمخشري، قلتُ: وفي قوله: ﴿تَهْوِي﴾، تعبيرٌ دقيق عن مدى تعلّق القلوب ببيت الله، فالشيء الذي يهوي يسقط دون أن يتمالك نفسه، فكذلك قلوب المؤمنين تجد ميلاً إلى بيت الله لا تتمالك معه من منع نفسها من الذهاب إلى البيت الحرام والشوق إليه.

وتأمّل قول الخليل ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فجعل الغاية الأساسية من دعائه هو شكر النّاس لربهم، وليس حفظ أبدان أهله وذريته، فأعظم ما يخاف منه هو كفر القلوب بربها إذا جاعت، فأيّ نفوسٍ هذه!! وهل أدلّ على فضلها من أن يتخذه اللهُ خليلاً!!

٤٢ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله إبليس اللعين لمّا لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر:٣٩-٤٢)، فقال ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾، ولم يقل (إلي)، ليبين أنّه ـ وإن كان موّصلاً إلى الله ـ إلاّ أنّه لا يصل العبد السالك له إلى الله إلاّ بتوفيق الله ومعونته، لا بمعونة غيره، فيكون معناه عليّ الهداية إليه وبيانه، وقوله: ﴿عَلَيَّ﴾، يدل على عُلُّو أهل الحق وتمكنّهم منه.

٤٣ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله للوط عليه السلام لمّا أمره بالخروج ليلاً بالمؤمنين: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ (الحجر:٦٦)، فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾، ليضمنه أوحينا فكأنه قال (وأوحينا إليه أمرًا مقضيًا وهو هلاك قومه).

٤٤ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ (الإسراء:١٠٧-١٠٨)، فقال: ﴿لِلأَذْقَانِ﴾، ليضمنها الخشوع والذلّة فكأنّه قال (يخرون أذلاء لله على الأذقان)، وقال (للأذقان) لأنّ السجود عندهم ـ والله أعلم ـ كان بإمالة الرأس إلى أسفل، فيكون ثقل الرأس على الأذقان.

٤٥ ـ قال تعالى آمرًا رسوله بلزوم المؤمنين وعدم التباعد عنهم: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨)، فقال: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، ولم يقل (لا تعدهم عيناك)، ليضمنها النهي عن الانشغال والانقطاع عنهم، فالمرء قد يكون قاصدًا ببصره غيره، ولكنّ قلبه متعلّق

بغيره، فلمّا قال: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، شمل النهي عن مجاوزتهم والانشغال عنهم ولو بالعين.

٤٦ ـ قال تعالى مخبراً عن حال صاحب الحديقتين الذي تكبر بهما ونسي قدرة الله، فيخبر عن حاله بعد إهلاكهما: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٢)، فقال: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى﴾، ليضمنها الندم، فكأنه قال (يقلب كفيه نادمًا على ما أنفق فيها)، أفاده أبو حيان بمعناه.

٤٧ ـ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ (الكهف: ٥٢)، ولم يقل (جعلنا لهم موبقًا) ليدل على اشتراكهم فيها كما يقال (جعلنا المال بين عمرو وزيد)، ليدل على اشتراكهما فيه أفاده الزمخشري، قلت: فإن قيل فقوله: ﴿لَهُمْ﴾، تدل على اشتراكهم أيضًا، قلتُ: لعلّ قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾، والله أعلم ليدل على وجود التفرق وعدم الاجتماع فهم مجتمعون بأجسادهم ولكنّ قلوبهم متنافرة متباعدة يلعن بعضهم بعضًا بخلاف المؤمنين الذين قال عنهم رسولنا ﷺ: «**قلوبهم على قلب رجلٍ واحد لا اختلاف بينهم**».

٤٨ ـ قال تعالى مخبرًا عن دعاء نبيّه زكريا عليه السلام بالذرية الصالحة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ٤)، فقال: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾، ولم يقل (وهن عظمي) ليضمنها والله أعلم (ظهر العظم مني) لأنّ المرء إذا كبرت سنّه ظهرت وبرزت عظامه.

٤٩ ـ قال تعالى لموسى وهارون آمرًا لهما بالذهاب إلى فرعون لدعوته: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (طه: ٤٢)، أو لم يقل (لاتنيا عن

ذكري)؛ لأنّ قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي﴾، يفيد أنّهما مشغولان بالذكر ويكثران منه، ولكن يأمرهما بعدم التقصير فيه أو الفتور عنه، بخلاف (لاتنيا عن)، قال ابن هشام: «يقال ونى في كذا إذا كان فيه ولكن قصّر فيه أو فتر عنه»، ويقال «ونى عن كذا إذا كان بعيدًا عنه».

٥٠ ـ قال تعالى في بيان صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٥-٦)، فقال: ﴿عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾، ليبين قوامة الرجل على المرأة، وولايته عليها كما يُقال: زيادٌ والٍ على البصرة، أفاده الزمخشري.

٥١ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥)، فقال: ﴿إِلَى﴾، ليضمنها فعل النظر، فكأنّه قال (ألم تنظر إلى قدرة ربك) أو ليضمنّها (ألم تركن إلى ربك وتطمأنّ إليه ثقةً به وتوكلاً عليه)، وقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، ولم يقل (إلى قدرة ربك) ولا (فعل ربك) ليدلّ على أنّ النظر في آيات الله الكونية يوصل العبد إلى معرفة الله واليقين حتى كأنّه يرى الله.

٥٢ ـ قال تعالى في معرض ذكر صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان: ٧٣)، فقال: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾، ليضمنها (أقبلوا عليها)، وقال: ﴿يَخِرُّوا﴾، ليدل على أنّ إقبالهم على الآيات عن إعجابٍ وعجزٍ عن تمالك النفس أمام عظمتها وحلاوتها.

٥٣ ـ قال تعالى مخبرً عمّا دعاه به موسى عليه السلام لمّا هرب من مصر إلى مدين: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤)، فقال: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ولم يقل (فقير مما أنزلت إليّ)

ليضمنها معنى السؤال والطلب، فكأنّه (إني سائلٌ لما أنزلت إليّ)، وتأمل قوله: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾، فهو يوقن بأنّ الخير قد نزل إليه من الله، ولكنّه يطلبه من ربه، وهكذا ثقة المؤمن ـ خاصةً الداعية ـ في ربه.

وتأمل قوله: ﴿تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾، ففيه الأخذ بالأسباب خلافًا للصوفية التي تتعبد بتعذيب النفس كترك الظل، وفيه كذلك اختيار الأماكن التي يجتمع فيها القلب على الدعاء، وكذا الأزمنة، فالخشوع والإخبات والإخلاص أيسر في الظل من الشمس، كما هو معلوم.

وفي دعاء موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وقصده الطعام والرزق. بيان لما هو أولى بالمؤمن عند طلب الدنيا لنفسه من الله، وهو عدم طلبها صراحةً بل يجعلها ضمنًا كأن يقول: «**ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»، وينوي بحسنة الدنيا ما يريده من ربه أو يقول كما صحّ عن رسولنا صلى الله عليه وسلم: «**اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنّه لا يملكها إلاّ أنت**»، أو يدعوا بما دعا به موسى عليه السلام.

٥٤ ـ قال تعالى مخبرًا عن عذاب الكفار في جهنّم ـ والعياذ بالله ـ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٥)، فقال: ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾، مع أنّه قال في الأعراف نقلاً لقول إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧)، فقال: ﴿مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ المقصود من آية العنكبوت بيان إحاطة العذاب بالكفار من كل جهة، وما ذكر كافٍ في الدلالة على ذلك، والمقامُ مقامُ غضب فأوجز فيه، وأمّا في سورة الأعراف فالإسهاب

والبسط فيه أولى لبيان طرق الشيطان ومكائده ومحاولاته بكل مستطاع لإغواء بني آدم ـ أفاده ابن عاشور ـ في التحرير والتنوير.

٥٥ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (الروم:٥٣)، فقال: ﴿بِهَادِ الْعُمْيِ عَن﴾، ولم يقل (من) ليضمنها (وما أنت بمزحزحهم عن ضلالتهم) ليدل على شدة تمسكهم بالباطل.

٥٦ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (لقمان:٢٢)، فقال: ﴿وجهه إلى الله﴾، ولم يقل (لله) ليدل على وجود توجه بالعبادة إلى الله، فالإسلام هو الاستسلام لله والتوجه بالعبادة إليه وحده لا شريك له.

٥٧ ـ قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ (الأحزاب:٤)، فقال: ﴿تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾، لأنّ أحدهم كان إذا ظاهر من امرأته قال: (أنتِ عليّ كظهر أمي) ليضمنها معنى التباعد فكأنه قال (تباعدون منهنّ بالظهار)، لأنهم كانوا إذا ظاهروا من نساءهم تركوهنّ وتباعدوا منهنّ.

٥٨ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤)، فقال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، ﴿فِي ضَلالٍ﴾، لعلُّو أهل الحق به وثباتهم على الطريق واستقامتهم عليه، فناسب أن يقول (على)، وأمّا أهل الضلال، فهم منغمسون في الباطل فناسب أن يقول ﴿فِي﴾، ليدل على تدنيهم وتديستهم فيه، أفاده ابن القيم بمعناه.

٥٩ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ (الصافات: ٦-١٠)، فقال: ﴿يَسَّمَّعُونَ إِلَى﴾، ليضمنها (لا ينتهون إلى المكان الذي يسمعون فيه) أفاده الزمخشري بمعناه.

٦٠ ـ قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الصافات: ٧٨-٨٠)، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾، ولم يقل «تركنا له» ليضمنها فعل (أنعمنا)، فكأنّه قال (أنعمنا عليه وتركنا له ثناءًا حسنًا)، فإذا كان أولوا العزم من الرسل ما ينالونه من ثناء إنّما هو بإنعام الله وتفضله عليه، فكيف بغيرهم!!

٦١ ـ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (الفتح: ٤)، فقال: ﴿إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾، ولم يقل (إلى) وذلك لأنّ المؤمن إذا وصل إلى مرحلة إيمان جديدة اصطحب معه المرحلة السابقة فمراحل الإيمان متكاملة، فناسب أن يقول ﴿مَّعَ﴾، التي تدل على ذلك، بخلاف (إلى).

٦٢ ـ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (الفتح: ٢٤)، فقال: ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل (بهم) ليضمنها (نصركم)، فكأنّه قال (نصركم عليهم وأظفركم بهم)، فالمرء ربما انتصر، وفرّ منه عدوه، ولم يظفر به.

٦٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤)، ولم يقل (في أمره يسرًا) كأنه ضمنها (يجعل له من الأمر العسير نفسه يسرًا) وهذا أكمل

في بيان رحمــة الله بالمؤمن، إذ يجعل له من الأمر العسيــر اليسر، فكيف يكون التيسير فيما ليس كذلك؟!

٦٤ ـ قال تعــالى آمرًا زوج المطلقة الـرجعيــة بإسكانها: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ (الطلاق:٦)، ولـم يقل (حيث سكنتم) بل قال: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾، ليدل على أنّ الواجب لهــا مكان من بعض مسكنه، ولمّا كــانت الآيةواردة في الرجـعيــة قال: ﴿حَيْثُ﴾، أي: في نفس مسكنه يخصص لهــا مكانًا، وأمّا مَنْ لها المسكن وهي بائن كالحامل والمرضع، فيكون لها مسكن المثل.

٦٥ ـ قال تعالى مخبراً عما تحدّث به أصحاب الحديقة عند عزمهم على عدم إعطاء المســاكين ما كان يعطيــهم أبوهم: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ (القلم:٢٢)، فقال: ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾، ولـم يقل (إلى حرثكم) وذلك ليضمنها معنى الاستحواذ فكأنهم قالوا (اغدوا إلى حرثكم لتستحوذوا عليه)، وفيه بيان طمعهم وجشعهم، أو يقال ليـضمنها معنى الاستيلاء، ليبيّن ســبحانه أنّ أخذهم للجذاذ تضمن الاستيلاء على حق الفقير والمسكين، فليس جميع الجذاذ حقًا لهم، فمانع الزكاة غاصبٌ لحق المسكين، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

٦٦ ـ قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (القلم:٣٥-٣٨)، فقــال: ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾، ولـم يقل (منه تدرسون) ليضمنهــا والله أعلم معنى الكتابة فكأنّه قال (أم لكم كـتاب منه تدرســون وفـيه تكتـبون)، وحــذف الكتــابة ودلّ عليهــا بـ ﴿فِيهِ﴾، وحذف (منه) ودلّ عليها بـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، وفيه بيان أمثل طريقة لطلب العلم وهي مدارسة الكتب، وتقييد الفوائد والنكت فيها.

٦٧ ـ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ (النازعات: ١٥-١٨)، فقال: ﴿إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾، ليضمنها معنى الهداية إلى التزكية، فكأنه قال (هل لك في أن آخذ بيدك إلى الهدى والتزكية)، أفاده أبو حيان، قلتُ: وفيه تشبيه للعامي الضالّ بالأعمى الذي يحتاج إلى من يأخذ بيده ليوصلّه بل هو أشد، فأعمى البصر ربما يدرك الطريق بالتحسس، وأمّا أعمى البصيرة، فلا يستطيع ذلك.

٦٨ ـ قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ (الزلزلة: ١-٥)، فقال: ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، ولم يقل (إليها)، ليضمنها معنى الإذن، فكأنّه قال (أوحى إليها وأذن لها)، أفاده ابن كثير بمعناه، قلتُ: وفيه امتثال الأرض ومثلها كل المخلوقات ـ عدا الإنس والجن ـ لأمر الله، فلا يصدرون عن فعلٍ إلا بإذنه سبحانه.

٦٩ ـ قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ١٩-٢٢)، فقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أو لم يقل (عن هذا)، إذ كثرة ما يحيط بالمرء من رؤية الموتى، وكثرة موت الفجأة يذّكره ويعظه، ولكنّه يتغافل عن هذا، مع كون الموت وآثاره محيطةٌ به، ولكنّه يخرج نفسه من هذا بالغفلة.

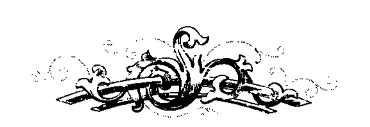
وتأمّل قوله تعالى: ﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾، ليضمنه معنى الفرار، فكأنّ قال: (ما كنت منه تفرّ وعنه تميل)، ليدلّ على شدة هرب الإنسان من الموت وفراره منه.

٧٠ ـ قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن

يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣)، فقال: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى﴾، ولم يقل (تلين لـ) ليضمنها معنى الاشتياق أو معنى الحنين، فكأنه قال (تحنّ إلى ذكر الله) أو (تشتاق إلى ذكر الله وتلين له)؛ وذلك لأنّ المؤمن إذا سمع الذكر ربما لان وخشع، وأمّا أن يشتاق مع ذلك إلى الذكر ويحنّ إليه، فهذه درجة أعلى وأكمل، والله المستعان.

٧١ ـ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات: ١٣٣-١٣٨)، فقال: ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾، ولم يقل (بهم) لأنّ (مرّ عليه) تدل على تمكن المرور أكثر، أفاده في الكشاف.

٧٢ ـ قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٦-٢٧)، فقال ﴿لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، ولم يقل (به كفوراً) ليضمّنها معنى المعاندة، فكأنّه قال (لربه معانداً كفوراً به)، وفي ذلك دلالةٌ على أنّه عاند واستكبر عن الحق مع علمه به.



الفصل الرابع

المعاني الإيمانية في الآيات القرآنية



١ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ لما قص عليه يوسف نبأ رؤياه، وأنّه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدين له: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: ٦).

وفيها فائدة مجالسة المعلِّم تلامذته، وكذا الأب أبناءه ليغرس فيهم معاني الإيمان، والتي أهمّها استحضار فضل الله ونعمه، ونسبة الخير كلّه إليه.

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتابه القيّم (تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام): يخبر الله عن قول يعقوب ليوسف ـ عليهما السلام ـ: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾، أي: كما اختارك وأراك سجود هذه الكواكب والشمس والقمر لك، فكذلك يجتبيك ربك أي يختارك ويصطفيك بفضله، وشهودُ نعمة الله وفضله أصل سعادة العبد، إذ هذا أصل الشكر، وإنما يعمل الشيطان ليجعل الخلق غير شاكرين: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧)، فإذا شكر العبد ربه، قطع الطريق على الشيطان فلم يجد إلى قلبه سبيلاً، وشهود الاختصاص بالرحمة والتفضيل، من أعظم ما يأخذ بقلب العبد إلى ربه سبحانه، حبًا وشوقًا، ورجاءً وعبوديةً، فالحب ينبت على حافات شهود المنن، ومعرفة الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهذا قد تحقق في كلمات يعقوب عليه السلام لابنه يوسف عليه السلام، وأعظم نعمة واجتباء يمنّ الله بها على عبده، هي نعمة الإسلام والإيمان

والإحسان، ثم الاجتباء بالقرب الخاص والتفضيل على كثير من عباده المؤمنين، وأعلى ذلك الاجتباء بالنبوة والرسالة.

وتأمّل ما ذكر الله سبحانه في كلامه لموسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ (طه:١٣)، وقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ (طه:٣٦-٣٧)، إلى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه:٣٩)، إلى قوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه:٤١)، ولولا تثبيت الله لهذه القلوب لضعفت من شدة الفرح والحب والشوق إلى الله سبحانه، وتأمّل قول الله - عزَّ وجلَّ - لنبيه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٣)، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، ماذا ينالنا نحن من إدراك قبس من النور، الذي حلّ في قلوب الأنبياء، وتأمل قول الله تعالى لعباده المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران:١٦٤).

وتأمّل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (آل عمران:٧٣-٧٤)، وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ (الحج:٧٨).

فحين تستشعر أنّ الله هو الذي سمّاك مسلمًا من قبل ولادتك، ومنّ عليك من قبل وجودك، وسمّاك مسلمًا في القرآن، أشرف الكتب المنزلة على أشرف الرسل ﷺ، يكاد القلب يذوب حبًا وشوقًا ورجاءً لمزيد الفضل والرحمة منه سبحانه، والكون مليء بأدلة التفضيل بين الخلائق ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (الإسراء:٢١)، وتأمل هذا في الدنيا يقودك إلى وجود تفضيل أعظم في الآخرة ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٢١)، وشهود التفضيل بالدين أعظم سبب للحب، مع معرفة صفات الجمال والجلال لله سبحانه.

ولنتأمل في ذكر اسم الرب مضافًا إلى ضمير المخاطب المفرد في قوله: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، لنجد التوجيه ولفت نظر القلب إلى هذه الخصوصية في العلاقة، ربك أنت الذي يفعل بك كل جميل، ويمنّ عليك بكل نعمة، ويختصك أنت، ويريدك أنت، فلتشهد أفعاله الجميلة بك، ولتحرص على أن تكون له وحده، وتشهد فضله وحده، لا يحقق هذا الشعور غير هذه الكلمة ﴿رَبُّكَ﴾، في مثل هذا الموضع.

وتأمل قول يوسف في نهاية القصة: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ١٠٠)، وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ (يوسف: ١٠٠)، وقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ (يوسف: ١٠١)، تجد هذا التعلق الخاص بالربوبية، الذي يشهد به العبد الصالح المنّة الخاصة والنعمة الخاصة، مثل ما تجده في قول صالح عليه السلام: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: ٦١)، وقول شعيب عليه السلام: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠)، فحين أمرهم بالاستغفار ذكر اسم الربوبية مضافًا إلى ضمير المخاطَبين، وهم هنا لم يُخَصّوا بَعْدُ بالفضل والتقريب، وحين ذكر تعلقه هو بما وجد أثره من صفات ربه الرحيم الودود، ذكر اسم الربوبية مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، لأنه وجد من رحمته الخاصة، وأثر حبه - عزَّ وجلَّ - ما لم يجدوه هم.

وتأمل قول السحرة: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (الشعراء: ٤٨)، لتعرف قدر هذه الخصوصية بهذا الفضل، هذا الذي يأخذ القلب إلى الله - عزَّ وجلَّ -، ويكاد يذوب شوقًا وحبًا لله، وتأمل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل: ١٥)، هذا الذي يجب أن يُربّى عليه الإنسان، ويُنشّأ عليه من شهود نعمته، واختصاصه عبده بفضله ورحمته، فيحب ربه أعظم الحب، ويكون تعلقه به، وحرصه على مرضاته، مقدمًا على كل ما سواه، اللهمّ ارزقنا حبك ومرضاتك.

وقد أكّد يعقوب عليه السلام على شهود أثر الربوبية بذكر جميع الأمور منسوبة إلى فعله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فلم يقل ستكون يا يوسف عالمًا بتأويل الرؤى، وستنال المنازل العالية التي نالها آباؤك وإنما كانت كل الأمور من أفعاله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾، و﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾، و﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، وقد أثرت هذه الكلمات في يوسف عليه السلام أعظم الأثر، فظلّ مشاهدًا لفضل ربه سبحانه، وفعله الجميل به، في كل مراحل حياته، فيقول لصاحبيه في السجن: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، ويقول لهما: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾، ويقول لأبيه في خاتمة القصة: ﴿يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، لم يقل قد تحققت، ويقول: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، فنسب الإحسان إلى ربه، ولم يقل خرجت من السجن بل الله أخرجه، وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾، ولم يقل جئتم، وقال: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فنسب الشر إلى الشيطان وفعله، فهذا هو الأدب، فالخير كله في يدي الرب سبحانه والشر ليس إليه، وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، فذكر لطفه ومشيئته، كل هذا أثر هذه التربية الإيمانية في الصغر، فالله الذي يفعل ويتفضل ويمنّ ويحسن، ويلطف ويشاء، له الحمد ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، كل هذا فضله ومنته.

وفي قوله عليه السلام: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾، نجد أن شهود النعمة منه سبحانه يأخذ قلب العبد، فكيف بإتمامها؟ إنّ ابتداء النعمة فضل عظيم، وأعظم منه إتمامها: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ١-٢).

وإذا شهد مع ذلك أنّه إتمام للنعمة على آله كلهم، وأنّه سبق إتمامها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، فهو إذن مغمورٌ بنعم الله التامة عليه وعلى آبائه، كل هذا أعظم لشهود الرحمة والفضل، واستدعاء المحبة والشكر، فاللهم أتمم نعمك علينا، واجعلنا شاكرين لها، مثنين عليك بها.

٢ ـ قال تعالى ذاكرًا ابتلاء نبيه الكريم يوسف عليه السلام بالسجن بضع سنين: ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف:٤٢)، وفي هذا تسلية لكل مبتلىً بالسجن في سبيل الله، قال الشيخ ياسر برهامي (في كتاب تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام)، وفي هذا أعظم تسلية للمظلومين في السجون، فإنّ أكرم الناس مكث في السجن بضع سنين مع كرامته على الله ومنزلته عنده، فلو كان السجن إهانة ـ دائمًا ـ لما قدّره الله على نبيه الكريم يوسف ـ عليه الصلاة والتسليم ـ، بل كان السجن شرفًا ليوسف عليه السلام، وبه صار أسوةً لكل كريمٍ ابتلي بالسجن ظلمًا ليصبح السجن له كقشرة البيضة للفرخ بداخلها، قد يحسب الجاهل أنها سجن له، وإنما هي حمايةٌ ووقايةٌ حتى يكتمل نموه، فينقر القشرة نقرة أو نقرتين فإذا هو خلق جديد سميع بصير، حي متحرك في فضاء الدنيا بعد أن كان صفارًا وبياضًا، ولو كسرت القشرة قبل الموعد المقدر، لكان أعظم الضرر على الفرخ وكان فيه هلاكه؛ إذ لم يستكمل نموه، فكذلك قلب المؤمن يحتاج إلى النماء ـ نماء حقائق الإيمان فيه ـ، والتزكية التي بعث من أجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تتضمن معنى النماء ومعنى الطهارة، فالنفس تحتاج إلى طهارة وتنقية ربما لا تبلغها الأعمال، فيكون البلاء لقلب المؤمن ونفسه سببًا للنماء والطهارة حتى إذا جاء الأجل الذي قدره العليم الخبير العزيز الحكيم، خرج المؤمن بقلب جديد قد ولد من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ضيق إرادة الشهوات واتباع العوائد وأسر التقاليد إلى سعة الإخلاص واتباع رضوان الله، ومن ذلّ عبودية

العباد إلى عز العبودية لرب العباد، قد امتلأ حياةً وسمعًا وبصرًا وحركةً في فضاء التوحيد.

ووالله لقد كان السجن شرفًا وعزًا ليوسف عليه السلام، ازداد فيه إيمانًا وعلمًا وقربًا من ربه - عزَّ وجلَّ -، وازداد زهدًا في الدنيا واستهانةً بها، فقد دخل السجن وهو أحب إليه مما يدعونه إليه، وكان في هذا قمةً عاليةً، وكان يسعى للخروج منه، وبعد السنوات التي قضاها انتقل إلى قمّةٍ أعلى، أشار إليها النبي ﷺ بتواضعه العظيم حيث يقول: «**ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي**»(١) أي: داعي الملك الذي بلغه طلبه فقال له يوسف: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٥٠)، فقد صار عنده الأمر أقرب مما كان، السجن والمُلْك ليس الفرق بينهما كبيرًا، طالما كانت الطاعة وطلب أجر الآخرة هما مرادا النفس، وليس هذا بالأمر الهين أن يصل الإنسان إليه، وأن تكون الدنيا بسعتها وضيقها عنده ليست هي مبلغ العلم وأكبر الهم، لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلّها، صارت عنده كما هي عند الله سبحانه لا تساوي جناح بعوضة، كما قال رسول الله ﷺ: «**لو أنّ الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة، ما سقى كافر منها شربة ماء**»(٢).

أو كَجدي أسك - أي صغير الأذنين - ميت كما مرَّ النبي ﷺ على جدي أسك ميت فقال لأصحابه: «**أيكم يود أن له هذا بدرهم**»، قالوا: يا رسول الله لو كان حيًا كان عيبًا فيه أنّه أسك، فكيف وهو ميت؟! ما نود أنّه لنا بشيء! قال: «**للدنيا على الله أهون من هذا عليكم**»(٣).

صار يوسف عليه السلام لا يبالي كثيرًا بالبقاء في سجنه لما نال فيه من أنواع القرب والحب والود والكرامة من ربه - عزَّ وجلَّ -، فصار عافيةً في حقه من جهات،

---

(١) رواه البخاري ومسلم. (٢) حديث حسن. (٣) رواه مسلم.

وإن كان بلاءً من جـهة، وكذلك المؤمن بثقـته في جزاء المصيـبة عند ربه الكريم الذي لا يخلف وعـده للصابرين، وبانـتظاره روح الفرج الذي يجـد به من لذة حسن الظن بالله ورجاء فـضله، وبشهوده نعم الله عليه حال نزول المصـيبة، وما أبقى له من المنن السالـفة وما جدّد من عـطايا اليسر مـا يجعله فعـلاً قد عظمت عنده العافـية وهانت عليه المصـيبة، قد اسـتغنى بالله وبقُرْبِه وأنواع عـبادته عن دنياهم، حتى استوى عنده قصر ملكهم وزنزانة حبسهم، لولا ما في الخارج من أنواع الطاعات الأخـرى التي أُعدَّ لها وهُيِّءَ، لمـا طلب الخروج، وهذا بلا شك حال كمال أكمل من الكمال الذي كان فيه قبل دخوله السجن.

ألا ترى إلى كمال رسول الله ﷺ وقد خيّره ربه أن يكون عبدًا رسولاً أو ملكًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولاً، كان الملك أمامه لو اختاره لكان يمنن أو يمسك بغير حساب من ربه، فاختار أن يكون عـبدًا قاسمًا لا يفعل إلا ما يؤمر، يضع حيث أُمـر، يعطي لله ويمنع لله، لا لإرادة النفس، اخـتار أن يكون ﷺ عبدًا يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويعتـقل الشاة، ويكون في مهنة أهله، وليست هذه أفعال المـلوك، أترى ملكًا يلبس ثوبًا مرقعًا؟ فـضلاً عن أن يكون هذا الذي يرقع ثوبه بنفسه، ليس له مـن يرقعه؟ وقد ورّث النبي ﷺ أمَّته شـيئًا من هذا الكمال، فكان خلفاؤه على شبه هذا الوصف، ليـسوا ملوكًا، بل المُلْكُ في أمته نقص، كما قال ﷺ : **«تكون الخلافة فيكم ثلاثون سنة، ثم تكون ملكًا»**[1].

وقال: **«تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم تكون ملكًا عاضًا، ثم تكون ملكًا جبريًا، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»**[2].

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني.

(٢) رواه أحمد وصححه الألباني.

فالخلافة هي الكمال والملك نقص، ولذا كان خلفاؤه كذلك يلبسون المرقع من الثياب، ويخلع أحدهم ـ وهو عمر ﷺ ـ خُفّه ويضعه على كتفه، ويخوض ببعيره المخاضة، تبدو صلعته للشمس، كل هذا وهو قادم لتَسَلُّم مفاتيح بيت المقدس، فيقول له أبو عبيدة ﷺ: «ما يسرني أنّ القوم رأوك هكذا»، فيقول له أمير المؤمنين ﷺ: «**لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، لجعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بهذا الدين، فمهما ابتغينا العزة في غيره، أذلنا الله**».

ليس لأحدهم بوابٌ ولا حرسٌ ولا حاشيةٌ، ينام في المسجد كما ينام آحاد الناس، هل ترون هذا ممكنًا في الملوك؟! والله لا يكون إلا في من هانت عليه الدنيا، بما فيها من غنىً وفقر، وعسرٍ ويسر، ونعومة عيشٍ أوخشونته، هذه قمةٌ لا يصل إليها إلا الأفذاذ، وصل إليها يوسف عليه السلام حين قال للرسول الذي جاءه: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وظل متبوئًا لها في ملكه، متواضعًا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ مشاهدًا فضله ونعمته، مستحضرًا كرمه ومنته، وإنما وصل إلى هذه القمة بسنوات السجن، التي كانت شرفًا وسببًا لمزيد من الشرف، وكانت عافيةً وسببًا لمزيد من العافية، وكانت عزًا وسببًا لمزيدٍ من العز.

كان يوسف فيما يبدو لمن سجنوه من الصاغرين، وفي حقيقة الأمر كان ينتصر عليهم، ويعز ويقهر باطلهم بإرادته وجه الله وطاعته، كان في ظنهم يضيع عليه نعيم القصور الذي كان فيه، ولكن في الحقيقة، كان يجتني نعيم القرب من الله سبحانه، بما لا يجده في قصورهم وحياتهم بأسرها، ومثلما كانت الحبال التي ألقاه بها إخوته في غيابة الجب، في حقيقة الأمر أسبابًا موصلة إلى علوه عليهم، كانت سنوات السجن أسبابًا إلى الكمال والزكاة والنماء والطهارة، ثم النصر والتمكين والملك والعز، على من أراد قهره وصغاره، وكل هذا مِنْ صنع الله بعبده المؤمن، وكيده له، وحفظه وتوفيقه، فهو ـ عزَّ وجلَّ ـ،

العليم الحكيم، يكره مساءة عبده المؤمن، و ما يقدر له إلا ما فيه كمال سروره وراحته، وصلاحه في دنياه وأخراه، نسأل الله ـ عزّ وجلّ أن يلحقنا بالصالحين.

٣ ـ قال تعالى ذاكرًا قول يعقوب عليه السلام لنبيه لمّا طلبوا منه أن يرسل معهم بنيامين، فخاف عليه من الضياع كما فعلوا مع يوسف عليه السلام من قبل: ﴿ **فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ (يوسف:٦٣-٦٤)، فمع ضياع يوسف عليه السلام إلاّ أنّ يعقوب عليه السلام كان على يقين من أنّ حفظ الله ليوسف خيرٌ له من حفظ أبيه يعقوب له.

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتاب (تأملات إيمانية في سورة يوسف عليه السلام): فحفظ الله ليوسف عليه السلام بعيدًا عن أبيه كان أكمل وأعظم من حفظه له وهو يرعاه بنظره ويربيه بحنانه، تصور لو بقي يوسف مع إخوته مع هذا الكم الهائل من الحقد والحسد والكراهية، كم من المكائد كان سيدبر له؟ إن أفلت من واحدة لم يفلت من الأخرى، إنّ بقاء الإنسان مع قوم يكرهونه ولو بغير حق من أعظم أسباب تشوش نفسه وتغير قلبه، إنّ حاجة الإنسان إلى سلامة الصدر لمن حوله وممن حوله مع طمأنينة قلبه واستقرار فؤاده حاجة عظيمة، نجد هذا الأمر عظيمًا في الشرع، إذ يؤكد بكل أنواع الأدلة على أهمية الحب في الله وسلامة الصدر، يكفيك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا**»[1].

بل إنّ القرآن دل المؤمن على ما هو أعظم من ذلك، دله على حب الملائكة له واهتمامهم به واستغفارهم له ودعائهم وصلاتهم من أجله، بل دله على أنّ

---

(١) رواه مسلم.

الكون حوله يحبه ويفرح به بموافقته له في تسبيح الله سبحانه، وأنه بينه وبين السماء والأرض علاقة وحنين بسبب العبادة، تبكي عليه السماء والأرض عند موته حزنًا على فراقها لعبادته، في حين لا تبكي على الكافر بل تستريح منه، قال تعالى عن آل فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩). وقال النبي ﷺ: **«وأما الفاجر فيستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»**[١]. وقال ﷺ: **«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»**[٢].

كل هذا ليستريح المؤمن ويسعد ولا يشقى، لأنّ الإنسان لا تكمل شخصيته ولا يستقيم حاله بغير الحب، فلو كان يوسف قد بقي عند يعقوب ـ عليهما السلام ـ هل يكون حاله كما كان في قصر العزيز وسط مشاعر الأبوة والحنان، والتي وإن لم تصل إلى أبوة يعقوب وحنانه إلا أنها بلا منازعة ولا مخالفة من عشرة رجال يخالطونه ليل نهار؟ ثم لما وقع من امرأة العزيز ما وقع، ودبت الرغبة في الانتقام إلى قلبها لأنها في حقيقة الأمر تحب نفسها وشهوتها لا تحب يوسف، إنها تريد حظها منه لا تريده هو، فاختار الله له السجن ليبتعد عن هذا الجو الكئيب، وكان في السجن مع من يراه بعين الإحسان والصديقية: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، وحاجة الإنسان إلى هذا، أشد من حاجته إلى مسكنٍ فسيحٍ وفراشٍ مريحٍ وطعامٍ لينٍ.

إنّ الرق كان حفظًا ليوسف، وإنّ السجن كان حفظًا ليوسف من خير الحافظين وأرحم الراحمين ـ سبحانه وبحمده ـ، ما أعظم التفويض، وما أجمل التوكل، وما أجمل تعلق القلب بالله سبحانه فهو خير حافظًا وهو أرحم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني.

الراحمين، يحفظ عبده المؤمن من حيث يظن الناس الضياع، ويرحمه برحمةٍ من عنده لا تشبهها رحمة من حيث يظن الناس العذاب، اللهم لك الحمد كما تقول وخير مما نقول، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم احفظنا في ديننا وأنفسنا وأهلينا وذرياتنا والمسلمين والمسلمات، فأنت خيرٌ حافظًا وأنت أرحم الراحمين.

إنَّ شهود هذه المعاني يجعل العبد يتعلق برحمة الله تعلقًا خاصًا، يشهد به فضله، ويطمع في المزيد من رحمته ويتوكل عليه وحده، ويحفظه في نفسه وأهله وأولاده ودنياه وآخرته، ويدبر أمره بما لا يحسن هو من التدبير، وانظر الفارق بين حال إخوة يوسف وبين حال أبيهم يعقوب عليه السلام وهم يقولون ـ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف:١٢)، فينسبون الحفظ لأنفسهم وهم المضيعون والعاجزون، بل ويؤكدون قيامهم بالحفظ بأدوات التوكيد «إن» و«لام التوكيد»، وما انتبهوا أن يسألوا الله التوفيق في هذا، أو أن يتوكلوا عليه في أمر لا يملكونه ولا يقدرون عليه، فهكذا حال الإنسان الجاهل قليل الذكر، كلامهم من أول القصة خال من الذكر والتوجه إلى الله واستحضار أسماء الله وصفاته إلا حين بدأوا يندمون وقال قائلٌ منهم: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يوسف:٨٠)، فكان هذا أول تعلق لهم بأسماء الله وصفاته رزقهم الله به لما شرعوا في التوبة.

أما قبل التوبة فلا تزال الغفلة، ولا يزال البعد، ولا تزال نسبة الفضل والعمل للنفس مع التقصير والتضييع، أما يعقوب فكلامه كله من أول القصة لا يخلو من ذكر الله والتعلق بصفاته فلما قالوا له: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، قال: ﴿فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٤)، فهم في واد وهو في وادٍ، وهم في شأن وهو في شأن آخر، هم في الأرض وهو قلبه في السُّمو والعلو للقرب من الله سبحانه، نسأل الله أن يرزقنا حبه وقربه وطاعته.

٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف:١٠٣).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتاب (تأملات إيمانية) فيها تسلية لرسولنا ﷺ، وهو القدوة الحسنة لكل الدعاة بعده، عن عدم إيمان أكثر الناس، وهذه مسألةٌ عظيمة الأهمية في نفس الداعي، ومرحلةٌ مهمةٌ لابد أن تمر بها دعوة الحق، لها مصالح جمة وحكم بالغة، من أهمها: تحصيل عدم الزهد في القلة، وعدم الاغترار بالكثرة، وعدم بناء الأمور على الكثرة، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الأنعام:١١٦)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٩٠)، وقال عن نوح: ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (هود:٤٠)، فلابد أن يوطن الداعي نفسه على أنّ ما عليه هو العمل، وليس عليه النتائج، عليه البلاغ عن الله وعن رسوله ﷺ، وليس عليه الهداية.

ومن حِكَم ذلك وفوائده: تحصيل الإخلاص وإرادة الله والدار الآخرة، وذلك أنّ من يعمل ولا يجد في الدنيا ثمرة عمله ودعوته من إقبال الناس على دعوته، فإنه لا يؤمل ولا يرجو إلا رضا الله عنه وثوابه.

وإذا علم الداعي أنّ هناك من الأنبياء من لم يجبه أحد، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: **«عُرِضَت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد»**[(١)].

ومع ذلك نالوا أجرهم عند الله كاملاً غيرمنقوص، فما عليه أن يهتدي الناس، وطالما أنه قام بما عليه من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ولم يكن فظًا غليظ القلب يؤدي إلى انقباض الناس من حوله، وكانت دعوته نقيةً بيضاء لم يَشُب الحق فيها شائبة تؤدي إلى انصراب الفطر السليمة عنها، فلا يعبأ بما عليه الناس.

---

(١) متفق عليه.

ومن حِكَم ذلك: أن يوقن أهل الإيمان وأهل الدعوة أن النصر ليس من صنعهم، فإنهم قد مرّ عليهم وقت يفرّ الناس فيه من الحق فأين كانوا هم حينئذ؟ وما كانوا يملكون لأنفسهم ولا لدعوتهم نصراً ولا تمكينًا، بل حتى حمايةً وجواراً من الأذى، فإذا آوى الله عباده المؤمنين القليل المستضعفين في الأرض، وأيدهم بنصره ورزقهم من الطيبات، فعند ذلك لا يقولون: «انتصرنا»، «فعلنا»، «خطّطنا»، «نفذّنا»، بل يقولون: «هذا من فضل الله علينا وعلى الناس»، فيشكرون الله على نعمته ويشهدون فضله بها: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٦).

ومن حِكَم ذلك: أن يُعلم أنّ هذا الدين لا يقوم بالغوغاء، وأنه لابد من إعداد طائفة مؤمنة تُربّى على الحق، وتؤهل لقيادة الأمة، بل العالم، وحين تستكمل سمات الشخصية المسلمة في أفرادها، والتي أساسها تحقيق الإسلام والإيمان والإحسان، علمًا وعملاً وحالاً، ودعوةٍ وصبراً وثباتًا، وحين تقوى الروابط بين أفرادها حتى يصيروا كجسدٍ واحدٍ، حبًا وتعاونًا وأداءً لفروض الكفاية أو تأهلاً لذلك، فسوف يحصل لها التمكين من الله سبحانه.

أمّا أن تظن أنّ دعوة الإسلام يمكن أن تقيمها الجماهير الغفيرة التي لم ترب التربية الإيمانية، وإنما تحركها عاطفةٌ بلا علم، وحركةٌ بلا بصيرة، وتقليدٌ أعمى للقادة، فهو ظنٌ فاسدٌ جاهلٌ بدعوة الأنبياء وطريقهم، وهذه الجماهير ما أسرع ما تنجرف وراء ناعقٍ جديدٍ ينحرف بها إلى الأهواء المضلة والشهوات المغوية، فينهار العمل ويقطف الثمرة ـ إن كان هناك ثمرة ـ الأعداء والمنافقون وأصحاب المنافع والمصالح الدنيوية.

إنَّ الجماهير تدخل في الدين أفواجًا بعد أن يقوم على الأعمدة الراسخة من المؤمنين، إنّ الزلازل والفتن تكثر في آخر الزمـان، ، فهل يصح أن يبني بنائنا بلا أعمـدة؟ إنّ أول زلزال سوف يهـدم البناء فوق رؤوسنا، ونكون نحن المقـصرين لأننا غـرتنا الجمـوع الكثـيرة التي لـم تهيئ ولم تربى على الـقرب من العلمـاء العاملين، ولم تختبر صفاتها حتى ينظر في صـلاحيتها لتحمل المسئولية، وإذا لم نستفـد من بيان القرآن: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣)، وسيرة رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، فلا نلومنّ إلا أنفسنا، ونسأل الله العافية.

ومن حِكَمِ قلة المؤمنين في بداية الـدعوة: أن يوقن الداعي أنّ نجـاح الدعوة ليس لفصاحـته ولا لبلاغته ولا حسن إسلوبه ولا لشـدة حرصه، فلن يكون في شيء من ذلك أشد من النبي ﷺ، بل ولا مماثلاً له، بل ولا قـريبًا منه، ومع شدة حرصه ﷺ واجـتهاده وكمال عبوديتـه، مرت الدعوة بهذه المرحلة، ولم يؤمن أكثر الناس، ولم يهدي من أحب.

فليوقن الداعي بذلك، وليشـهد فقره وعجـزه عن هداية الناس، فإذا اهتدى على يديه أحد فلا يقل لنفسه ولا لغيره: «أنا الذي دعوت»، «أنا الذي علّمت»، «أنا الذي ربيت»، «أنا الذي صبرت وضحّيت»، فـهذا باب فساد خطيرٍ في قلب الداعي وقصده، وهو بداية العُـجب ثمّ الكبر والمنّ على الخلق، ثمَّ التنافس على الدنيا باسم الدين، وكذا الحقد والحسد، نعوذ بالله من ذلك كله.

ومرور الدعـوة بمرحلة القلة والضعـف يغلق هذا الباب؛ لأنَّ المؤمن يتـذكر هذه المرحلة، ويتذكر حاله فيها من ضعف القوة وقلة الحيلة والهوان على الناس، وأنه لم يكن بيده ساعـتها أن يغير هذا الواقع، ولا حتى يعلم مـتى يتغير ـ وإن كان موقنًا بوعد الله ـ، إلا أنه لا يدري أيكون مـوجودًا على ظهر الأرض ساعة

تغيره، أم يكون قد رحل عنها، فلله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله، ووَعْدُ الله هو لمجموع الطائفة المؤمنة، ولا يلزم أن يدرك آحادها ذلك في حياتهم، بل بالقطع يسقط الكثيرون شهداء في الطريق قبل الوصول، فإذا تذكّر المؤمن ذلك لم يغتر بعمله ولا بعلمه ولا بدعوته ولا بجهاده، فكانت هذه المرحلة من أهم وأنفع المراحل للدعوة والداعي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾، بيانٌ لحرص النبي ﷺ على إيمان أكثر الناس، وقد دلت أدلةٌ كثيرةٌ على شدّة حرصه ﷺ على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣)، أي: مهلك نفسك، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (فاطر:٨)، وقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (النحل:٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

وهذا مما ينبغي أن يكون عليه الداعي إلى الله ومعلم الناس الخير، فهدفه الأول أن يهتدي الناس، وأن يعرفوا ربهم ويحبوه، وهو يحرص على ذلك لأنه المأمور به شرعًا، حتى ولو كان يعلم أن القدر قد مضى بغير ذلك، فالحرص على هداية الخلق امتثالٌ للشرع، ولكن شهود القدر يمنع الإحباط واليأس والحزن والكآبة، التي إذا وقعت في نفس الداعي أقعدته عن العمل، وأبطلت دعوته وسعيه، فعليه أن يُبلغ الحق وليس عليه أن يهتدي الناس، عليه أن يحرص على هداية الخلق، وإذا رأى غير ذلك عَلِمَ أنّ من ورائه حكمةً بالغةً ومصالح باهرة يحمد الرب عليها، فله الحمد على كل حال ولا يُحمد على مكروه سواه.

٥ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله يعقوب عليه السلام لبنيه لما أخبروه بحبس بنيامين في مصر: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٨٣-٨٦).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ (في كتاب تأملات إيمانية): أعرض يعقوب عليه السلام عن أبنائه وتذكر حزنه القديم على يوسف عليه السلام، جَدَّدَ له فَقْد الابْنَيْن حزن فَقْد يوسف، بل هو لم يزل موجوداً في قلبه لم يفارقه، ولكن الصبر الجميل منع من ظهوره أمامهم، وقد يتعجب المرء من أن الخبر بفقد بنيامين كان يناسبه أن يقول: «يا أسفى على بنيامين»، ولكنه قال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، فلاشك أنّ يوسف أحب إليه، ثمّ إنّ هذا الموقف ذكره بقيمة يوسف عليه السلام وقَدْرِه وصفاته الجميلة.

فها هم أحد عشر رجالاً لا يستطيعون حفظ واحد منهم، فما قَدْرُهم بالنسبة إلى قَدْرِ يوسف عليه السلام؟ إنَّ هذه البلايا إنما يقوم لها يوسف عليه السلام مقامهم مجتمعين، بل خيراً منهم بلاشك، ووالله لقد كان، فيوسف هو الذي يفرّج الله به كرب يعقوب في بنيه، ولكنه يفتقده حين ما قال: ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، إنّ فَقْدَ الرجال وغياب الكرماء وانعدام الثقات هو الذي يؤلم رعاة البشر والأنبياء وأتباعهم، إنّ هذا المعنى ـ والله أعلم ـ هو الذي جعل عمر رضي الله عنه عندما يصلي بالناس فيقرأ هذه السورة، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى عن يعقوب في هذا الموضع: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾، سمع نحيبه ونشيجه، أي: بكاؤه من آخر المسجد وهو الذي يقول: «اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة»، ويقول لجلسائه: «تَمنّوا»، فيتمنى أحدهم مالاً ينفقه في سبيل الله، ويتمنى الآخر خيلاً يجاهد عليها في سبيل الله وغير ذلك، فيقول: «لكني أتمنّى داراً مثل هذه، فيها رجال مثل أبي عبيدة بن الجراح أستعملهم في أمور المسلمين»، أو

كما قال رضي الله عنه، إنه والله همٌّ عظيمٌ وشدةٌ شديدةٌ أن يفقد الرجال، إذا كان في زمان عمر والصحابة رضي الله عنهم حوله متوافرون يشكو إلى الله عجز الثقة، بل أعظم من ذلك إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يقول: «**الناس كإبل مئة لا تجد فيها راحلة**»(١) فالراحلة التي تصلح للسفر الطويل وحمل الأعباء أقل من واحد بالمائة في الناس، فكيف بأزمانٍ انعدم فيها الثقات وغاب فيها العلماء وعزّ فيها الكرماء؟! اللهم إليك المشتكى، ويا أسفى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثالهم - وما لهم مثيل - وأشباههم وأتباعهم، ماذا نصنع وكيف نهنأ بالعيش، والمسلمون قد تضاعف عددهم بآلاف الملايين، وتضاعف كربهم ومحنتهم وبلاؤهم، وعظم الجهل فيهم وقلّ العلم فيهم، وتسلط عليهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، أما يحق لنا أن نبكي ونبكي على أنفسنا وأهلينا وآبائنا وأمتنا.

إنّ يعقوب عليه السلام لما ضيَّع أبناؤه أخاهم الثاني، تذكر أمانة يوسف عليه السلام وكرمه وعلمه وحسن صفاته، فتأسف عليه: ﴿**وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ**﴾، شكوى إلى الله - سبحانه - وحزنًا على عدم الراعي الشفيق الرفيق، ومن يَعُدّ لنوائب الدهر مع أنه يعلم أنه عن قريب يلقاه، وأنّ غيابه مؤقت لأنه يعلم من الله - من وعده الصادق الذي لا يخلف - ما لا يعلمون، يعلم من حكمته وجوده سبحانه، ويعلم من رحمته وفضله ما لا يعلمون، يعلم من عزته سبحانه، وأنه الغالب على أمره، وأنه حسب من توكل عليه، وأنه لا يضيع أجر المحسنين، ما يجعله يوقن بقرب لقاء يوسف عليه السلام.

فهل نبكي على حالنا وحال أمتنا، ونشكو إلى الله همّنا وحزننا وبثنا عسى أن يكون في ذلك قرب فرجنا؟ فإن كنّا لا ندري ما يصنع الله بنا كأفرادٍ أو

---

(١) متفق عليه.

كجيلٍ، لكننا على يقين من أنّ الأمّــة لا تموت وأنّ الحق منها لا يضيع، وأنه «**لا تزال طائفة منها على الحق ظاهرين لا يضرها من خالفها أو خذلها حتى تقوم الساعة**»، ونسأله سبحانه أن يجعلنا منهم وأن يجعلنا خطوات على الطريق ولبنات في البناء إنه هو العليم الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، أي: ذهب ضوؤها فعَمِيَ يعقوب عليه السلام، وهذا بلاءٌ جديدٌ، فإنه يأمل ويرجو أن يرى يوسف بعينيه، ذهبت العينان وذهب البصر بسبب الحزن، ولكنّ الرجاء في الله باقٍ والصبر قائم، وهذا دليل على أن الحزن لا ينافي الصبر والرضا، فإنه من الرحمة بخلق الله ـ سبحانه ـ لا من السخط على قدر الله، كما قال النبي ﷺ: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم** ـ يعني ابنه ـ **لمحزونون**»[(١)].

إنه مقام الرحمة بالخلق وفيض المشاعر الرقيقة الرفيقة وزوال القسوة التي لا يحبها الله، إنّ وجود الألم الفطري لا ينافي الرضا عن الله وبالله فضلاً أن ينافي الصبر، ولكنّ هذا الألم يذوب في حلاوة الرضا ويفيض الله على القلب ما يغنيه ولا يشقيه، فيكون حزنًا وبثًا عجيبًا لا يشقى به الإنسان، بل يجد لذة الشكوى إلى الله، والشعور بآثار رأفته ورَوْحه، ويبكي فرحًا، ويشتكي سرورًا، ويتألم ملتذًا.

ووالله إنه لأمرٌ عجيبٌ ولكنه حقيقي، قد يصعب وصفه أو يستحيل إدراكه إلا بالوجد والذوق، ولكن إذا تأملت الآيات وجدته والله جليًا واضحًا، فيعقوب قد صبر الصبر الجميل، وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، أي: ساكت كئيب، لا يشكو أمره وما يجده في صدره إلى مخلوق، وليس حزنه وبثه (أي:

---

(١) متفق عليه.

همه وغمه) على المستقبل والحاضر، والحزن على الماضي ليس لفوت دنيا ولمجرد فقد ابن، بل قلق على مستقبل أمّة وغياب راعٍ شفيقٍ يقول مقام أمّة، وهو مع ذلك لا ييأس من روح الله ويبث روح الرجاء التي تبدد ظلمات اليأس في بنيه الذين يشفقون عليه من الضعف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، أي: ضعيف القوة، ويخشون عليه من الهلاك: ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، فيقول لهم واصفًا حقيقة بكائه وحزنه: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٦-٨٧).

إنّ عبادة الشكوى إلى الله عبادة عظيمة تجلب للقلب أنواعًا من الطمأنينة والراحة والسكون والسعادة ما لا يمكن أن يوجد في عبادة غيرها، إنها عبادة أدّاها نوح عليه السلام حين شكى إلى الله فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح: ٥-٧)، وأدّاها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواي على النّاس»، إلى آخر الدعاء المشهور، وهو وإن كان ضعيف السند، إلاّ أنّ شهرته تغني عن سنده.

٦ ـ قال تعالى ذاكرًا الرؤيا التي رآها الملك وكانت بفضل الله سببًا لخروج يوسف عليه السلام من حبسه: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) وَقَالَ الْمَلِكُ

ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٤٥-٥٠).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتابه البديع (تأملات إيمانية): الله سبحانه مقلب القلوب، آخذ بنواصي العباد، رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش العظيم، ما من شيء إلا هو آخذ بناصيته، انقطعت الأسباب الظاهرة بيوسف عليه السلام، ونُسي في السجن سنوات، وانشغل الساقي بحياة الخمر، وانشغل العزيز وامرأته والنسوة بترفهم، ونسوا الحين الذي أرادوا حبس يوسف إليه، وهكذا يُترك المظلومون في سجون الظَلَمَة، الذين لا يشعرون بآلام البشر، ولا يشفقون على خلق الله، ولكنّ الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، لا يضل ولا ينسى، هو الذي قدر على يوسف دخول السجن لمصلحته لا لمساءته، لنفعه لا لضرره، فحين جاء الأجل الذي قدره الله، ظهرت أسباب جديدة لم تكن تخطر بالبال، ولا في قدرة أحد غيره ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يأتي بها.

فهل ترى أحدًا من الخلق أن يُرِيَ نفسه أو غيره رؤيا؟ بالقطع لا، قدر الله أن يرى الملك ـ الذي هو فوق العزيز ـ رؤيا أفزعته وأقلقته، وكم من رؤى يراها الملوك والناس، ولا يعبأون بها، ولا يبحثون عن تأويلها، ولكن خالق الأسباب ومصرف القلوب والأبصار، ومدبر الأمر أرى الملك رؤيا، وجعله يهتم بتأويلها وتفسير ما رأى فيها، رأى: ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، عجاف أي: ضعيفات نحيفات، ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾، يابسات أي: جافات، وسأل كبراء جلسائه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ (يوسف: ٤٣)، تعبرون أي: تؤولون وتفسرون، حاول الملأ كعادتهم صرف الملك عن التفكير والبحث في ما لا يحسنون، فهذا شيء يظهر جهلهم وعجزهم، وهم دائمًا ـ على طبيعة ملأ الملوك وطريقتهم ـ أنّ كل ما يحتاج الملك إليه

لديهم، لكي لا يبحث عن غيرهم، فسارعوا إلى الفتوى بالجهل فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ (يوسف:٤٤)، أي: أخلاط أحلام، أحلام مختلطة بلا معنى، هذا الجواب آمن عليهم وأسلم، لعل الملك ينسى هذا الحلم.

ولكن يبدو أنّ الملك لم يقنع بهذا الجواب، فالرؤيا واضحة المعالم، وليست بأخلاط، والعدد فيها واضحٌ ولابد له من معنى، والفعل من البقرات واضحٌ ولابد له من دلالة، فكان الجواب الثاني منهم اضطرارًا، ومراعاةً لقناعة الملك، فإنهم لا يستطيعون رد قناعة الملك، إنّ ما يراه الملوك دائمًا هو الصواب عند حاشيتهم، طالما أصروا عليه، فلابد أن يرجع كل الملأ عن رأيهم إلى رأي الملك، فكان الجواب الثاني: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (يوسف:٤٤)، عند ذلك تذكر الفتى الساقي الذي كان مع يوسف في السجن، وقد نجاه الله سبحانه ببشارة يوسف له بذلك، حين عبر له رؤياه، تذكر بعد أمّة، أي: بعد مدّة، أَمْر يوسف وقدرته على تعبير الرؤيا، وصدقه العظيم الذي لمسه منه في أمره كله، فقال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾.

تلمح في شخصية هذا الفتى، أثر الخمر ومجالسها في سلوك الإنسان وأخلاقه، هو شخصية وصولية، تبحث عن اللذة والمصلحة الذاتية، دون شعور بالآخرين يقول: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم﴾، يحاول أن ينسب إلى نفسه تأويل الرؤيا، ليصل بذلك إلى منزلة عند الملك والحاشية، كان العدل أن يقول: «أنا أعرف من يمكنه تأويل الرؤيا، فأرسلوا إليه فأخرجوه من السجن، وكرّموه واسألوه».

كان الإنصاف ساعتها أن يذكر للملك قصة يوسف المظلوم، الذي دخل السجن لأجل عفّته وطهارته، لكنها الشخصية الانتهازية التي تحب أن تحمد بما ليس فيها، وبما لا تفعل، يريد أن يعرف هو تأويل الرؤيا ويقصها على الملك دون أن يذكر حتى اسم يوسف، إنه ـ في عُرْفه وظنّه ـ كنزٌ يمكن استغلاله قبل

أن يصل إليه غيره، ويفوز هو بالعطايا من الملك على تأويل الرؤيا، ولذا حرص على أن يذهب إلى السجن ودون تفاصيل: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، إلى مَن؟ لم يخبرهم حتى باسم يوسف، أمّا يوسف عليه السلام فيكفيه كلمة طيبة ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، أمَّا المروءة، أمَّا العدل، أمَّا الإنصاف، أمَّا رد الجميل لمن أحسن إليه، أمَّا السعي لنصرة المظلوم، كل ذلك ذهب عن الرجل، وذهب هو عنه، ليس أهلاً له، ولا هو أهل له، الأعمال والأخلاق والأشخاص متناسبون، فـ ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور:٢٦)، ومن الأعمال والأقوال، و﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ﴾ (النور:٢٦)، أيضًا من الأعمال والأقوال.

أرسلوا الرجل إلى السجن، ذهب إلى يوسف الذي يوقن بصدّيقيّته وإحسانه، يظهر لؤمه وقبحه مرة ثانية، لا يبادره باعتذار عن نسيانه إياه سنوات، لا يبادره حتى بوعدٍ جديدٍ أن يذكره عند الملك، بل يقول له مباشرة: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾، حتى لم يخبره بأهمية الرؤيا ومن رآها، إنها رؤيا الملك، يخشى الساقي لو علم يوسف بذلك لاشترط، ولضاع عليه السبق الذي يتمناه لدى الملك، مثل إنسان عَلِمَ أن في يد فقيرٍ جوهرةً غاليةً جدًا، يظنّ أنه لا يعرف قيمتها، فيريد أن يأخذها منه بدون مقابل، ودون أن يخبره بقيمتها العظيمة حتى ينفرد هو بالتمتع بها وبقيمتها، الحقيقة أنه هو الفقير ويوسف كان الغني، يقول الفتى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾، هذه حاجته، تعَوَّد على أن يأخذ ولا يعطي، يريد أن يرجع هو إلى الناس، حتى لم يفكر أن يأخذ يوسف معه، حاجته أن يرجع إلى الناس، وحاجة الناس أن يعلموا ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، لم يقل له «حتى أرجع إلى الملك» بل إلى الناس ليقضي حاجتهم في المعرفة، أين حاجة

يوسف؟ أين حق الصديق المظلوم؟ أين حق الصحبة، وجزاء النعمة، ورد الجميل بالبشارة؟ كل ذلك لا يَهُمّ، نسيها الخمَّار، ولله الحمد أن نسيها، ليظل يوسف أغنى بجميع المقاييس، ليس لأحدٍ عليه منّة، بل له المنّة عليهم بعد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ليس لأحد عند يوسف من نعمةٍ تجزى، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى، نعم والله سوف يرضى من أوسع الأبواب في الدنيا والآخرة.

لم يعاتب يوسف عليه السلام ذلك الفتى السائل على ما قصّر في حقه، ونسي من مظلمته، لم يقل له من رأى هذه الرؤيا، وقد علم بلاشك من لهفة الرجل وشدة حرصه على معرفة التأويل، ليرجع به ﴿إِلَى النَّاسِ﴾، أن هؤلاء الناس لهم شأن كبير، لم يشارطه على الخروج ولا حتى على الشفاعة عند الملك وذكر حاجته، كرم يليق بالكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، غِنَىً عن الخلق يليق بمن أغناه الله عمن سواه، رفعة تليق بمن رفعه الله درجات، حلم يليق بحفيد ـ أو قل ابن ـ الخليل الحليم الأواه المنيب.

ما أروع هذه الأخلاق، يتعجب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، روى عبد الرزاق بسندٍ صحيح عن عكرمة مرسلاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر**»[(١)].

ولنصفه الأخير شاهد من حديث أبي هريرة في الصحيحين ومسند أحمد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف**

(١) رواه الطبراني وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة».

تحيي الموتى، ويرحم الله لوطًا لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف، لأجبت الداعي» [(١)].

وقد قاله رسول الله ﷺ تواضعًا، وإلا فهو سيد النّاس ولا فخر، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. رجع الفتى فرحًا بالكنز الذي حصل عليه، ويحدِّث نفس أن يكون له الجزاء وحده، ولكن الله المنّان الكريم، لا يضيع نبيه ووليّه، بل هو الذي أرى الملك الرؤيا، وأهمّه بها من أجل يوسف، وهو سبحانه يقدّر سنين الجدب والرخاء، ليعلم النّاس فضل يوسف، والملك أذكى من أن يقبل أنّ الفتى الخمار هو الذي ينبئ بتأويل الرؤيا مثل هذا التأويل، فسأل عمّن أوّلها، فلمّا أخبر بأنه يوسف، طلب الإتيان به.

يختار العبد لنفسه أمرًا، ويختار له ربه ما هو أفضل وأحسن، أراد يوسف عليه السلام أول ما دخل السجن أن يخرج منه بشفاعة ساقي الملك، فاختار الله له أن يخرج بطلب من الملك له، بل ويُعزه أعظم من ذلك بأن يمتنع يوسف من الخروج حتى يعترفوا ببراءته وطهارته، وفرقٌ كبيرٌ بين أن يخرج الإنسان من السجن ممنونًا عليه بشفاعة، وبين أن يخرج وهو الذي يَمُنّ عليهم بإحسانه، ويتجاوز عن إساءتهم وظلمهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي﴾، أُعجب الملك بتأويل الرؤيا، وألقى الله في قلبه اليقين بصحة التأويل وصدقه، وعرف علم يوسف وفضله وكرمه، ورجاحة عقله فيما نصح به أهل البلد مع أنهم أساءوا إليه وحبسوه، ولاشك أنّ نفس أي إنسان تقف مبهورة أمام هذا التصرف الرائع، بالإحسان إلى من أساء إليه، والترفع عن الإساءة، ويجد المرء في نفسه شعورًا بمدى غنى هذا المحسن، غنى من نوع خاص، يقف الملوك أمامه فقراء، ويتمنى معه العيش في ظلال هذه النفس الغنية وبجوارها، ويسعى إلى لقائها.

---

(١) متفق عليه.

طلب الملك لقاء يوسف، وأمر بإخراجه من السجن وحق له ذلك، فنحن والله على بعد الزمان نرجو لقاءه، ونتمنى لو طوي الزمان لنأتي نحن إليه، ونسأل الله أن يرزقنا مرافقته، ومرافقة أنبياءه في الجنة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، امتنع يوسف من الخروج، فليس السجن الآن يمثل ضيقًا وكربًا، إنّ الروح إذا ارتفعت بالقرب من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم تعد أسوار الأرض وحواجزها تقف عقبةً أمام انطلاقها، قال يوسف لرسول الملك بصيغة الأمر: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: إلى سيّدك وملكك، ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، عرّض يوسف بالملك بهذا الأسلوب الرفيع الذي لا يجرح، فربُّكَ أيها الرسول لا يعلم شيئًا عن أمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن، وهنّ شاهدات على مراودة امرأة العزيز ليوسف وبراءته، ورب يوسف ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، ومعلومٌ أن الأمر بالسؤال للملك وهو لا يعلم شأن النسوة، سوف يقتضي بحثًا عن إجابة وتحقيقًا وتحريًا.

٧ ـ قال تعالى ذاكرًا قول امرأة العزيز لمّا ظهر الحق: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (يوسف:٥٣).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ أكرمه الله ـ في كتاب (تأملات قرآنية): ظاهر قولها الدلالة على وجود قدر من الإيمان والمعرفة، وإن كنا لا ندري هل تحقق به أصل الإيمان أم لا؟ والذي يظهر أن هذا أثر من آثار مخالطة يوسف عليه السلام، فإنه قد جاءهم بالبينات كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ﴾ (غافر:٣٤)، وقد قال يوسف أول ما دعته المرأة إلى نفسها: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، ولاشك أن يوسف لابد أن يكون دعاهم إلى الله سبحانه، كيف لا وهو يدعو في السجن، فلاشك أنه يدعو مع التمكين أكثر: ﴿الَّذِينَ إِن

مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج:٤١)، ويوسف عليه السلام مُمكَّنٌ من ساعة حضوره إلى قصر العزيز، الذي قال لامرأته أكرمي مثواه، وقد قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾، فلاشك أنه دعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبيَّن لهم صفاته ووحدانيته ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومن هنا ظهر أن الاستغفار ومعرفة الخطيئة، وتنزيه الله في الكلام مثل: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ (يوسف:٣١)، ومعرفة الملائكة: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف:٣١).

وهذا يدلنا على أن الدعوة إلى الله لا يجوز أن تتوقف بحال من الأحوال، أو أن ينتظر بها كمال التمكين، فلاشك أنّ التمكين الأول وهوفتى العزيز، ليس كالتمكين الثاني وهو على خزائن الأرض، ولكن أي قدر من التمكين يجب أن يكون معه القدر الممكن من الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهي تثمر ثمارها حتى في الطبقات الحاكمة للمجتمع، حتى ولو كان الداعي ـ في ظنهم ـ من العابدين الخاضعين لهم، فالحق له سلطان وهيبة يقوى به الضعيف ويعزّبه الذليل، فبآيات الله يغلب من تمسك بها و من تبعه، وبالإيمان يعلو من حققه، وبكلام الله يحق ـ سبحانه ـ الحق ويعز أهله، ويبطل الباطل ويذل أهله.

فلا تضعف أيها الداعي صاحب الحق، بما معك من آيات الله من الوحي المنزل، حتى ولو كنت مستضعفًا، فأنت معك السلطان الذي لا يغلب ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠)، وعليك باستغلال كل قدر متاح من التمكين، للعمل لدين الله وإعلاء كلمته، ولا تكلف إلا وسعك، وإذا عملت بما تقدر عليه ـ على مكانتك ـ، فسوف يقدر الله على ما لا تقدر عليه، ويزداد تمكينك في الأرض بإذن الله والقيام بأمره، كما أن من عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يعلم، فكذلك من عمل بما قدر

عليه، رزقه الله القدرة على ما لا يقدر عليه الآن، فاستعن بالله ولا تعجز، وسِرْ فالباب مفتوح، والقوة لله جميعًا ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣).

٨ ـ قال تعالى ذاكرًا هرب يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، وهي تراوده عن نفسها: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: ٢٥-٢٦).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ في كتاب (تأملات إيمانية): شَرَعَ يوسف عليه السلام في الهرب من هذا المكان، الذي حضره شيطان المرأة قطعًا للخلوة المحرمة، وتخلصًا من هذه المراودة الخطيرة، والفرار من أماكن السوء، من أعظم أسباب النجاة من السوء، ومفارقة أهل الفساد من أعظم أسباب الوقاية من الفساد، والمكان والصحبة من أخطر أسباب وقوع كثير من الناس في الجرائم والمعاصي، وهذه هي الفائدة التربوية العظيمة، لكل شاب يجد من أنواع الشهوات معروضًا أمامه، بل أحيانًا طالبًا له مراودًا له عن نفسه، كمراودة امرأة العزيز ليوسف، فلابد أن يبتعد عن أماكن الفساد، ويسابق إلى الباب هروبًا وفرارًا، كما فرّ يوسف بنفسه ودينه، وأن يفارق أهل المعاصي ولا يصحبهم، بل يجعلهم وراءه ظهريًا، ولا ينظر في وجوههم كما فعل يوسف، فأعطى ظهره للمرأة، حتى اضطرت أن تشق قميصه من الخلف حين جذبته إليها، والنظر في وجوه أهل السوء والفحشاء بلاء وعذاب، حتى ولو كان الإنسان مضطرًا كارهًا، كما دعت أمّ جريج عليه لمّا أهمل إجابتها فقالت: «**اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات**»[1].

---

(١) متفق عليه.

فاستجاب الله دعاءها، فاضطر إلى النظر في وجه البغي من بغايا بني إسرائيل، التي أرادت إغواءه فعجزت، فأمكنت نفسها من راعى غنم حتى حملت منه سفاحًا، وولدت وادّعت أنّ جريج هو الذي وقع بها، فكان نظره إليها لتبرئة نفسه من هذه الجريمة الشنيعة، وقد برأه الله بإنطاق الصبي الرضيع بأنّ أباه الراعي فلان، فإذا كان عقوبةً للعبد أن ينظر في وجوه أهل الفساد مضطرًا كارهًا، فكيف بمن يقبل على ذلك محبًا راغبًا مختارًا، كما ينظر الناظرون إلى وسائل الإفساد من سينما ومسرح وتلفاز وفيديو ومجلات، إنّ هذا النظر ينبت مرض الشهوة المحرمة في قلب العبد، وصحبته لهؤلاء ـ ولو على صفحات المجلات أو شاشات السينما والتلفاز ـ لهو من أعظم أسباب مواقعة الفواحش. فاستبق ـ أيها الشاب ـ إلى الباب خارجًا عن هذه الأماكن، واجعل أهلها وراءك ظهريًا، ولو جذبوك من قميصك، وانج بنفسك كما نجا يوسف ﷺ، وفر منهم فرارك من الأسد، فهم والله شرٌ من المجذوم، الذي أمرك نبيك ﷺ: **«أن تفر منه فرارك من الأسد»**.

وتأمل في جذب المرأة قميص يوسف من خلفه، حتى قدّته ـ أي: شقته وقطعته ـ، تحاول شدّه إليها لتنال الشهوة المحرمة، كيف أعمتها الشهوة إلى هذا الحدّ من الطلب، مع أن فطرة المرأة تأبى مثل هذا لو كانت سوية، ولكن كما قيل: حبك الشيء يُعمي ويُصم، وتمزيق القميص دليل على أنها جذبة شديدة جدًا، فقد فقدت المرأة صوابها، وغاب عنها عقلها، بل وحسها، فإنّ زوجها قد كان بالباب، ولاشك أنّ دخول عزيز مصر إلى قصره، يكون معه الجلبة المعهودة في دخول العظماء والكبراء إلى قصورهم، ومع ذلك لم تشعر بشيء من مقدمات وصوله؛ لأن الشهوة كانت مسيطرة.

فعلى العاقل أن لا يترك نفسه إلى هذا الحد، الذي يزول معه العقل والحس، ويرتكب ما يُخالف الفطرة السوية، والحق أنّ العشق داء عضال، يوصل إلى هذا الخلل، وعلاجه إنما هو بمنع مقدماته، التي أولها النظر، ثم الخواطر، ثم الكلام ثمّ الخلوة ثم ما بعد ذلك، فمنع المقدمات والخواطر أيسر بكثير من منع ما بعدها.

٩ ـ قال تعالى مخاطبًا نبيّه ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف:١٠٣-١٠٤).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتابه القيم (تأملات إيمانية): قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، يتضمن قضية عظيمة الأهمية بالنسبة إلى فهم المؤمن والداعي، خصوصًا لحقيقة هذا الدين وحدود دعوته، ألا وهي قضية عالمية الإسلام، فهو قد جاء ليعم الأرض كلها، دعوة في البداية وسلطانًا في النهاية، وقد بعث محمد ﷺ رحمةً للعالمين، ولابد أنّ تصل الرحمة إلى جميع العالم، لا تختص بقومٍ دون قومٍ، ولا بلدٍ دون بلدٍ، فليس هناك (شئون داخلية) للأمم لا دخل للمسلمين بها، إنّ دعوة الإسلام هي دعوة النوع الإنساني بأسره، ورسولهم محمد ﷺ رسول إلى الإنس والجن: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨).

وأرض الإسلام التي يجب على المسلمين أن يحرروها من احتلال عبّاد الطواغيت هي الكرة الأرضية كلها، إنّ الأرض أرض الله، والخلق كلهم عباد الله، فلابد أن يَعْلوهم شرعه ودينه، فمن شاء بعد ذلك أن يكفر فلا يحق له أن يفرض كفره على غيره، وعلى أجيالٍ من البشر قادمة، يعمى عليها الحق،

ويلبس بالباطل والخداع الذي يسمى الإعلام، وما هو إلا (تجهيل) وتزوير، حتى يرى الناس الحق باطلاً، والنور ظلامًا، وأشقى طرق الحياة هي الطريقة المثلى كما قالها آل فرعون: ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ (طه:٦٣)، ولكي يحجب عن الخلق نور الهدى الذي جاء به محمد ﷺ ، وليعيش البشر أسوأ ـ والله ـ من حياة البهائم، بل حياة الشياطين، فهل من ظلمٍ للبشرية أشد من أن تترك هكذا محرومة من هذا الدين إذا تصور أصحابه ـ وليسوا حينئذ بأصحابه حقًا ـ أنّ دعوتهم قاصرة على أممهم وبلادهم، الأمر الذي لو وجد عند الصحابة ﷺ لما دخل الناس في الإسلام؟

إنّ عالمية الدعوة نابعةٌ من حقيقة الغاية التي خلق من أجلها البشر، وهي عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)، فلا يجوز أن يُحرم الإنسان من هذا الذكر، الذي يتذكر به العالم حقيقة الحياة والوجود والبداية والنهاية، وكيف يعيش الحياة التي أرادها خالقها ومبدعها سبحانه.

إنّ عالمية دعوة الإنسان نابعةٌ من حقيقة القرآن، وأنه الكتاب الذي أنزل الله ليحكم بين الناس ـ كل الناس ـ فيما اختلفوا، وأنه النور المبين الذي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

إنّ حق البشرية في الرحمة المهداة ﷺ حقٌ متساوٍ لكل إنسان، مكفولٌ لكل طلبه، مثل الهواء والماء وضوء الشمس، لأنهم لو حرموا هذه الأشياء لضاعت عليهم حياة أبدانهم، وهي حياة يسبقها الفناء ويعقبها الفناء، وأما إذا حرموا من الوحي الذي جاء به محمد ﷺ خاتم الأنبياء، ضاعت عليهم

حياتهم الأبدية التي هي حقيقة الحياة ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر:٢٤)، فضلاً عن ضياع سعادتهم في حياتهم الدنيا، وحصول الشقاء والتعاسة من كل وجه، ولو نالوا كل الشهوات.

وإذا استحضرنا أن سورة يوسف من السور المكية التي نزلت على رسول الله ﷺ وهو محصور بمكة، والدعوة لم تجد بعد الأرض التي تؤوي أصحابها بها، بل هم قليلٌ مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، ومع هذا تنزل هذه الآية، وأمثالها في القرآن كثير، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص:٨٧-٨٨)، في سورة ص وهي مكية، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم:٥٢)، في سورة القلم وهي مكية من أوائل ما نزل ـ نزلت بعد المدثر ـ.

وقوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، في سورة الأنبياء وهي مكية، وكذا قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، في سورة الأعراف وهي مكية، وإذا استحضرنا ذلك كله علمنا أن هذه القضية بُيِّنت أوضح بيان من بداية الدعوة، وفي أول طريقها المحفوف بالمكاره، بغض النظر عن إمكانية التطبيق في هذا الوقت، إنها لابد أن تكون واضحة في أنفس المؤمنين والدعاة، خصوصًا منذ البداية ليستعدّوا بالهمة العالية والعزيمة الصادقة على السير في الطريق الطويل، حتى ولو لم تكن وسائل السير وطرق تحقيق هذا الأمر ظاهرةً في الأفق.

إنّ هذه الأمة تُهيَّئ لتقود العالم بأسره، وللشهادة على الناس، فلابد أن يعرفوا دورهم وحجمهم الحقيقي، وحجم العبء الذي كلفوا به ليعدوا للأمر عدته، إنهم لو ظنّوا أنّ حدود دعوتهم ـ مثلاً ـ جزيرة العرب، لكانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، وكذلك لو ظن العاملون في العمل الإسلامي

اليوم أنّ دورهم هو ـ مثلاً ـ مسجدهم أو حيهم أو مدينتهم وقريتهم أو حتى إقليمهم، فستكون همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك.

ولكن إذا أيقنوا أنّ الإسلام هو ذكرٌ للعالمين، وأنّ دورهم في توصيله ـ نقيًا كما جاء به رسول الله ﷺ ـ إلى أهل الأرض كلهم، كانت همتهم وبالتالي سعيهم على قدر ذلك، إنّ هذا الفهم هو الذي جعل الصحابة ﷺ ينطلقون في المشارق والمغارب نشراً للإسلام، وجهاداً لإعلاء كلمة الله، وتعليمًا وتربيةً للأمم والشعوب حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وإنّ هذه الهمة التي جعلت مثل عقبة بن نافع يقف على شاطئ الأطلس بجواده[1]، ويدخل المحيط خطوات مبينًا رغبته في أن يخوض غمار هذا البحر المحيط، لو يعلم وراءه أرضًا ينشر فيها الإسلام ويجاهد في سبيل الله.

وهي التي جعلت مثل صلاح الدين بعد أن ينتصر على الصليبين يحدث نفسه ورفاقه أنّه ينوي أن يركب البحر ليصل إلى عمق بلد الفرنجة، ويجاهد في سبيل الله حتى لا يبقى أحدٌ يعبد غير الله إلا أسلم أو دفع الجزية، قد تكون الإمكانيات في بعض الأحوال تحول دون تطبيق ذلك، لكن لابد أن يظل الشعور بلزوم نشر الإسلام في العالمين كلهم وتذكيرهم جميعًا بكتاب الله حيًا في القلوب مُوَرَّثًا عبر الأجيال، فإنّ صراع المناهج والملل لا تحسمه القوة المادية، فإنّ موازين القوى تتغير في لحظات، وإنما يحسمه حال القلوب وعزمها وصدقها وثباتها ويقينها.

إنّ الانكسار الحقيقي الذي يريده الأعداء ليس هو كسر الجيوش والأفراد ولو وضعوهم في السجون وكبلوهم بالقيود، وإنما يريدون كسر النفوس والأفكار

---

(١) قال: «والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرضًا تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا».

والمعتقدات، وأن يركن أهل الإسلام إلى باطلهم، فينطفئ النور الذي يعمّهم فيحلّ الظلام الذي يريده الأعداء: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠)، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٢-٣٣).

١٠ ـ قال تعالى ذاكرًا دخول نبيّه يوسف عليه السلام السجن ومعه فتيان: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦).

قال الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ في كتاب (تأملات إيمانية): الرؤى في السجن لها شأن عجيب يعرفه من جرّب هذا وشهد وسمع تجربة الآخرين، فالسجن تجربة فريدة، وانتقال للروح والبدن، ومرحلة خاصة في حياة الإنسان، ومن رحمة الله بخلقه ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أنه يؤنس وحشة قلوبهم في السجن بما يرون من رؤى، كأنّ الأرواح تقفز بها خارج الجدران الضيقة وتتجاوز حدود المكان إلى أفق الحياة الأوسع، وكما ذكرنا أن الحرية حريتان والحبس حبسان، حرية للروح والبدن، وحبس للروح والبدن، فلو قَدَرَ الناس على حبس البدن، فلا يقدرون على حبس الروح، ومع الإيمان والصدق يكون للرؤى شأن آخر مع أنّ الرؤيا قد يراها كافر، وتكون صادقة لكن مع الإيمان الشأن يختلف، وفي آخر الزمان لا تكاد تخطئ رؤيا المؤمن الصادق، كما في حديث أبي هريرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا تقارب الزمان لم تكد تخطىء رؤيا المؤمن**»، وهذا من الرحمة الخاصة بعباد الله المؤمنين، وهو سبحانه أرحم الراحمين.

وقال في موضع آخر في نفس كتابه المذكور: وسبحان الله كيف كان غياب يوسف عن أبيه، سببًا في رفعته وملكه، وكيف كان حفظ الله له في غيابه عن

أبيه، أعظم من حفظه له في كنفه، وكيف كانت تربية الله له بعيداً عن توجيهات أبيه، وأكمل وأتم مما كان يريده يعقوب له ويقدر عليه، فليفوض العبد أمره لربه، وليتوكل عليه في حفظ نفسه وأهله، وولده وماله وشأنه كله، وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة، فهو خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، فما يظنه العبد ضررًا، يجعل الله فيه أعظم النفع، وما يحسبه نقصًا، يجعله الله سببًا للكمال، وما يراه ضياعًا أو سببًا للضياع، يجعله الله حفظًا وسببًا له، فلنحسن الظن بالله فهو أكرم الأكرمين، وهو لا يسوء عبده المؤمن إلا ليَسُرُّه، وما يحرمه إلا ليعطيه، وما يبتليه إلا ليكرمه ويعافيه.

١١ - قال تعالى عن نعيم أهل الجنة: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ (الإنسان: ١٩-٢٠)، ففيها أن المرء كلما نظر وقلّب بصره في الجنة وجد نعيمًا وملكًا كبيرًا، فكلُّ أهل الجنّة ملوك، فالآخرة ملكها واسع يسع الجميع، ولذا لا حسد فيها ولا حقد، بخلاف الدنيا فهي ضيّقة على أهلها، لا تسع لملك الجميع، إذا ملك فيها أحدٌ شيئًا نقص من ملك غيره، ولا يزال ملك الإنسان فيها ينقص سواء عمره أو ماله أو صحته أو قوته أو أهله، ، فجديرٌ بالعاقل أن يزهد فيها وأن يتطلع للملك الحقيقي الذي لا يزول، فهذا أولى ما يتنافس من أجل تحصيله، أفاده الشيخ ياسر برهامي بمعناه في أحد المحاضرات.

١٢ - قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ (المزمل: ١-٦)، وفيها بيان حاجة الداعية الأساسية إلى قيام الليل لما فيه من تثبيت وإعانة على مهام الدعوة الثقيلة خاصةً مع ما يلقونه من الأذى والتهديد والإرجاف والتخويف، بجانب حاجتهم لمعونة الله وتوفيقه

في قبول دعوتهم عند النّاس، فمتى سيطلبون التمكين ويدعون بهداية النّاس إن لم يفعلوا ذلك بالسحر، فعجبًا لدعاةٍ لا يقومون الليل، وأعجب منه أن يُقال لهم: «لا بأس للداعية ألاّ يقوم بالليل»!

١٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ (ق:٣١-٣٢)، أي: لكل حافظٍ لذنوبه، ففيه أهمية تذكر الذنوب وعدم نسيانها، وملازمة ذلك للعبد في طريق توبته إلى الله لئلا يرضى عن نفسه فيهلك، فدوام تذكر الذنوب من أكبر أسباب علاج العجب في قلب العبد، وكذا من أكبر أسباب اجتهاده في الطاعة، ففارقٌ كبير بين اجتهاد من يرى نفسه محسنًا وبين اجتهاد من يرى نفسه مخطئًا هالكًا إن لم يتداركه ربه بالرحمة.

وقيل الحفيظ هو المحافظ على التوبة، فلا ينكثها وهو أيضًا معنىً صحيح.

١٤ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد:٢٥)، قوله: ﴿ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم ﴾، جعل الكفر ردة وتخلفًا ورجعيةً، وهو كذلك، كما أنّ الإيمان تقدّم ورقيّ: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد:١٧)، ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ (مريم:٨٣)، والإيمان كذلك إنسانية كما أنّ الكفر بهيمية قال تعالى: ﴿ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٣)، فجعل النّاس هم المؤمنون، أفاده العلامة العثيمين ـ رحمه الله ـ بمعناه مع تصرفٍ يسيرٍ منّي.

١٥ ـ قال تعالى فيما يخاطب به عباده المؤمنين: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف:٦٨)، فقال: ﴿ الْيَوْمَ ﴾، ليدل على أنّهم كانوا قبل ذلك مهددين مستضعفين، وهكذا أهل الإيمان في كل زمنٍ قلةٌ، يهددهم أهل الباطل ويخوفونهم إلا أنهم لتوكلّهم على الله لا يعبأون بذلك حتى يوافوا الله على

الإيمان لينالوا الأمان يوم الأمان الحقيقي الذي من لم يأمن فيه، فلا فائدة فيما حصّل في الدنيا، ولو نال كلّ ما فيها، ومن أمن فيه، فلا بأس بما نال في الدنيا من تهديد وتخويف، ولو عاش طريدًا!!

١٦ ـ قال تعالى عن عبده ورسوله إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات:٩٩-١٠٢)، فقال لابنه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، وفيها تربية للأطفال منذ الصغر على التعقل والمشاركة بالرأي في الأمور الهامة وتعويدهم على المشاورة والتشاور، ففي ذلك تدريبٌ لهم، وكذا اختبار لحسن عقلهم من عدمه، فيمكن التقويم من البداية، أفاده الشيخ أبو إسحاق الجويني بمعناه. وقد قُرِئَ قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ﴾، قراءة أخرى: (تُري) كأنه يقول له: (أي ماذا ستري الله من نفسك)، فعلى المؤمن أن يستحضر أنّه عند كل ابتلاء واختبار إنّما يري الله ماذا سيصنع، فليحرص على ألاّ يسقط من عين الله، وعلى كمال المنزلة عنده سبحانه.

١٧ ـ قال تعالى نقلاً لما قاله المرسل في سورة يس لقومهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (يس:١٦-١٧)، فقوله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، يشمل البيان لما يلزمهم، ويشمل كذلك تسليتهم وتعزيتهم لأنفسهم، فالمؤمن الصادق في دعوته يحزن أشدّ الحزن لفوات صلاح وهداية من يدعوا، فإذا استحضر أنّه قد أدّى ما عليه، وأنّ ضلال قومه بتقدير الله ومشيئته تسلّى وتصبّر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي

الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٤-٦)، هذه هي السورة الوحيدة التي ذكر فيها قصة رضاع موسى عليه السلام وذكر فيها إرادته سبحانه لتمكين المؤمنين من بني إسرائيل إشارةً إلى أنّ التمكين يحتاج إلى إعداد جيلٍ لذلك منذ فترة الرضاع - أفاده الشيخ أبو إسحاق الجويني - حفظه الله -.

١٨ - قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ۝ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢١٤-٢١٦)، فتأمل كيف أمرالله رسوله الكريم بخفض الجناح لمن اتبعه من المؤمنين بعد أمره له بإنذار عشيرته الأقربين، وذلك ليبين أنَّ الرحمة والبر تكون بالأتبع لسُنَّة رسولهم صلى الله عليه وسلم.

١٩ - قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ (الفرقان: ٤٨-٤٩)، فيه بيان أثر الماء النازل من السماء في إحياء الأرض الميتة والإبقاء على حياة الخلق من إنسان وحيوان بسقياهم، وكذلك وحي الله يحيي الله به القلوب الميتة، ويحفظ به قلوب المؤمنين من الموت بعد الحياة.

٢٠ - قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ۝ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: ٤١-٤٢)، فتأملوا - عباد الله صبر المشركين على باطلهم، فأنتم أولى بالصبر على حقكم منهم على باطلهم، ولو تأمّل المرء هذه الحياة مقارنةً بالآخرة سهل عليه الصبر على الحق - ولو ناله بسببه ما ناله من الأذى - فالكل سيموت ويرجع إلى الله، والحياة الحقيقية في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ

بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر: ٢٣-٢٤)، فسبحان الله، لو تأمل المنافقون والمحاربون للدعاة هذا المعنى، وأنهم مهما عاشوا، فلا تصلح حياتهم للمقارنة بالآخرة أصلاً!! وسبحان الله، كيف يهون على المؤمن كل بلاء في سبيل دينه إذا علم بانقطاع الحياة عن قريب، وبأنّ الحياة الحقيقية في الآخرة حيث لا تعب ولا نصب، وحيث النعيم الدائم والخلود الأبدي، وحيث مرافقة الصالحين والنبيين والشهداء وحسن أولئك رفيقًا، واسمع قوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (١٣) لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً (١٤) قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ﴾ (الفرقان: ١١-١٦)، وتأمّل في قوله تعالى: ﴿ لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾، وقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ﴾، وقارن بين الحالين، والله المستعان.

٢١ ـ قال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج: ٧٨)، فقال: ﴿ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾، مع أنه أبو الأنبياء، ولكن انتسب المسلمون إليه بسبب إسلامهم، فياله من شرف نشهد الله أننا نعتز به، رضينا بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، وبملة إبراهيم لنا ملةً، فهذا ما ينبغي أن ينتسب إليه المسلمون ويتفاخروا، لا بأجدادهم الفراعنة ولا الآشوريين ولا غيرهم. وفي السلسلة الصحيحة: «**انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام، فقال أحدهم: أنا فلان بن فلان بن فلان حتى عدّ تسعة آباء، فمن أنت لا أمّ لك؟ فقال: «أنا فلان بن فلان بن الإسلام** (لم يكمل النسب لكفر الأجداد، فلم ينتسب إليهم)، **فأوحى الله إلى موسى أن قل**

للرجلين: أمّا الأول فقد عدّ تسعة آباء هو عاشرهم في النار (لكفرهم)، وأما الثاني: فقد عدّ أبوين هو ثالثهم في الجنة»، وجلس سلمان الفارسي رضي الله عنه مع قومٍ فانتسبوا (قال كل واحدٍ منهم نسبه)، فلما جاء الدور عليه قال: **«وأنا سلمان بن الإسلام»**، فلمّا بلغ ذلك عمر رضي الله عنه بكى، وقال: **«وأنا عمر بن الإسلام»**:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا ما افتخروا بقيسٍ أو تميم

وقال صلى الله عليه وسلم: **«لينتهين أقوامٌ عن فخرهم بآباءٍ هم من جُثى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان** ـ حيوان يأكل النتن ـ».

٢٢ ـ قال تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ (طه: ١٣١)، قيل: رزق ربك هو الإيمان، وقيل هو الجنة، وعلى كلٍ فقد سمّاه سبحانه رزقًا، فلابد من السعي في أسباب نيله للحصول عليه كما أنّه لابد من السعي في أسباب رزق الدنيا من أجل الحصول عليها، كما أنّه يدل على أنه مكتوب ومقدر لكل مؤمن نصيبه من رزق الإيمان والجنّة، فلا داعٍ للحسد والحقد على من زاده الله بسطةً في الإيمان، وأمّا الغبطة (تمني الخير دون إرادة زواله من عند صاحبه)، فهو مشروعٌ في الخير.

٢٣ ـ قال تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ (طه: ٥)، وكثيرًا ما يأتي ذكر اسم الرحمن مع الاستواء على العرش؛ لأن العرش محيط بكل المخلوقات، وقد وسعها، والرحمة كذلك محيطة بالخلق، وقد وسعتهم كما قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ (الأعراف: ١٥٦)، فناسب أن يقول ﴿**الرَّحْمَٰنُ**﴾، ليفيد أنه سبحانه استوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، أفاده ابن القيم ـ رحمه الله ـ بمعناه.

٢٤ ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (الإسراء: ٧١)، وفيها شرفٌ عظيم لأهل الحديث سواء أهل العلم بالرجال وأسانيد الأحاديث، أو أهل العلم والعمل بالسُّنَّة فإمامهم الذي يقتدون به، ويتبعون هديه هو الرسول ﷺ، وليس شيخ الطريقة الفلاني، ولا الأستاذ العلاني.

٢٥ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩)، وفيها بيان لمقصود إرسال الله للآيات والبلايا من زلازل وبراكين وفيضانات وأعاصير وخسوفٍ وكسوفٍ، فكل ذلك لتخويف النّاس ليعودوا إلى منهج الله وشرعه، وليس كما يلّبس أهل الإعلام على الناس من جعلها ظواهر طبيعية تحدث بسبب المدّ والجزر، وغيرها من أسباب يعلّقون الحدوث بها، ليضلّ النّاس عن مراد الله.

٢٦ ـ قال تعالى نقلا لقول إبراهيم عليه السلام لما بُشِّر بالولد: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (الحجر: ٥٥-٥٦)، فيا أيها المبتدئ الناكص على عقبيه كلّما سلك طريق الهداية، لا تقنط من الثبات على الطريق، ويا أيها السالك لا تقنط من الوصول، ويا أيها المجاهد من أجل الوصول للخشوع والتدبر، لا تقنطوا، فمن سلك طريقًا فلابد أن يصل ـ ولو بعد حين ـ ومن مات قبل أن يصل كان من أهل الطريق.

٢٧ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (الرعد: ٣١)، فتأمل قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾، مع عدم قوله ﴿مَن﴾، بل قال: ﴿أَن

لَوْ﴾، ليضمنها معنى العلم، فكأنه قال (أفلم ييأس الذين آمنوا من أنفسهم في هداية الخلق ويعلموا أن لو يشاء الله لهدى النّاس جميعًا)، وهذا هو سبب التوفيق، أعني اليأس من النفس والثقة في الله وحده، فمن أراد التوفيق في هداية الخلق إلى الله، وهداية النفس على الصراط المستقيم، فليكمل يأسه من نفسه، ولتكمل ثقته في ربه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾، ولم يقل (الأمور)، إذ كلُّ ما في الكون خلق لأمرٍ واحد، وهو إقامة العبودية لله في الأرض، فكفر الكفار وصدّهم عن سبيل الله وغيرها من أعمالهم، إنّما هي بتقدير الله لخدمة أمر الدين، وذلك بما يُحدثه من تقويةٍ للإيمان في قلوب المؤمنين، وتمحيصهم وتمييز صفهم، وغيرها من الفوائد.

٢٨ ـ قال تعالى عمّا فعله عزيز مصر بأمر زوجته من سجن يوسف عليه السلام: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (يوسف: ٣٥)، فانظر كيف ضحت بيوسف مع أنه شغفها حبًا، وذلك لأن الحب الذي قام على غير أساس الدين، كاذب لا حقيقة له؛ ولذا كان أسهل شيءٍ عليها أن ضحت به من أجل عزة نفسها، فهي في الحقيقة لم تحبّه، وإنما كانت تحب نصيبها وحظها هي منه، وأمّا الحب في الله ولله ففيها يضحي المرء بنفسه من أجل أخيه خاصةً إذا كان في بقاء أخيه نفعٌ أكبر للمسلمين.

٢٩ ـ قال تعالى في معرض سياق قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١)، فتأمل كيف قال: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾، مع أنه ما زال صغيرًا، وذلك لأنّ أول التمكين هو

تمكين الدعاة في قلوب المدعوين؛ ولذا عدّ سبحانه تمكين حب يوسف من قلب عزيز مصر تمكينًا، أفاده الشيخ أبو إسحاق الحويني بمعناه.

٣٠ ـ قال تعالى نقلاً لقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ (هود: ٦٤)، فهذا جزاء من مسّ الناقة ـ المنسوبة إلى الله ـ بسوء، فكيف بمن آذى أولياء الله الداعيين إليه، وفي الحديث: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**».

٣١ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦)، فتأمل قوله: ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾، فمن كان عمله صالحًا.. فهو الموجود، ومن كان عمله طالحًا... فلا وجود له في الحقيقة، ألا فتنافسوا في العمل، فهو سرُّ وجودكم، ومقياس شرفكم.

وتأمل قوله: ﴿يَا نُوحُ﴾، أي: يا من نُحت على النّاس تدعوهم إلى الله وإلى توحيده، لا تسألن عن مشركٍ، ولو كان ولدك.

٣٢ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، فالنفس ملكٌ لله، ومن علم ذلك لم يعترض على ما يفعله الله به أوْ له، فهو ملكٌ لله، وكذا لم يغضب لنفسه إذا سلّط الله عليها مَنْ يؤذيها أو يغضبها، فهي ملكٌ لله، وله أن يفعل بها ما يشاء.

وكذا المال ملكٌ لله، ومن علم ذلك لم يجز له أن يبخل بالمال عن الجهات التي أمره مالكه أن يصرفه فيها، فهو مجرد خازن على المال، فإن اتبع أمر المالك

في الإنفاق وإلا أُخذ منه المال، ووهب لغيره، وهو كذلك أمينٌ على حفظه، فإن أنفقه فيما لا يصلح صرف إلى أمينٍ ليحفظه.

٣٣ ـ قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٩)، وفيها بيان أساس التربية الإيمانية، وهو جعل التقوى هي الأساس الذي يُبني عليه المرء ما يبرز فيه من علمٍ أو عبادة أو دعوةٍ، وأمّا من اشتغل بالعلم أو العبادة أو غيرهما، وآفات قلبه معه من حقدٍ وحسدٍ ورياء وعُجب وكذب، ولم يكن عنده وازعٌ من التقوى، فإنّ هذه الآفاتٍ تظهر فيما انشغل به ولا تعالج، فترى طلبة العلم يتحاسدون ويتنافسون على الشرف بين النّاس وحيازة الطلاب لديهم دون غيرهم، بحيث يشتد حزنهم وغضبهم وحقدهم إذا رأوا من يطلب عند غيرهم، وكذا العابد إذا رأي النّاس تمدح غيره أوتفضل غيره عليه حقد وحسد، وربما رآى بعمله أو أُعجب به إلى غير ذلك من الآفات، وليس بمجرد طلبه للعلم أو للعبادة تزول آفات النفس.

٣٤ ـ قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (التوبة: ٧٥-٧٦)، فتأمل قوله: ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾، ليعلم المكتسب للمال أنه فضل الله عليه، وليس بسبب جهده المحض، واجتهاده الشخصي.

وتأمل قوله: ﴿ فَلَمَّا ﴾، ولم يقل (فآتاهم) ليدل على أنه لابد من السعي في أسباب الرزق، مع الدعاء والتعلّق بفضل الله، فقوله: ﴿ فَلَمَّا ﴾، يدلّ على تأخر ذلك لارتباطه بطلب أسباب الرزق، وكذا ليدل على أنهم ألحوا وأكثروا، والله لا يجيبهم لعلمه بما سيصنعون، وكيف سيفسد حالهم، ولكنهم مصرون على الثقة من أنفسهم وصلاحها.

وفي جزمهم لأنفسهم بالصلاح بيان ما ينبغي أن يكون عليه العبد عند معاهدة ربه من خوف الخذلان، والتبرؤ من الحول والقوة إلاّ به، وأمّا الجزم والعجب بالنفس والثقة بها، فهي أسباب الخذلان.

٣٥ - قال تعالى لرسوله عن المشركين: ﴿ **وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال: ٧١)، ففيه أنّ الأعداء سواء من البشر أو من الجنّ الكافرين لا يتمكنون من العبد حتى يمكنهم الله منه، ولذا كان بعض السلف إذا عصى الله بكى لسقوط منزلته وهوانه على الله، فلولا أنّ الله تركه لعدوّه لما قدر عليه.

٣٦ - قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأنفال: ٢٧)، جعل المعاصي خيانةً لله ولرسوله، فالله قد خلق النفس للعبادة وشرفها، فمن دنس نفسه بالمعاصي فقد خان الله في الأمانة التي ائتمنه عليه، وكذا خان الرسول الذي حمّله أمانة العمل بما علّمه ﷺ إيّاه ليكون في ميزان حسنات العبد وينتفع به، كما أنّه بالمعصية يهدم لبنة في بناء الدين الذي حمّله الرسول أمانة العمل به وتبليغه لمّا قال: «**بلغوا عني ولو آية**».

٣٧ - قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ (الأنفال: ٣٣)، إخواني... أمانكم من العذاب في بقاء رسولكم، وفي الاستغفار، وقد مات رسولكم، فأكثروا بالله عليكم من الاستغفار إن أردتُم النجاة من العذاب، وفي الحديث: «**طوبى لعبدٍ وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً**».

٣٨ - قال تعالى: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ولم يقل (التائبين) لأن حقيقة شكر نعمة الإسلام هو الثبات عليه والتمسك به حتى الممات مهما كانت الفتن.

٣٩ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥)، قوله: ﴿ الشَّاكِرِينَ ﴾، يبين أيضًا أنّ حقيقة الشكر هي العمل للآخرة وطلب ثوابها، وجعلها أكبر الهمّ ومبلغ العلم.

٤٠ ـ قال تعالى لرسوله: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٢١)، قوله: ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾، يفيد كمال إيمان رسولنا ﷺ، فما كان أهله يشغلونه عن أمر الله، سواء الجهاد أو غيره.

٤١ ـ قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣)، قوله: ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ ﴾، فيه دليلٌ على أنّ القرآن نزل ليحكم بين النّاس في كل قضاياهم، لا ليتلوا وفقط، كما يزعم المنافقون.

٤٢ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ٥٤)، إخواني... كانت توبتهم بقتل أنفسهم، فهلاّ تبتم إلى الله بقتل الهوى وذبح فضول الشهوات إرضاءً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ!!

٤٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤-٥٥)، وفيه معنى لطيف، وهو أنّ المؤمن من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن أو النفس الأمّارة بالسوء، وأمّا الكافر فهو مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، أفاده ابن القيم بمعناه.

٤٤ ـ قال تعالى عن المؤمنين في الجنة: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ (ص: ٥٠-٥١)، فأخبر أنّ أبواب الجنة مفتحة بعد دخولهم فيها إشارةً إلى الأمن فيها، فهم لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا في الدنيا، وفيها كذلك إشارة إلى تصرفهم، وذهابهم وإيابهم وتبوئهم فيها حيث شاءوا، وكذا فيها إشارة إلى دخول الملائكة عليهم وورود الألطاف والتحف والهدايا عليهم من ربهم في كل حين، بخلاف الكفار، فإنّهم محبوسون في النار، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ (الهمزة: ٨-٩)، أفاده ابن القيم بمعناه.

٤٥ ـ قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (التكاثر: ١-٢)، فتأمّل كيف جعل وصولهم إلى غاية كل حي (أي موتهم ودخولهم المقابر) زائرين غيرمستوطنين، بل هم مستودعون إلى المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في هذه الدار، وهم في الطريق إليها؟ فهم عابروا سبيل إلى محل الزيارة ثم ينتقلون منها إلى المستقر ودار القرار، أفاده ابن القيم.

٤٦ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة: ٥٩)، فتأمل كيف قال: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾، ولم يقولوا (سيؤتينا الله ورسوله من فضله)، لأنّ إيتاء الله غير إيتاء رسوله، فإيتاء الله هو ابتداء المنّة والعطاء أصلاً، وأمّا إيتاء الرسول فهو إيصال ما خلقه الله من رزق وأمر بإعطائه، فعلى المؤمن أن يعلّق قلبه بالله وحده، فبيده وحده العطاء والمنع، والخفض والرفع.

الفصل الخامس

الآداب القرآنية



١ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله إخوة يوسف لأبيهم يعقوب ـ عليهما السلام ـ لمّا طلب منهم يوسف عليه السلام أن يأتوا معهم المرة القادمة بأخيهم بنيامين: ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (يوسف: ٦٣).

فقالوا أول ما قالوا: ﴿ مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾، مع أنّهم عادوا بكيلٍ وافٍ، وأنزلوا منزلاً كريمًا، ولكنها طريقتهم في عدم مراعاة أحاسيس الآخرين، وسوء تقدير الأمور، والاندفاع لتحقيق ما يريدون بسرعةٍ وتهورٍ وإلحاحٍ دون تقديرٍ للأمور، وكذا عدم الثقة في الله، وعدم الفرح به بل ذكر البلاء والغم والسوء والتشاؤم الدائم، وتأمّل قولهم: ﴿ مُنِعَ ﴾، مع أنّه سيُمنع إن لم يأتوا بأخيهم، ولكنهم أخبروا بالفعل الماضي عن المستقبل لتيقنهم بحصوله كأنه قد كان فعلاً ـ أفاده الشيخ ياسر برهامي ـ بمعناه، قلتُ: وفيه تنبيه على أن العبد ينبغي له أن يحسن الظنّ بالله ولا يسيء الظن به، فالله عند ظنّ عبده به، فينبغي له أن يكون توقع الخير من الله هو سمة أقواله وتصوراته.

٢ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله يوسف لرسول الملك لما طلب منه الخروج ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٥٠)، وفيه أدبٌ جمّ وخلقٌ رفيع من يوسف عليه السلام فلم يذكر حقيقة جريمة النسوة وهي المراودة بل قال: ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾، ولم يقل: (اللاتي راودنني عن نفسي)، بل أشار إلى ما يدل على إساءتهنّ بقوله:

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، دافعًا الملك للبحث ومعرفة الحقيقة دون أن يصرِّح هو بها ـ أفاده الشيخ ياسر برهامي ـ بمعناه.

٣ ـ قال تعالى ذاكرًا ما فعله يوسف بأبويه وإخوته لمّا دخلوا عليه مصر: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف:٩٩-١٠٠)، فتأمّل قول يوسف عليه السلام: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، ولم يقل (قد تحققت) مثلاً، وكذا قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾، فنسب الإحسان إليه سبحانه، وكذا قال: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، فنسب الإخراج إليه، ولم يقل (خرجت)، وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾، ففي ذلك الأدب مع الله بنسبة كل أفعال الخير إليه سبحانه، وعدم نسبة شيء منها إلى النفس، بل يُنسب الفضل والنعم لمالكها وخالقها ومسديها ـ سبحانه وتعالى ـ أفاده الشيخ ياسر برهامي بمعناه.

وتأمل كيف قال: ﴿نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، فنسب الخطأ إلى الشيطان وليس إلى إخوته لئلا يحرجهم أو يعنفهم بعد توبتهم، ووعده لهم بعدم التثريب عليهم.

٤ ـ قال تعالى ذاكرًا قول عبده يوسف عليه السلام لما تمت عليه النعمة واجتمع بأبويه وإخوته: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١)، وفيه أدب المؤمن إذا غمرته النعم، وهو تذكر النعمة الكبرى، والتضرع إلى الله بالثبات عليها، وهي نعمة الإسلام الذي يفتح للعبد باب نعمةٍ أخرى وهي نعمة مرافقة الصالحين، لئلا يفسد عليه قلبه.

كما أنّه يلاحظ التواضع والأدب مع الله حيث قال: ﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، التي تدل على التبعيض ولم يقل (تأويل الأحاديث) مع إصابته عليه السلام في تفسيره لكل ما عُرض عليه مما ذكر لنا في القرآن.

٥ ـ قال تعالى ذاكراً ما دار بين إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بشأن الرؤيا التي رآها إبراهيم بذبحه لإسماعيل: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢)، فقال: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾، مع عزمه الأكيد، ولكنه الأدب مع الله في التبرؤ من الحول والقوة إلا به، ومن عدم الركون إلى النفس والثقة فيها، ولو كان عزمُها أكيداً.

وتأمل كيف قال: ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، ليجعل نفسه ـ إذا صبر ـ قد أتى بما فعله غيره من الصالحين، مع أنّ صبره هذا صبرٌ عظيم يندر وجود مثله، ولكنّه التواضع، وعدم العجب والغرور بالنفس.

٦ ـ قال تعالى ذاكراً التزام أولاد يعقوب عليه السلام أمره لهم بعدم دخول مصر من بابٍ واحد: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٦٧-٦٨)، ولم يذكر سبحانه هذه الحاجة التي في نفس يعقوب، والتي قضاها، نعم ـ قال أكثر المفسرين هي خوف الحسد، ولكن نقول: لم يذكرها الله، فلا دليل على الجزم بذلك، وفي هذا كرمٌ من الله عظيم إذ أخفى ما في نفس عبده ونبيّه مراعاةً لسره وحفظاً لخاصته، فنحن أولى بهذا الخلق فيما بيننا.

٧ ـ قال تعالى ذاكرًا ما فعله يوسف عليه السلام لأخذ أخيه بنيامين: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (يوسف: ٧٠-٧٥).

فتأمل قول المنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وكذا قوله هو وأصحابه ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾، كيف كان لا كذب فيه، إذ قد سرقوا يوسف عليه السلام من أبيه وهو صغير؛ ولذا ساغ أن يقولوا ذلك دون أن يكونوا كاذبين.

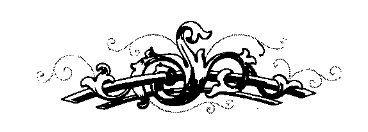
ثم تأمل كيف قال المنادي وأصحابه: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾، ولم يقل (سرقتم صواع الملك)، وكيف يسر الله أن يقول إخوة يوسف: ﴿جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾، ولم يقولوا (من سرقه) ليكونوا في أمر المعاريض على حذر، فالأصل فيها الترك إلاّ لمصلحة راجحة مع توقِّي الكذب الصريح ـ ولو تلفظًا ـ واستخدام الكلام الذي يحتمل الوجهين، وينوي المرء الوجه الصحيح، لئلا يكون قد كذب ولو كان فيما فيه مصلحة، وأما عند عدم وجود مصلحة فلا يجوز التعريض بحال.

٨ ـ قال تعالى ذاكرًا ما قاله يعقوب عليه السلام لبنيه ليبدد ظلمات يأسهم لما فقدوا أخويهم ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، فيه خطأ قول القائل (هذا مرضٌ ميئوسٌ منه)، فإنه لا يأس من رحمة الله، نعم ـ يقصد القائل ـ في الغالب ـ ضعف احتمال الشفاء منه، ولكنّ الآية تدل ـ والله أعلم ـ على أنه لا ينبغي أن نقول هذا، وقد قال رسولنا صلى الله عليه وسلم: «**ما أنزل الله داء إلا وأنزل له دواءً علِمَه مَنْ علمه وجَهِلَه مَنْ جهله**»، وأما من خالط قلبه اليأس والقنوط فهو على خطرٍ عظيم ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن

رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)، ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر:٥٦).

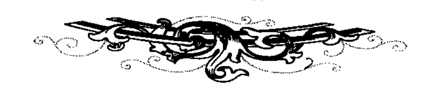
٩ - قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر:٨٨)، وفيه أدب العالم والإمام الذي يلي أمور النّاس، وكذا كلّ رفيع المنزلة، ما ينبغي أن يكون عليه كل هؤلاء من التواضع للمؤمنين وخفض جناح عزته لهم، وتأمّل قوله: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، ليدلَّ على جواز التكبر والتعالي على الكفار والمجرمين.

١٠ - قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ (الذاريات:٢٤-٢٥)، فتأمل قوله: ﴿سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ولم يقل (إني أنكركم) لئلا يواجههم بالخشونة والتنفير، وهكذا المؤمن المؤدب رفيع الأخلاق، وتأمّل قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾، ولم يذكر استئذانًا، وفي هذا دليلٌ على أنّه ﷺ قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم، فصار منزله مضيفةً مطروقًا لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، وهذا غاية ما يكون من الكرم، أفاده ابن القيم بمعناه.



الفصـل السادس

الكنوز في القسم القرآني



١ ـ قال تعـالى: ﴿ كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ (المدثر: ٣٢-٣٧)، أقسم سبـحانه بالقمـر الذي يظهر أول الليل ثمّ لا تزال ظلمـة الليل تزداد وتتكامل ثمّ يدبر الليل ويأتي الصبح بإسـفاره ليضيء الطريق، يقسم سـبحانه بذلك على أنّ إنزال القرآن وبعـثة رسولنا ﷺ أمـرٌ كبيـر عظيم الشأن، ووجه العـلاقة بين المقسم بـه والمقسـم عليه. أنّ ظـلمة الشـرك لابد أن تدبر وتنتـهي ليـأتي للناس نـور التـوحيـد، وكمـا أنّ نور الفجـر لا يأتي حتـى تتكامل ظلمة الليل، فـإنّ السـاعة التي يظهـر فيها الفجـر هي الساعة التي تلي أشدّ ساعـات الليل ظلمة، فكذلك الشرك لمّا عمّ الأرض، ومـات كلّ من يحمل الخيـر والحق من بقايا أهل الكتاب بعث الله رسـولنا ﷺ، وكما أنّ نور الفجـر ينتشر شيـئًا فشيـئًا حتى يظهر الإسفـار، فكذلك نور التوحيد، وتأمّل كيف قال سـبحانه: ﴿ وَالْقَمَرِ ﴾، ليدلّ على أنّه ـ وإن قدّر ـ وجود ظلمة وليل الشرك ـ إلا أنّه لا يخلي الكون من قمرٍ يضيء للناس في ظلمة الليل، ولمّا كانت قوة إضاءة القمر تختلف من وقتٍ لآخر، فكذلك نور الحق الذي يوجده الله وسط ظلمـة الشرك، ولما كانت إضاءة القمر أقلّ من إضاءة الإسفـار ناسب أن يوصف نور أتباع الرسل الذين يحملون التوحيد من بعدهم بالقمر، بينما يوصف نور الرسالة بالإسفار.

٢ ـ قال تعالى: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي

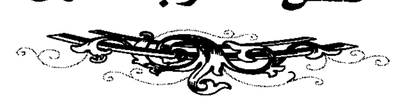
يُوعَدُونَ﴾ (المعارج: ٣٠-٤٢)، يقسم سبحانه بالمشارق والمغارب (على ما قيل من اكتشاف شموس في الفضاء لكلٍ واحدةٍ فيها مشرق ومغرب)، يقسم بذلك سبحانه على قدرته على أن يستبدل العصاة بقومٍ آخرين خيرًا منهم، ووجه العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه: أنّ الذي بث في الكون بقدرته وعظمته شموسًا وأقمارًا قادرٌ على أن ينشئ ما يشاء ويستخلف من يشاء بمن يشاء، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر: ٥٧).

وتأمّل كيف قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾، وختم بها الآية ثمّ ابتدأ آيةً أخرى بقوله: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، وهذه دقة بالغة؛ إذ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾، وختام الآية بذلك دليلٌ على قدرته العامّة الشاملة لكل شيء ثمّ قوله: ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، بيان لشيء مما هو قادرٌ عليه، بخلاف ما لو جعلها آيةً واحدةً لكانت دليلاً على قدرته على إنشاء قومٍ آخرين فقط، فأكرم بكلام ربي الأعلى!!



الفصـل السابع

حسن أسلوب القرآن



١ ـ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢٨-٢٩)، فقال: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ ﴾، ولم يقل (ليعلم)، ليضمنها نفي الظنّ، فيكون المعنى (لئلا يظن أهل الكتاب أنّ لهم قدرةً على شيءٍ من فـضل الله، وليعلموا أنّ الأمر كله بيده سبحانه، وذلك أكمل في الدلالة حـتى أنّه يقول لهم (لا تظنّوا حتى مجرد الظنّ أنّ لكم قدرةً على شيءٍ من فضل الله).

٢ ـ قال تعـالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٧٨)، فقـال: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾، ولم يقل (تبارك ربك)، ليـدلّ على كثرة الخير والـبركة التي تحِلّ بذكر اسمـه سبحانه، فكيف بالخيـر الذي يوجده ويخلقه سبحانه!! فـتبارك ربي، وكثر خيره وجوده، وهو أكرم من أعطى سبحانه.

فائدة: وقد وردت أحـاديث كثيرة صـحيحة تفـيد البركة التي تحِلّ، والخـير الذي يحِلّ بذكر اسمـه سبحانه، فقد صحّ أنّ المرء إذا ذكـر الله عند جماع أهله وقال: «**بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، وقدّر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً**»، وكذا صحّ أنّ المرء إذا سمّى الله عند دخـول الخلاء سُترت عورته عـن أعين الجن، وكذا صحّ أنّ العـبد إذا ذكر الله عـند دخول بيتـه وعند الطعام قال الشيطان لرفاقه لا مبيت لكم ولا عشاء، وكذا صحّ أن العبد إذا أغلق

مفتوحًا وغطى مكشوفًا وذكر الله لم يستطع الشيطان أن يتسلط على ما ذُكر اسم الله عليه، وكذا صحّ أنه إذا خرج العبد من بيته وقال بسم الله، توكلتُ على الله، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله قيل له هديت وكفيت ووقيت وتجنبته الشياطين، فتبارك اسم ربي ذي الجلال والإكرام.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٦-٢٧)، فقال: ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾، ليعود على الوجه نفسه، ولم يقل (ذي الجلال والإكرام)، فإذا كان وجه ربي موصوفًا بالجلال والإكرام، فذاته أولى، وكانت العرب تعرف الكرم والشرف من الوجوه، ولله المثل الأعلى، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فائدة: ورد في الأحاديث الصحيحة ما يدل على جلالة وجه ربي ـ عزَّ وجلَّ ـ وكرمه، فمن جلالته أنّه لا يُسئل به أمور الدنيا، ولا يُرد من سأل به ففي السلسلة الصحيحة: «**ملعون من سأل بوجه الله** ـ أي أمور الدنيا ـ **وملعون من سئل بوجه الله ولم يعط**»، ولجلالته نهى رسولنا أن يضرب ابن آدم على وجهه ـ ولو كان كافرًا ـ لأنّ الله خلق آدم وشرّفه بالوجه كما أنّ له سبحانه وجهًا، نعم ـ وجه الله على ما يليق به، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولكن لا ينبغي ذلك لشرف وجه آدم الذي خلقه الله بيده، وأمّا قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ (محمد:٢٧)، فإنه فعل الملائكة، وأمّا نحن فلا يستثنى من تحريم ضرب الكافر على وجهه إلاّ ما كان لضرورة القتال.

ولكرم وجهه سبحانه لا يعذب من نظر إليه بوجهه وضحك إليه، ففي السلسلة الصحيحة: «**وإذا ضحك الله إلى عبدٍ لم يعذبه**».

٤ ـ قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ (محمد:١٤)، فقال: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، بالمفرد، بينما قال: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، بالجمع، وذلك لأنّ تزيين سوء العمل سمة مشتركة في كثيرٍ من الضالين فناسب إفراده، وأمّا الأهواء المتبعة فمختلفة اختلافًا كثيرًا، فناسب ذكرها بالجمع.

٥ ـ قال تعالى مخبرًا عمّا دعاه به موسى عليه السلام لما أمره بالذهاب إلى فرعون: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (طه:٢٥-٢٨)، فجعل قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، في آية، وقوله: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، في بداية آية أخرى، وذلك ليدلّ على أنّ الطلب الأول مطلوبٌ لأغراضٍ كثيرة، ولكن أهمها ما جعله في الآية الثانية، ولو كانت في آيةٍ واحدة لفهم أنّ الغرض الوحيد هو أن يفقه النّاس قوله، وفي ذلك كمال أدب موسى عليه السلام، إذ الظاهر من طلبه لحلّ عقدة لسانه أنّه أراد ألاّ يعاب مع أغراضٍ أخرى ربما، كانت لحظ النفس مما أباحه الله، فلم يصرِّح بطلب حظ نفسه بل صرّح بما يعلم الله من قلبه أنّه هو أهمّ أغراضه من دعائه، وهو مصلحة دعوة النّاس، فصلوات ربي وتسليماته على رسله، أكمل خلق الله.

٦ ـ قال تعالى نقلاً لقول المجرمين الذين كفروا برسولنا صلى الله عليه وسلم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الحجر:٧)، لم يقل (لولا تأتينا)، ليضمنها معنى النفي فكأنهم قالوا (لو أنك ما تأتينا لآمنّا بك، فائتنا بها إن كنت من الصادقين)، فقال سبحانه: ﴿لَّوْ مَا﴾، اختصارًا ليدلّ ما حذف من الكلام.

٧ ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٤)، فقال: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾، ولم يقل (حسبك ومن اتبعك الله) مع أنّ معناها (أنّ الله هو حسبك يا محمد أنت ومن اتبعك من المؤمنين)، فلم يقل

ذلك لأنّ كفـاية الله لرسوله أكـمـل وأشمل من كفـايته لمن اتبـعه من المؤمنين، ففرّق بينهما.

٨ ـ قال تعـالى: ﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١)، فتأمل قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾، ولم يقل (فإنه لفسق)، ليبين أنّ لهذا النهي حكمًا كثيرة وبامتثاله تتحـقق مصالحٌ كثـيرة، وبتركه تتـحقق مفاسـد كثيرة، ثمّ قـد نهاكم ربكم عنه فالواجب الامتـثال، فقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾، أي: وفوق ذلك هو خروجٌ عن أمر الله وطاعته، بخلاف قوله: (فإنّه لفسق)، فإنّه لا يفيد ذلك.

٩ ـ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران: ٣٥-٣٦)، فقال: ﴿ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾، ولم تقل (أعيذهـا وذريتها بك)، وذلك لأن عيسى الذي هو ذرية مريم رسول، فـإعاذته من الشيطان أكمل، بينما هي على القـول الذي يؤيده ظاهر هذه الآية ولية، وحـتى على القول بنبـوتها، فحفظه من تسلط الشيطان ـ وهو من أولي العزم من الرسل ـ أكمل بلا شك.

١٠ ـ قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٢٠)، فقال: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾، ولم يقل (أسلمت أنا ومن ابتعن وجـوهنا لله)، وذلك لأنّ إسلام رسـولنا وجهه لله واسـتسلامـه لأمر الله وحكمه أكمـل وأعظم من استسلام أتبـاعه ـ ولو كانت الصحابـة ـ فأكرِم بكلام ربي العظيم.

١١ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (التوبة: ٥٩)، فتأمل كيف قال: ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾، ولم يقولوا (سيؤتينا الله ورسوله من فضله)، لأنّ إيتاء الله غير إيتاء رسوله، فإيتاء الله هو ابتداء المنّة والعطاء أصلاً، وأما إيتاء الرسول فهو إيصال ما خلقه الله من رزق وأمر بإعطائه، فأكرم بحلاوة القرآن.

١٢ ـ قال تعالى: ذاكرًا ما دعاه به موسى عليه السلام لَمَّا أمره بالذهاب إلى فرعون: ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي ﴾ (طه: ٢٩- ٣٠)، فجعلهما سبحانه في آيتيه، ليبين أدب موسى عليه السلام في دعائه حيث دعا وسأل الله أن يجعل له معينًا من أهله ثمّ سأل ذلك لهارون، فكأنّه يقول لربه: (لو صلح لذلك)، بخلاف، لو كانتا آية واحدة، لكان فيها تحديدًا واقتراحًا على وجه الجزم ينافي كمال التفويض لله، وهكذا ينبغي للمؤمن إذا دعا ربه بما يظنّه خيرًا يفوّض أمره إلى ربه، ويسأله الخير دون أن يحدّد شيئًا معينًا على وجه الجزم.

١٣ ـ قال تعالى لرسوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المزمّل: ٢٠)، ولم يقل (أنك تقوم وطائفة من الذين معك أدنى من ثلثي الليل. . .)، وفي ذلك دقة بالغة؛ إذ رسولنا يقوم بمفرده، وكذلك أصحابه، كلٌ واحدٍ منهم يقوم بمفرده، هذا هو الأصل، فلو قال (تقوم وطائفة من الذين معك) لربما أوهمت قيامهم الليل في جماعة، وهذا لم يكن إلاّ في مرات قليلة، فالأصل انفراد كلُ واحدٍ بالقيام، إلاّ ما شرع له الاجتماع كالتراويح.

الفصل الثامن

الأدلـة القـرآنيـة



١ ـ قوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح:٧-٨)، قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، فيه دليلٌ على أنّ العبد لا يقدم على العبادة حتى يفرِّغ باله من المشاغل والملهيات حتى يستطيع الخشوع والتدبر فيها، وحسن أدائها.

٢ ـ قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٥-١٧)، قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾، يدل على أنّ حملة العرش الآن ليسوا على هذا العدد.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات:٣٥-٣٦)، فقال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا﴾، ولم يقل (فما كان)، وكذا قال عن قوم فرعون: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:١٠٢)، ليدلّ على أنّ الله يلتمس الأعذار لخلقه ـ ولو كانوا كفارًا ـ وأنه سبحانه أحب ـ شرعًا ـ إيمانهم، ولكن لم يشأ ذلك ـ قدرًا ـ سبحانه، ففي هذه الآيات دلالة على التماس الأعذار، والبحث والتقصي الشديدْين لها، وعدم التجرؤ على تكفير النّاس وتفسيقهم بلا دليل ولا برهان.

٤ ـ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ (ق:٩)، قوله تعالى: ﴿مُّبَارَكًا﴾، يدل على جواز التبرك بالمطر النازل من السماء، ولذا كان رسولنا ﷺ إذا نزل المطر كشف عن ذراعين ليصيبه الماء، ويقول إنّه حديثُ عهدٍ بربه.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٢-٣)، فقال: ﴿ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾، ولم يقل (على صوت النبي)، ليدل على أنّ المحبط للعمل هو رفع الصوت فوق المعتاد، وأمّا رفع الصوت إلى درجة المعتاد، فلا يدخل في هذا، ولئلا يُفهم عدم استحباب خفض الصوت قدر المستطاع عند رسولنا بحيث لا يظهر منه إلاّ ما يكفي للسماع قال تعالى بعدها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، فأكرم بحلاوة القرآن.

وفي الآية دليلٌ على فحش عمل وسوء مغبة من فضلّ رأيه وهواه على السُّنّة والشرع الذي أتى به رسولنا، إذ هذا أعظم من مجرد رفع الصوت وهذا جزاؤه، فكيف برفع الرأي والهوى على سُنّته ﷺ.

٦ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفتح: ١٦)، فقال: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾، ولم يذكر الجزية، ففيه دليلٌ على أنّ المرتد لا يُقبل منه غير الإسلام وإلاّ قتل على قول من قال بنزولها في المرتدين، وعلى قول من قال هم كفار جزيرة العرب، ففيه دليلٌ على صحة قول من قال بعدم قبول الجزية من كفار جزيرة العرب، وأهلها الآن يعلوهم حكم الإسلام ـ بحمد الله ـ فمن كفر منهم صار مرتداً.

٧ ـ قال تعالى عن موسى عليه السلام لما قتل فرداً من أتباع فرعون: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص: ١٨)، وفي تسمية موسى عليه السلام فعل الإسرائيلي لمشادته لأعداء الدين -

غواية دليلٌ على أنّ الثبات من المسلمين لعدوٍ يغلب على ظنهم الهلاك معه، ولا نكاية في ثباتهم لا يجوز؛ إذ سمّى موسى ثبات ومشادّة ذلك الرجل غواية لا هداية لكونه لا يقدر على إهلاكه ولا نكاية في العدو عند ثباته، وقد نقل الإجماع على حرمة الثبات في حالة غلبة الظن بالهلاك وعدم النكاية إمام الحرمين، أفاده الشيخ ياسر برهامي بمعناه.

٨ ـ قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٧-١٩)، فيه دليلٌ على جواز فرح المؤمن بمدح النّاس له في الدنيا، فقد فرح سليمان عليه السلام بشهادة النملة له بالعدل وأنه لا يظلم أحدًا من الرعية ـ ولو كانت نملة فما فوقها ـ وسببُ الفرح ما يشهده المؤمن من فضل الله عليه، وبما يترتب على إحسان النّاس الظن به من دعاءهم له وترحمهم عليه بعد موته، فيكون ذلك في ميزان حسناته، وأمّا الفرح بمدحهم إعجابًا بالنفس وطلبًا للمنزلة والجاه والرفعة عليهم، فهذا مذموم، والتمييز بينهما في النفس يحتاج إلى بصيرة، والموفَّق من وفَّقه الله.

٩ ـ قال تعالى منكرًا على قوم لوطٍ فعلتهم الشنعاء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء: ١٦٥-١٦٦)، فتأمل قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾، التي تفيد التبعيض، ليدل على عدم حل كل شيء في الزوجة، فلا يحل جماعها في الدبر كما في الحديث الصحيح: **«ملعون من أتى امرأته في دبرها»**، كما أنّه لا يحل وطؤها في الحيض والنفاس.

١٠ ـ قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ (النور:٢)، ولم يقل (فاجلدوهما)، كما نزلت آيةالرجم ثمّ نسخ رسمها وبقي حكمها «**والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة**»[1]، فقال: «**فارجموهما**»، وذلك لأنّ رجمهما لا مانع من كونه في مكانٍ واحدٍ إذ تُشدّ على المرأة ثيابها، وأمّا الجلد فيكشف جسدها فلا يجوز أن تجلد بمكانٍ يحضره الرجال، فلمّا قال سبحانه: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ﴾، دل على انفراد كل واحدٍ منها، فأكرِم بدقة القرآن، وفيه دليلٌ لصحة قول مَنْ قال مِنَ الفقهاء بكشف الجسد أثناء الجلد.

١١ ـ قال تعالى: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (الملك:١٦)، وفيها إعجازٌ علمي للقرآن ببيان ما في باطن الأرض السفلى من نيران تغلي وتفور، ولولا إمساك الله لها لأهلكت الأخضر واليابس، إلاّ أنّه سبحانه يرسل ببراكين وزلازل منها بين الحين والآخر، فتأمّل قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾، أي: فإذا بكم تجدون باطنها في اضطراب وحركة، وهذا ما ثبت حديثًا.

١٢ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء:٥١-٥٢)، ولم يقل (عليها عاكفون) ليضمنها معنى العبادة، فكأنه قال: (التي أنتم لها عابدون وتعكفون عليها)، ففيه دليلٌ على أنّ العكوف على شيء والانشغال به عن الحق والخير يصيّر المرء كالعابد لهذا الشيء، ففيه دليل على حرمة لعب الشطرنج الذي فيه تماثيل يعكف اللاعبون عليها منشغلين بها عن الخير والصلوات والأذكار.

---

(١) رواه البخاري.

١٣ ـ قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل:١٠٦)، فقوله: ﴿صَدْرًا﴾، ولم يقل (صدره) فيه دليلٌ على أنّه من شرح صدر غيره بالكفر، وكذا من أفتاه بجوازه وإباحته كان كافرًا، ولو ادّعى الإسلام ولم ينتسب إلى الكفر، فأكرِم بدلالات القرآن.

وتأمل قوله: ﴿شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، ولم يقل (شرح للكفر صدرًا) ليضمنها معنى الرضا والاطمئنان، فكأنه قال: (من شرح صدره للكفر ورضي به واطمئن به) أو يضمنها (صرّح بالكفر)، فيكون المعنى (ولكن من صرّح بالكفر منشرحًا صدره فهذا هو الكافر، بخلاف من صرّح بالكفر وهو غير راضٍ به للإكراه أو الخطأ أو الجهل أو التأويل أو النسيان فهذا معذور).

١٤ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (يونس:٣١)، فقال: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، ولم يقل (ومَنْ يخرج الميت مِنَ الحي)، لكونهما يدلان على كمال واحد، ففيه دليل لصحة قول العلماء بتسمية الله باسمي (المحيي المميت) معًا، ولا نقول أحدهما وحده، فكمالهما في اجتماعهما.

١٥ ـ قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:٢٩-٣٠)، بيان شركهم بعد الأمر بأخذ الجزية منهم يدل على وجوب قبول الجزية من كل مشرك، ولو كان من غير أهل الكتاب لمشاركته لهم في الشرك.

١٦ ـ قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ (التوبة:١٢)، إطلاقه: ﴿أَيْمَانَهُم﴾، على العهد لما كانوا عليه عند التعاقد والتعاهد من التصافح باليمين، ففيه دلالة على عدم بدعية المصافحة عند عقد النكاح، وفي دعاء النبي ﷺ المشهور لأحد صحابته لمّا اشترى له شاةً وردّ عليه الدرهم «بارك الله لك في صفقة يمينك»، فيه دلالةٌ أيضاً على جواز ذلك.

١٧ ـ قوله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٨٩)، فقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، فيه دليلٌ على عدم جواز التكفير عن اليمين قبل الحلف لقوله: ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، وأمّا التكفير بعد اليمين وقبل الحنث فجائز.

١٨ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة:٦٨)، فقال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل (ربكم) ليدل على أنّ الرب الذي يؤمن به رسولنا والمؤمنون غير الذي يؤمن به المشركون، ففيه دليلٌ لصحة قول مَنْ قال بأنّ كفار قريش لم يقروا بتوحيد الربوبية بكل معانيه، إذ من معانيه إفراد الله بالحكم، وهم لم يقروا بذلك.

١٩ ـ قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة:٣٢)،

قوله: ﴿فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾، استدل بـه بعض العلماء المعاصرين على جـواز قتل التاجر بالمخدرات لكونه من المفسدين في الأرض أشدّ الفساد، ولمّا أقامت المملكة السعودية هذا الحكم قلّ جداً المتاجرون بها هناك.

٢٠ ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩)، قوله: ﴿مِنكُمْ﴾، يدل على أنّه لا طاعـة لولي الأمر الذي ليس من المسلمين، وكذا من يأمر بخلاف الشرع.

٢١ ـ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٧)، فقوله: ﴿سَبِيلاً﴾، نكرة تدل على العموم، فمن استطاع أيّ سبيل للحج ـ ولو بالمشي ـ لزمه ذلك طالما استطاعه.

٢٢ ـ قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، استدل به على عدم وجوب كتابة الدين لأنّ قوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾، عائدٌ على كل ما سبق سواء الأمر بكتابة الدَّيْن أو أخـذ الرهن عليه، وعلى القول بأنّه استثناء من عدم أخذ الرهن فقط، فهو حجةٌ كذلك لأنّ الله لم يقل (فإن لم تجدوا رهنًا فإن أمن بعضكم بعضًا)، فدلّ على جـواز عدم الكتابة، ولو وجد الرهن، فدلّ على عدم وجوب الاستياق من الدَّيْن عند وجود الائتمان.

٢٣ ـ قوله تـعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا

مَا دُعُوا﴾ (البقرة:٢٨٢)، فيه دليلٌ على أنّه لو شهد شاهدان على شيء نسي أحدُهما شيئًا من المشهود به، فذكَّر أحدهما الآخر فتذكره جاز له الشهادة به، وتقبل شهادته، وأما إذا لم يتذكر، فلا تقبل لقوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ﴾، فلابد من التذكر.

٢٤ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٠١)، قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾، قد يستدل به على أنّه لو عاهد الإمام قومًا من الكفار سواء من أهل الذمّة أو غيرهم عهدًا، ونبذه فريقٌ منهم، ولم يمنعه بقية قومه على أنّه يُعامل الجميع معاملة الناقض.



الفصل التاسع

حسن ترتيب القرآن



١ ـ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٤٠-٤١)، فقدّم قوله: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾، على قوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، لأنّ الخوف من الله هو أساس المقاومة لهوى النفس والقدرة على غلبتها.

٢ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (محمد: ٣٢-٣٤)، وفيها حسن ترتيب؛ إذ ذكر أولاً مآل أمرالكفار في الدنيا بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾، ثمّ ذكر حالهم ومآلهم في الآخرة ـ إذا ماتوا على الكفر ـ بقوله: ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠)، فقدّم تسبيح الطير معه على إلانة الحديد، لأنّ نعم الدين والآخرة أهمّ وأعظم وأولى من نعم الدنيا، ولكن قليلٌ مِنَ النّاس مَنْ يعقل ذلك.

٤ ـ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)، فبدأ يوسف عليه السلام بذكر الكواكب قبل الشمس والقمر مع أنّهما أشرف، استحياءً وأدبًا لأنّ الشمس والقمر هما أبواه، والكواكب هي إخوته.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١)، فقدّم ذكر الأرض علىٰ السماء، لأنّ الحديث متعلّق بعلم الله بكل شئون عبادة المكلفين وهم في الأرض.

٦ ـ قال تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٥)، فبدأ بطلب المغفرة قبل الرحمة، وكذا في ما نقله تعالى عن دعاء المؤمنين كقوله تعالى فيما نقله عن دعاء آدم وحواء لمّا تابا: ﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣)، وكذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٩)، ولكن لمّا ذكر دعاء اليهود بعد التوبة من عبادة العجل قال: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٩)، فقدّموا طلب الرحمة على المغفرة، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ المغفرة هي العفو عما سلف، والرحمة طلب العصمة فيما يُستقبل من الوقوع في نفس الذنب، فأمّا المؤمنون، فبدأوا بطلب المغفرة عما سلف لفرط ندمهم وعزمهم على عدم العودة، ولكن طلبوا الرحمة لعلمهم بأنّ العصمة لا تكون إلاّ بالله، وأمّا اليهود الذين عبدوا العجل، فهم كما قال الله عنهم: ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل ﴾ (البقرة: ٩٣)، فبدأوا بطلب الرحمة وهي العصمة من العودة إلى الذنب لضعف إيمانهم ـ الكثير منهم ـ، وضعف عزمهم، الأمر الذين يخافون معه أن يقعوا في المخالفات ثانيةً.

٧ ـ قال تعالى: ﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ولَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف:٩٦)، فذكر الجزاء الدنيوي وهي البركة من الله في خيرات السماء والأرض، وذلك لأنّ الأمم المكذبة كفرت خوفًا من فوات سلطات الدنيا عنهم، فأخبروا بهذه الحقيقة ليعلموا أنّ حقيقة ما يُصابون به من البلاء إنّما هو بسبب كفرهم، وأمّا في سورة المائدة فقال سبحانه: ﴿ ولَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ولأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ولَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ومَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ومِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٦٥-٦٦)، فبدأ بذكر الجزاء الأخروي لأنّ الخطاب لأهل الكتاب الذين يزعمون أنّهم إنّما يطلبون رضا الله وثوابه الزخروي، وأخبرهم بعدُ بالجزاء الدنيوي ليكون أدعى لإيمانهم إذا علموا جزاء طاعتهم في الدنيا والآخرة.

٨ ـ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وكَهْلاً وإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وتُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (المائدة: ١١٠)، فبدأ بذكر الكرامات المعنوية ثم ذكر الكرامات الحسية، وذلك لأنّ الكرامة المعنوية أكمل وأهمّ؛ ولذا زادت الكرامات الحسية في الأجيال التي بعد الصحابة عنها في عصرهم لاستغنائهم بكمال إيمانهم عنها.

٩ ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ولا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ ولا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ (الكافرون:١-٤)، فجعل أول قول رسولنا لهم: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، وجعل ثاني قوله لهم: ﴿ ولا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، ولم يعكس،

وذلك لأنّ قوله: ﴿لا أَعْبُدُ﴾، يدل على نفي الحاضر والمستقبل وهذا أساس الإسلام والإيمان حتى لو كان المرء قد أشرك من قبل، ولكن لعدم وجود ذلك من رسولنا، ولا من أيّ رسول، علّمه ربه أن يقول: ﴿وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، التي تدل على نفي عبادته لآلهتهم في الماضي بدليل قوله: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: في الماضي.

١٠ - قال تعالى في سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون:٦)، فبدأ بقسمهم ونصيبهم قبل قسمه ونصيبه، وسرّ ذلك أنّ السورة لمّا اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كلٌّ فريقٍ بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد ميز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردأ منه ولا أدون، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم، فإنّه يقول لخصمه: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي، فتقديم ذكر قسم المخالف هنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم، وزعمت أنّه أشرف القسمين، وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم، والنداء على سوء اختيارهم، ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، أفاده ابن القيم - رحمه الله -.

١١ - قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:١٨)، ولم يقل (شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنّه لا إله إلاّ هو قائمًا بالقسط)، وذلك لأنّه لا يعلم كيفية صفات الله إلاّ هو، ولذا كانت شهادته لنفسه بالوحدانية أكمل وأتمّ من شهادة الخلق، ولو كانوا ملائكةً أو أولي علم، فألصق الشهادة بوحدانيته بلفظ الجلالة، وألصق الشهادة على قيامه بالقسط والعدل بالملائكة وأولي العلم لكونهم أكثر الخلق شهودًا لذلك وإيمانًا به.

الفصل العاشر

دقة الألفاظ



١ - قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ (النساء: ٣)، فقال: ﴿مَا طَابَ﴾، ولم يقل (مَنْ طابت) مع أنّ (من) تُستعمل للعاقل، (ما) لغير العاقل، والجواب أنّ العرب تستعمل (ما) إذا أرادت الوصف أو الصفات، ولو لمن يعقل، فلمّا كان السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده هو وصف المرأة بالطيب أتى بـ (ما) دون (من)، وكذا قوله تعالى في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (الكافرون: ١-٣)، فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، مع أنّه قال سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (النمل: ٦٢)، ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ (النمل: ٦٤)، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٦٣)، وذلك لأنّ المقصود في سورة الكافرون بيان صفة الله الذي يعبده المسلمون وليس ذاته؛ فإنّ مشركي قريش كانوا يقرون بذاته سبحانه، ولكن يخالفون في استحقاقه للعبادة وحده أفاده ابن القيم - رحمه الله - بمعناه، قلتُ: ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى في نفس آية النساء: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣)، ولم يقل (من ملكت) لأنّ المقصود بيان الوصف المبيح لتعددهنّ وهو كونهنّ إماءً، ولقائلٍ أن يقول: لمّا كان عقل المرأة أقلّ من عقل الرجل ناسب أن يقول (ما) التي تُستعمل مع غير العاقل خاصةً، وأنّ تعددهنّ مع نقص عقلهنّ قد يكون مدعاة لمزيد من الغيرة المفرطة التي قد لا يستطيع الرجل معها التفرغ لأمر عبادته - نعم - التعدد مباح، ولكن أشار القرآن بلطفٍ إلى التنبه لقلّه

عـقولهنّ، وكـذا يقال فـي استـعمـال (ما) مع الإمـاء فـهنَّ بلاشك أنقص من غيرهنّ، وأمّا قوله تعالى في سورة الكافرون ﴿مَا أَعْبُدُ﴾، فلأنَّ الكفار لا يعقلون ما ينبغي لله من حقوق العبادة كما وصفهم سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:١٧١)، فناسب أن يقـول: ﴿مَا أَعْبُدُ﴾، والله أعلم.

٢ ـ قال تعـالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى:١-٨)، ولم يقل (فـآواك)، (فهداك)، (فأغناك)، بل قال: ﴿فَآوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾، لأنه سبحانه هدى رسولنا وهدى النّاس به، وآواه وآوى به، وأغنـاه وأغنى به، أفاده العثيمين ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ (البلد:١١-١٩)، فتأمل كيف قال: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، ولم يقل (هم) وذلك لأنّ مِنْ أصـحـاب اليمين مَـنْ لا يتيـسـر له هذه الأعمـال أو بعـضها، فلـم يقل (هم)، فليس هؤلاء فقط أصـحاب الميـمنة، بينما قـال عن الكفار: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، لأنّ كل الكفار باختلاف جرائمهم لا يخرجون عن وصف الكفر بآيات الله، فصحّ تخصيصهم بقوله: ﴿هُمْ﴾، والله أعلم.

٤ ـ قال تعـالى نقلاً لشكوى نوح عليه السلام إليه من قـومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا﴾ (نوح:٥-٦)، فقال: ﴿دُعَائِي﴾، ولم يقل (دعـوتي) لـيـدل على أنّه دعـاهم ودعـا الله لـهم، ولم يزدهم أن رأوه أو

سمعوه يدعــوا الله لهم إلا نفورًا منه، مع أنّ المرء السويّ إذا رأى من يدعوا الله له ازداد قربًا منه وحبًا له.

٥ ـ قال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (الحاقة:٣٨-٤٧)، فتــأمل قوله: ﴿بَعْضَ الأَقَاوِيلِ﴾، بالتصغير ولم يقل (الأقوال)، ليدل على أنّ أي افتراءٍ على الله ـ ولو صغر ـ هذا جــزاؤه، فكيف بادّعــاء النّبــوة والرســالة! وفي ذلك خطورة الدعــوى في العلم والفتوى عن جهالة، وكذا افتراء الأحلام، وافتراء الأحاديث.

٦ ـ قال تعالى في المطلقــة الرجعية: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ (الطلاق:٦)، فقال: ﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾، ولم يقل (أعــسرتم)، ليــضمنّهــا فــعل: (تنازعتم)، فكأنه قــال (تنازعتم في العسر وعدمه)، فأتى بفعلٍ واحدٍ، وضمّنه الفعلين.

٧ ـ قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن:٧)، فقال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، ولم يقل (بلى وإلهي)، (ذلك على ربي يسير)، وذلك لأنّ المقــسم عليه أولاً هو البعث، وذلك مناسب لصــفات الربوبيــة، فالرب هو الذي خلق ورزق ويحــيي ويميت، وهو الذي يبعث العباد، فقال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾، أولاً ليكون القسم بالربوبية أقرب إلى قوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾، لأنّ البعــث مقتــضى الربوبيــة. وقال: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، آخــرًا بعد قــوله: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، لأنّ الإله هو الذي شرع

الشرائع وأمر ونهى، وذلك يقتضي أن يحاسب العباد على ما عملوا سواء من أطاعه أو من خالفه فيما شرع، فجعل كل لفظٍ قريبًا من مقتضاه.

٨ ـ قال تعالى في أول سورة «الحشر»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١)، وقال في أول سورة «الصف»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الصف: ١)، وقال في أول سورة «الجمعة»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجمعة: ١)، وقال في أول سورة «التغابن»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١)، فقال فيها كلها: ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، بينما قال في أول سورة «الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد: ١)، فقال فيها: ﴿وَالأَرْضِ﴾، وذلك لأنه في سورة الحديد ذكر المنافقين ومآلهم يوم القيامة، وكذا ذكر قسوة القلوب بطول الأمد، وذكر اغترار الناس بالحياة الدنيا وزينتها، وإرساله للرسل لدعوة الناس، وذكر كُفْر من كَفَر من أهل الكتاب، فناسب أن يقول: ﴿الأَرْضِ﴾، لينسب التسبيح إليها نفسها، ولا يقول (ما في الأرض)، لئلا ينسب التسبيح إلى أهلها، وقد ذكر طوائف من كفّارهم، إلى جانب ما ذكره من إرساله الرسل بالبينات والكتاب والميزان لدعوة الناس إلى الحق، وجهاد من كفر منهم.

وأمّا بقية السور فقال: ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، ليبين ـ على عادة القرآن ـ غناه سبحانه عن عبادة عباده، وعدم تضرره بكفر الكفار فكل ما في السموات وما في الأرض يسبح له، حتى الكفار فإنّ ظلالهم تسجد لله بالغدو والآصال، وكذا أعضاءهم تتعبد لله عبادة لا نفقهها: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤)، وتأمل قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وقوله

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل (يسبح الله)، ولا (سبح الله) ليضمنها معنى الخضوع والانقياد والطاعة، وذلك يتعدى باللام.

وتأمل كيف قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، في سورة الجمعة لقوله فيها: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٢-٣)، فكونه يُلحق بالمؤمنين الأوائل آخرين مؤمنين مناسب لقوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾، التي تدل على تجدّد واستمرار التسبيح، وكذا قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾، في سورة التغابن، وذلك حثًا لهم على استمرار التسبيح لله حتى الممات لينفعهم ذلك يوم التغابن، وكيف قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، بالماضي في سورة «الصف» لما ذكره من تأييد الحواريين لعيسى عليه السلام، فقال: ﴿سَبَّحَ﴾، ليبين أنّ اتباع شرع عيسى كان نافعًا للنصارى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمّا بعد بعثته فلا، وكذا سورتي الحشر والحديد قال: ﴿سَبَّحَ﴾، لما ذكره فيهما من اغترار أهل الكتاب وكفرهم، فناسب أن يخبرهم بكون إيمانهم بالرسل السابقة لم يعد نافعًا بعد بعثته صلى الله عليه وسلم.

٩ ـ قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ (النجم: ١-٢)، فقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل (رسولكم)، ليدل على مزيد شفقته على أمته كما يشفق الصاحب الوفي ويخلص لصاحبه، وكذا ليدلّ على تواضعه، فهو مع أتباعه كالصاحب، وليس شديدًا جبارًا، ومع ذلك فهم أشدّ تعظيمًا له من تعظيم أتباع الملوك لملوكهم، وذلك لأنّ تعظيمهم نابعٌ من المحبة الكاملة له صلى الله عليه وسلم، وما أصدق ما قاله أحد كفار قريش لمّا رأى تعظيم أصحاب رسولنا له «لقد دخلت على كسرى وقيصر، وما رأيتُ أحدًا يعظمه أصحاب كتعظيم أصحابِ محمدٍ محمدًا».

١٠ - قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ (الفتح: ٢٩)، فقال: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾، وذلك لتوحيدهم وإقرارهم بالإلهية لله على أكمل وجه، بينما قال في سورة «المائدة»: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ (المائدة: ٢)، ليدل على تأمين من أمّ البيت وقصده من المشركين آنذاك طالما أقرّ لله بالربوبية، فأكرِم بدقة القرآن.

١١ - قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٤٣-٤٩)، فقال: ﴿فَوْقَ رَأْسِهِ﴾، ولم يقل (على رأسه)، وذلك والله أعلم ليدل على كون ذلك الأثيم في أسفل جهنم، وهي بعيدة القعر جدًا كما في الحديث: «**هذا حجر ألقي في جهنم منذ سبعين خريفًا ما بلغ قعرها إلاّ الآن**»، فناسب أن يقول: ﴿فَوْقَ﴾، التي تدل على ذلك.

١٢ - قال تعالى عن قوم فرعون لما أهلكهم الله: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧)، فقال: ﴿وَنَعْمَةٍ﴾، بفتح النون، وقال تعالى أيضًا عن المجرمين: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (المزمل: ١١)، بفتح النون، وأمّا عن المؤمنين فقال: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٤)، بكسر النون، وفي ذلك سرٌّ بديع، إذ النعمة هي على الكافر وبال إذ يُسئل عنها ويعذّب بسبب عدم شكرها، فناسب أن تكون الفتحة فوق النون إذ هي عليه، كما أنّها خيرٌ منه، وأمّا المؤمن فهو أعلى عند الله من النعمة، وهو فوقها، فناسب أن تكون النون مكسورة، فأكرِم بكلام ربي العظيم.

١٣ ـ قال تعالى عن الكفار وهم في جهنم: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ (الزخرف:٧٧)، فقال: ﴿وَنَادَوْا﴾، التي تدل على بعدهم عن الله، فهم في غضبه وسخطه سبحانه ـ عياذًا بالله من هذا، وتأمل قولهم: ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقولوا (ربنا) لم ينسبوا أنفسهم إلى الربوبية لله لبعدهم عنه سبحانه بكفرهم وخزيهم.

١٤ ـ قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى:٣٩-٤٠)، فقال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ (الشورى:٤٠)، ليدل على أنّ العفو ممدوحٌ إذا كان سيؤدي إلى صلاحٍ وخيرٍ، وأمّا من كان العفو عنه سيؤدي إلى زيادة فساده وإفساده، فلا يُشرع العفو عنه، فلا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ﷺ، كم في القرآن من كنوز!!

١٥ ـ قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (الشورى:٤٣)، فزاد اللام وقال: ﴿لَمِنْ عَزْمِ﴾، بينما قال في سورة «آل عمران»: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران:١٨٦)، فقال: ﴿مِنْ عَزْمِ﴾، دون لام، وذلك لأنّ المرء إذا صبر وغفر وسامح لمن أخطأ في حقه احتاج إلى مزيد عزم وقوة، فزاد اللام التي تدل على التأكيد، وأما الصبر دون مغفرة فلم يزد فيه اللام لعدم ذلك.

١٦ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (التحريم:٣)، فقال: ﴿نَبَّأَتْ بِهِ﴾، ﴿نَبَّأَهَا بِهِ﴾، ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾، بينما قال:

﴿أَنبَأَكَ هَذَا﴾، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ (نبّـأ) على وزن (فعّل) وهي تدلّ لغـةً على التكثير، فكأنّه يقول: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي أخبرت به وأكثرت من الكلام في شأن هذا الأمر، ﴿نَبَّأَهَا بِهِ﴾ أي أخبرها رسولنا بكل تفـاصيل ما قالت في شأن ما عرّفها به ليكون دليلاً لها على أنّ الله أخـبره بكل ما قالته حتى ما أعرض عن ذكره لها، فقوله ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ أي أخبرني العليم الخبـير بكل ما قلتيه وبكل تفاصيله، وأمّا قوله: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا﴾ على وزن أفعل ليضمنها معنى الإطلاع، فكأنّهـا قـالت: (من أطلعك على هذا الغـيب ونبـأك به مع إسـراري بالإخبار عنه)، أو ليكون دليلاً على أنّ مجرد علمك وإطلاعك على أصل الأمر عجيب، فكيف وقد أُطلعت على كل تفاصيل الأمر!!

١٧ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٣)، فـقـال عن رسله: ﴿لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾، وقال عن أتبـاعهم: ﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، مع أنّ رسله هم المنتصرون المنصورون، وجنده هم الغـالبون المغلَّبون بتـأييد الله لهم، وذلك ـ والله أعلم ـ لأنّ نصر الله لرسله أكـمل وأتمّ لكمال مرتـبتهم، ولأنّهم الأصل، فنصـر أتباع الرسل إنما هو بسبب اتباعـهم للمنهج الذي أتت به رسلهم، وكذا يكون نصرهم على قدر اتبـاعهم لرسلهم، فناسب أن يخص الرسل بذكر نصـر الله لهم، وأمّا أتباعهم فذكرهم بلفظ: ﴿جُندَنَا﴾، ليعلمهم أنهم إن لم يحـققوا شروط الجندية من الطاعة والمتابعة لأمر الله ورسله لم تتحقق لهم الغلبة.

١٨ ـ قال تعالى نقلاً لما قـاله مؤمن يس لما قبض إلى ربه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: ٢٦-٢٧)، فقال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي﴾، ولم يقل (بمغفرة ربي لي)، لأن (ما) تأتي بمعنى (الذي)، وتأتي

مع الفعل بمعنى المصدر فيكون قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ﴾، أكمل ليدل على المغفرة وأيضًا ليدل على عظيم وكثرة ما غفره الله للمؤمن من ذنوب بسبب إسلامه، ودعوته إلى الله حتى قتل في سبيل ذلك، بينما قوله: (بمغفرة ربي لي)، تدل على المغفرة فقط.

١٩ ـ قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر: ١٠)، فقال: ﴿يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ﴾، مع أنّه يقال: (يمكرون المكرات السيئات) وذلك ليضمنها معنى الكسب، فكأنه قال: (يمكرون ما يكسبون به السيئات)، وذلك لأنّ المكر قد يكون خيرًا كمكر الله بأعداء الدين، ومكر المؤمن بالكفار، فلمّا ضمنها معنى الكسب دلّ على سوء مكرهم، فأكرِم بألفاظ القرآن.

٢٠ ـ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ: ٣)، فتأمل قولهم: ﴿لا تَأْتِينَا﴾، ولم يقولوا (لا تأتي)، لأنّ تكذيبهم للساعة إنّما هو لعلمهم بسوء عملهم وبفساد حالهم فيها لو قامت الساعة، فكذّبوا هروبًا من تصوّر العذاب وتذكره، ولذا كانت الغاية من النفي لوجودها، هو نفي بعثهم هم، بخلاف صاحب الفكرة والقضية التي يؤمن بها، فإنّ غرضه بيان ما يراه حقًا دون نظرٍ إلى هوى النفس، فسبحان من هذا كلامه.

٢١ ـ قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الأحزاب: ١٨)، مع أنّ ﴿قَدْ﴾، إذا سبقت الفعل المضارع كانت في الأغلب لبيان الشك بخلاف ما لو سبقت الفعل الماضي، وقد كثر هذا الأسلوب في القران، كقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (البقرة:١٤٤)، وكذا قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ (النور:٦٣)، وقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٦٤)، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام:٣٣)، وفي ذلك دقة بالغة؛ إذ قوله تعالى: ﴿قَدْ﴾، مع أنه يعلم قطعًا كل شيء، ليفيد معنىً عظيمًا، وهو أنّ علم الله بحدوث ذلك - ولو لمرة واحدة - كافٍ، فلو أراد رسولنا وتطلع إلى تحويل القبلة ولو لمرة واحدة، فذلك كافٍ لأن يعطيه ربه، ما تمنّى لكرامته عليه - ما لم يكن الخير في خلاف ما تمنّى، وكذا لو وجد من المنافقين تسلل وهرب من الاجتماع مع رسول الله وصحابته على الخير، أو وجد منهم في قلوبهم نفاقٌ أكبر واستقر - ولو لمرة واحد - لكان كافيًا لاستحقاقهم العذاب، فكيف وقد كثر ذلك منهم، وكذا لو وجد من رسولنا حزنٌ بسبب أقوال الكفار له وعليه - و لو لمرة واحدة - لكان ذلك كافيًا لانتقام الله له.

٢٢ - قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت:١٠)، فتأمل قوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، بالجمع، وقوله: ﴿أُوذِيَ﴾، بالمفرد، وفي ذلك دقة بالغة لأنّ المرء غير الصادق إنّما يؤمن مع الجمع تبعيةً، ولو انفرد هو - ولو بالحق - فإنه لا يثبت، ولذا ذكر الإيمان بالجمع، وأما عند ذكر البلاء فإنّ الصادق هو الذي يصبر عند ابتلاءه وإيذائه وحده، بخلاف من يُبتلى مع جمعٍ، فعموم البلاء قد يهوِّن عليه ذلك، فرحمة الله ومغفرته على من مكث في السجن بعد إخراج رفاقه وبقي وحده، فصبر ورضي لله.

٢٣ ـ قال تعالى نقلاً لما فعله موسى عليه السلام لمّا دخل مدين: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢٣-٢٥)، فتأمل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾، ولم يقل (فجاءه) ففيه دلالة ـ والله أعلم ـ على صحة ما ورد في الإسرائيليات من رفض موسى عليه السلام من المجيء إلى والد المرأتين ـ مع شدة جوعه ـ لمّا أخبرته المرأة أنّ أباها يريد إعطاءه الأجر على ما صنع من الخير، وهكذا الكرام من الرجال بخلاف اللئام الذين يريدون أخذ حقوق الغير، فشتان ما بين الصنفين!! فقوله: ﴿فَلَمَّا﴾، يدل على تأخره عن المجيء، فلمّا أُخبر بأنّ غرض أبيها هو التعرف عليه ورؤيته، أتى إليه.

٢٤ ـ قال تعالى مخبراً عما قاله سليمان عليه السلام لمّا أرسلت ملكة سبأ إليه بهدية: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل: ٣٦-٣٧)، فقال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، ولم يقل (بهدية) لأنّ غرضهم من الهدية استمالة قلبه، وإمالته عن الحق، بخلاف الهدية التي لا تهدف إلى ذلك، فلا بأس بقبولها، فقد قبل رسولنا صلى الله عليه وسلم هدية المقوقس، وقبلت سارة رضي الله عنها ـ هدية جبّار مصر لمّا أهداها هاجر.

٢٥ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (النمل: ٤-٥)، فقال: ﴿الأَخْسَرُونَ﴾، ولم يقل (الخاسرون)، وذلك لأنهم قد زين لهم عملهم فظنّوه حسنًا، فكان خسرانهم أكبر، بخلاف من لم ينتظر الخير من عمله، ولذا قال سبحانه في سورة الكهف عن اليهود والنصارى الذين يظنون أنهم يحسنون

العمل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ (الكهف:١٠٣-١٠٥)، فقال: ﴿بِالأَخْسَرِينَ﴾، ولم يقل (الخاسرين)، ولذا أيضًا قال في سورة هود في المنافقين والكفار الذين أتعبوا أنفسهم في الصدِّ عن سبيل الله ولا ينفعهم ذلك شيئًا: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ (هود:١٨-٢٢)، فخسروا جهدهم وعملهم وسعيهم في الدنيا، وكان زيادةً في الوبال عليهم في الآخرة، ولذا ناسب أن يقول: ﴿الأَخْسَرُونَ﴾، وليس (الخاسرون) ليبين مزيد خسرانهم.

٢٦ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٠-١١)، فقال: ﴿نَادَىٰ﴾، التي تدل على البعد، وذلك ـ والله أعلم ـ لكون موسى وقتها لم يوحَ إليه بالرسالة بعد، ولذا لم يسأل موسى عليه السلام الرؤية في هذه المرة، بينما قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٤٣)، فتأمل كيف قال: ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾، ولم يقل (ناداه)، فالظاهر أنه شعر بقربٍ زائدٍ من ربه، ولذا سأل الرؤية، والله أعلم.

٢٧ ـ قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور:٣١)، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ

بِخُمُرِهِنَّ﴾، ولم يقل (ليلبسن)، فشبه لبس المرأة بالخمار بمن ضرب خيمةً ودخل فيها، ليدل على حفظ الخمار لها من أذى الفساق كما يحتمي المرء في الخيمة من حر الشمس، وكذا يحميها من عذاب الله، وكذا ينفعها يوم القيامة حيث يغرق العصاة في عرقهم غرقًا، وأما الطائع، فلا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾، ولم يقل (ليضعن) لأنّ مجرد اللبس والوضع لا يكفي، فربما كان الخمار ضيقًا فيلزق ويصف الصدر وغيره، وهذا لا يجوز، بل لابد من وجود السعة في الخمار حتى لا يلزق، فكانت لفظة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾، التي تدل على السعة أدقّ.

وتأمل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، الذي يفيد أنّ الواجب ضرب الخمار على الجزء الأمامي فقط، وأمّا خلفها فيكفي ستره بالملبس الواسع الذي لا يشف ولا يصف؛ لئلا يُفهم من لفظة ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾، أنّ الواجب كونه كالخيمة مضروبًا من الأمام والخلف، فأكرم بدقة القرآن!.

٢٨ ـ قال تعالى محذرًا المؤمنين من التصديق لما ينشره المنافقون من هتك لأعراض المؤمنين: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (النور:١٧)، ولم يقل (ألاّ)، ليضمن فعل: ﴿يَعِظُكُمُ﴾، معنى التحذير فكأنه (يعظكم ويحذركم أن تعددوا لمثله)، وكذا قوله تعالى لنوحٍ عليه السلام لما سأل ربه عن ابنه الذي مات كافرًا: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود:٤٦)، فقال: ﴿أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ولم يقل (ألاّ تكون) ليضمنها معنى التحذير أي (أعظك وأحذِّرك أن تكون من الجاهلين).

٢٩ ـ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٥)، فقال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، ولم يقل (لئلا تميد بكم) ليضمنها معنى المنع والحفظ، فكأنه قال (ألقى في الأرض رواسي ومنعها أن تميد بكم) أو (وحفظها من أن تميد بكم)، ليدل على أنّ امتناعها من أن تميد بكم ليس إلا بمنع الله، ولو شاء سبحانه لمادت بكم.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، ولم يقل (أن تميد) فقط، إذ ربما مادت واضطربت في زلازل وبراكين، وأمّا أن تضطرب وتلقيكم عن ظهرها كما تميد السفينة براكبيها عند اضطراب الموج فلا، ولذا فليس في الآية دليلٌ قاطع على عدم حركة الأرض، ولكن فيها دليلٌ على عدم اضطرابها بالنّاس، فلا مانع من حركتها دون أن يشعر النّاس بذلك، وعلى كلٍ، فمسألة حركة الأرض وعدمها محلّ خلافٍ عند علماء الطبيعة، وليست جزمًا كما يظنّ البعض إلاّ أنّه لا مانع من إثبات حركتها شرعًا، والله أعلم.

٣٠ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون: ٩٣-٩٤)، فتأمل قوله: ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾، ولم يقل (إن تريني)، ليدل على أنّ رسوله ﷺ لمزيد شفقته على المدعوين كان لا يريد أن يرى عذابهم بل يريد أن يستأني بهم لعل الله أن يهديهم، فقال: ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾، التي تدل على أنه وإن كان ولابد يارب من رؤيتي لعذابهم، فلا تنزل عليّ العذاب معهم.

وتأمّل قول رسولنا: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، مع أنّ مقامه ﷺ أعلى من أن يعذّب فضلاً عن أن يناله ما نال المجرمين، ولكنها خشية الله التي عظمت عند رسولنا ﷺ، وحساسية قلبه لنزول العذاب، ولذا كان إذا هاجت ريح قام يمشي ذاهبًا وآتيًا حتى تسكن خوفًا من نزول العذاب.

٣١ ـ قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩)، فقال: ﴿نَادَىٰ﴾، التي تدل على البعد، مع قرب المؤمن الصالح من ربه، وقرب ربه منه قربًا يليق بجلاله سبحانه، فكيف بالأنبياء!!

وسببُ ذلك هو بُعْدُ تحقق ذلك في نفس زكريا عليه السلام وصعوبته، فناسب أن يقول الحق سبحانه ﴿نَادَىٰ﴾.

٣٢ ـ قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣١-٣٢)، فتأمل قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ﴾، ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾، ولم يقل (إنّ قتلهم خطأٌ)، ولا (إنه فاحشةٌ)، ليدل على أنّ فحش وخطأ هاتين الجريمتين مستقرٌّ منذ الأزل في الفطر والشرائع كلها، ولذا زاد ﴿كَانَ﴾.

٣٣ ـ قال تعالى ردًا لتهديد إبليس بإغواء الخلق: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤١-٤٢)، فقال: ﴿اتَّبَعَكَ﴾، ولم يقل (تبعك) لأنّ ﴿اتَّبَعَكَ﴾، تدل على مزيد التكلف الذي يبذله العاصي، فالمعصية خلاف الفطرة وخلاف المعروف، فكان فعلها تكلُّفًا.

٣٤ ـ قال تعالى نقلاً لقول أولاد يعقوب لأبيهم لما تابوا: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يوسف: ٩٧-٩٨)، فتأمل قوله عليه السلام: ﴿رَبِّي﴾، ولم يقل (ربكم) فنسب الرب إلى نفسه لمزيد علمه به، ولمزيد تعلّق قلبه به، ولأنّه كما قال لهم: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٩٦).

٣٥ ـ قال تعالى نقلاً لما أمر ابن يعقوب الأكبر إخوته أن يقولوه لأبيهم لما أخذ منهم بنيامين: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (يوسف: ٨١)، فتأمل قوله: ﴿إِنَّ ابْنَكَ﴾، ولم يقل (إنّ أخانا) مع أنه أخوهم، وذلك ليبرئوا أنفسهم منه ومن فعلته، ولينسبوه إلى أبيهم كأنهم يقولون له (هذا هو ابنك الذي فضلته وأخاه يوسف علينا).

٣٦ ـ قال تعالى نقلاً لما فعله يوسف ليحتال لأخذ أخيه بنيامين: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)، فتأمل قوله: ﴿ثُمَّ﴾، ليدل على ما فعله يوسف عليه السلام من المبالغة في البحث والتنقيب في رحل أخيه في غير المكان الذي وضع الصواع فيه، ليوهمهم بأنه باحث، بخلاف ما لو بدأ بالمكان الذي وضع الصواع فيه، لربما ارتابوا في أمره، وتأمل قوله تعالى: ﴿اسْتَخْرَجَهَا﴾، ولم يقل (أخرجها) ليدل على أنّه عليه السلام لمّا وضع الصواع في رحل أخيه وضعها في مكانٍ خافٍ كما يفعل من أراد تخبئة الشيء إتمامًا لحيلته. فأكرِم بدقة كلام الله، اللهم إنا نشهدك أننا نؤمن بكون القرآن كلامك، فعجبًا لمن كفر به، هلاّ نظر إلى حلاوة أسلوبه، ودقة ألفاظه، وأخذه للقلوب والأسماع!!

٣٧ ـ قال تعالى عن امرأة العزيز لمّا سمعت بكلام النسوة في المدينة عليها: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١)، فتأمل قولها: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، لتضمنها معنى الدخول، فكأنها قالت (ادخل عليهن) وقالت (اخرج) لأنّه عليه السلام كان في مكانٍ منعزلٍ له لا يدخل عليها إلا بإذنها، فكأنها قالت له (اخرج من مكانك وادخل عليهن) أفاده ابن عاشور.

وتأمل قوله تعالى: ﴿سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، مع أنه يقال (سمعت مكرهن) ليضمنها معنى الإخبار، فكأنه قال (أُخبرتْ بمكرهنّ ممن تثق بكلامه حتى كأنها سمعته بنفسها، ولذا ـ والله أعلم ـ قال: ﴿سَمِعَتْ﴾.

٣٨ ـ قال تعالى نقلاً لقول امرأة العزيز للنسوة: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢)، فتأمل كيف أكدت سجنه بالنون المثقلة: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، لتأكدها من ذلك، فكأنها كانت هي المتحكمة في زوجها يأتمر بأمرها، وأمّا صغاره فقالت: ﴿وَلَيَكُونًا﴾، بنون التوكيد المخففة، لأنّ ما رأته من امتناعه من الفاحشة، ومن قوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف:٣٣)، يجعلها شاكةً في صغاره بالسجن، فمثل هذه الشخصية المتعالية عن الدنايا تكون عزيزةً أبدًا، ولو كانت في السجون، بخلاف العاصي فهو ذليل، ولو كان في أهنئ عيش، قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ عن العصاة (**فإنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، إلاّ أنّ ذل المعصية لا يفارق رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه**)، أفادنيه بعض أهل اللغة والصلاح بمعناه.

٣٩ ـ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ (هود:١١٣)، فقال: ﴿ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾، ولم يقل (ولا تنصرون) ليدل على أنّ العاقبة والنصر لا تكون في النهاية للظالمين أبدًا، حتى وإن انتصروا في البداية في جولات.

٤٠ ـ قال تعالى مخبراً عما قاله الفراعنة لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٧٨)، فتأمل

قولهم: ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾، ولم يقولوا (لتصرفنا)، فكأنّ مجرد التفاتهم عن هدي آباءهم وفراعنتهم لا مطمع لك فيه ولا أمل.

٤١ ـ قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس:٣٩)، فقال: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾، ولم يقل (كيف كانت عاقبة)، ليضمنها معنى الهلاك، وهو مذكر، فكأنه قال: (فانظر كيف كان الهلاك عاقبة الظالمين).

٤٢ ـ قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٥-٧٧)، فقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾، ولم يقل (فأورثهم نفاقًا) ليضمنها العقاب، فكأنه قال (فأورثتهم عقابًا لهم).

٤٣ ـ قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (التوبة:٦٩)، والخوض هو الدخول في الماء مشيًا بالرجلين دون سباحة، واستعمل فيما فيه كلفة وعنت كالمحاداة لله ورسوله، أفاده ابن عاشور بمعناه، قلت: وفيه دلالة أيضًا على أنهم سيغرقون أنفسهم في بحار الكفر والظلمات لمحاداتهم لله ورسوله، والله أعلم.

٤٤ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ (المائدة:٦١)، فتأمل قوله: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا﴾، ليدل على أنهم وحدهم هم الذين خرجوا بالكفر، وأمّا المؤمنون فخرجوا وقد ازداد إيمانهم.

٤٥ ـ قال تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام: ٥٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ٦٩)، فلمّا ذكر عدم تحمل الرسول والمؤمنين لشيء من حساب غيرهم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ولما ذكر عدم تحمل فقراء المؤمنين لشيء من حساب رسولنا قال: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، ولم يقل (وما عليهم من حسابك من شيء)، كما قال في عدم تحمّله هو لحسابهم. وذلك لأنّ ذنوب رسولنا ﷺ مجازية، وليست حقيقية، فحسابه غير حساب غيره من المؤمنين؛ فإنهم مع إيمانهم لهم ذنوب حقيقية، ولذا قال لرسولنا: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فبدأ بـ ﴿عَلَيْكَ﴾، لوجود حمل حقيقي بينما قال عن حساب رسولنا: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ﴾، ولم يبدأ بـ (عليهم) لكون ذنوبه فعل خلاف الأولى، والمكروه، والخطأ في الاجتهاد، والنسيان وغيرها مما لا يُعدُّ ذنوبًا.

وأمّا المؤمنون فلمّا قارن حسابهم مع حساب الكفار قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، بدأ بـ (على) لوجود ذنوب حقيقية للكفار، فهو حملٌ حقيقي.

٤٦ ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة: ١)، فقال: ﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، ولم يقل (بما يريد) ليضمنها معنى الإحكام والدقة، فكأنه قال (يُحكم ما يُريد من الأمور ويَحكم بما يريد من الشرائع).

٤٧ ـ قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن

كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء:١٧٦)، فقال: ﴿ أَن تَضِلُّوا ﴾، ولم يقل (لئلا تضلوا) ليضمنها معنى التحذير، فكأنه قال: (ليبين لكم ويحذركم أن تضلّوا وتتركوا شرعه)، فهذا بيان لواجبٍ لابد من التزامه.

٤٨ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٢٨)، ولم يقل (زوجها) ليدل على أنّ نشوز الزوج في الغالب لترك المرأة لحسن التبعل له سواء إهمالاً منها أو لعذرٍ خارجٍ عنها ككبر سنّ ونحوه.

٤٩ ـ قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ (النساء:٦٦)، وفي قراءة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾، وذلك لأنّ المرء قد لا يفعل الشيء ولكن يسعى إلى فعله، بخلاف المعرض، فالقراءة المتواترة الثانية ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ تدل على وجود الإعراض مع الترك.

٥٠ ـ قال تعالى لصحابة رسوله ﷺ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠٠-١٠١)، فتأمّل قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾، ولم يقل (لم تكفرون) كأنهم ـ رضوان الله عليهم ـ لشدة إيمانهم لا يعرفون كيف يكفرون، كما قال بعض السلف عن أحد الصالحين (فلانٌ لا يعرف كيف يعصي الله).

٥١ ـ قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران: ٣٨-٣٩)، فتأمّل قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ﴾، والنداء للبعيد، فكأنّ الملائكة خاطبته من السماء فور علمهم بأمر الله، ولم تنتظر حتى تنزل وتبشره بذلك، فرحًا له، وكيف ولا، والملائكة توالي الأولياء، فكيف بسادات الأولياء من الأنبياء والرسل!!

٥٢ ـ قال تعالى مخبرًا عمّا قاله زكريا لما بُشِّر بالولد: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٤١)، فقال: ﴿ثَلاثَةَ أَيَّامٍ﴾، بينما قال في سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٠)، فقال: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ﴾، وفي هذا سرٌ بديع، إذ سورة مريم مكية، وليل الشرك والاضطهاد فيها قائم، فناسب أن يُذكر الليل، وسورة آل عمران مدنية، ونور التوحيد قد ظهر فيها، فناسب أن يذكر الأيام!!

٥٣ ـ قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، فتأمّل قولهم: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾، فجعل الرسل كلهم كرسولٍ واحد، ومن آمن ببعضٍ، وكفر ببعضٍ كان كمن فرّق بين أجزاء الجسد الواحد.

٥٤ ـ قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٧١)، فجعل الخيرية في إخفاءها عند إعطائها الفقراء لئلا تنكسر نفسه، وأما ما لا يقع إلا جهرةً، فلا يدخل في الأمر بإخفائه.

٥٥ ـ قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ﴾ (البقرة:١٨٧)، فقال عن الجماع: ﴿ الرَّفَثُ ﴾، وكذا قال: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة:١٩٧)، مع أنّ كلمة الرفث بعيدة عن عادة القرآن باستعمال الكناية عند ذكر الجماع كقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (النساء: ٢١)، كقوله تعالى أيضًا: ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (النساء:٤٣)، ووجه ذلك أنهم أرادوا الجماع في ليالي الصيام، ووقع بعضهم في ذلك، وقد كان محرمًا عليهم ـ أول الأمر ـ فناسب أن يذكر الجماع بكلمة ﴿ الرَّفَثُ ﴾، تقريعًا لهم وتنبيهًا لهم على أنَّ ما وقع من بعضهم في ليالي الصيام إنما هو رفث، وكذا في الحج قال: ﴿ فَلا رَفَثَ ﴾، لينفِّر نفوس المؤمنين عن الوقوع في مثل ذلك أثناء الحج، فإنما هو رفث، فكيف يقعون فيه وهم محرِمون بالحجِّ، أفاده الزمخشري بمعناه مع تصرفٍ يسير.

٥٦ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦)، فقوله: ﴿ إِذَا دَعَانِ ﴾، يدل على أنَّ الله ـ بكرمه ـ يستجيب دعوة الداع فور دعوته ـ إذا لم يكن بإثم ولا قطيعة رحم كما في الحديث ـ ولكن الاستجابة قد تكون بتأخير العطية إلى الآخرة أو بتأخيرها في الدنيا أو بعدم إعطاءها وإعطاء ما هو أفضل منها.

٥٧ ـ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة:٦٧)، فتأمل قوله عليه السلام لهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾، ولم يقل (اذبحوا) مع أنه لو قال ذلك، فإنه لا يقوله إلا عن وحيٍ،

ولكن احتاج أن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾، لضعف يقين اليهود، وشكهم الشديد، حتى أنّه يُحكى عنهم أنهم اتهموا موسى عليه السلام بقتل أخيه هارون!! وكذا يقال في قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ﴾ (البقرة:٦٩)، ولم يقل (إنها بقرة صفراء)، دون أن يقول ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾.

٥٨ ـ قال تعالى معاتبًا اليهود: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٤٤)، ولم يقل (أتنصحون)، ليدل على أنّهم تركوا الواجب الذي أمروا النّاس به، وليس فقط المستحب الذي يُنصح النّاس به دون أمر إلزام، وكذا ليدل على أنهم كانوا ينصحون بقوة كأنّ النصيحة أمرٌ مع تركهم للعمل بها!!

٥٩ ـ قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ (يس:٥٦)، فقال: (زوجة)، وقال ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦)، بينما قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحريم:١١)، فقال: ﴿امْرَأَتَ﴾، يشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، فاستعمل عند ذكر المؤمن وزوجته كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ (الأحزاب:٥٩)، بينما الكافرة قال عنها: ﴿امْرَأَتَ﴾، لأنها لو كانت زوجة مؤمن كامرأة نوح ولوط، فقد قطع الله العلاقة والصلة بين المؤمن والكافر، ولذا ذكرها القرآن بلفظ الأنوثة المجردة دون لفظ المشاكلة والمشابهة، وكذا قال سبحانه عن المؤمنة امرأة الكافر: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (التحريم:١٠-١١)، أفاده ابن القيم بمعناه، فإن قيل: فلم قال سبحانه عن زوجة

زكريا عليه السلام: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم:٥)، وعن زوجة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ (الذاريات:٢٩)، قلتُ: أجاب السهيلي: بأنّ ذكر المرأة أليق في الموضعين، لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة، فذكر المرأة به أولى، لأنّ الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع؛ لا من حيث كانت زوجًا.

فإن قيل: فلم قال عن امرأة لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد:١-٤)، مع أنها كافرة مثله، قلتُ: لأنّ الزواج حلية شرعية، وهو من أمر الدين، فجرد القرآن الكافرة منه، أفاده السهيلي.

٦٠ ـ قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ (نوح:٢١-٢٢)، ولم يقل (كبيرًا) ليدل على مزيد وعظم كِبَر هذا الكيد، إذ التشديد يدل على ذلك، كما أن حركة الضمة (كُبّارًا) تدل على ذلك، فحركة الضمة تستعملها العرب في الكلمات التي تدل على ثقل أو مشقة، وحركة الفتحة، والكسرة فيما هو أخفّ إلاّ أنّ الكسرة أقوى.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ «فتأمل كيف جعلوا (الحِب) بكسر الحاء للمحبوب إيذانًا بخفة ـ المحبوب على قلوبهم، ولطف موقعه من أنفسهم، وجعلوا (الحُب) بالضمة إيذانًا بثقل حمل الحب ولزومه كما يلزم الغريمُ غريمه، وحركة الضم أقوى من حركة الكسر، وكذا في (الذِبح) بكسر الذال للمحل المذبوح، و(الذَّبح) بفتح الذال لنفس الفعل، ولا ريب أنّ الجسم أقوى من العرض، فأعطوا الحركة القوية (الكسرة) للقوي، والضعيفة (الفتحة) للضعيف، وقد ذكر لي شيخ الإسلام فصلاً عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى، وتناسب الحركات لمعنى اللفظ، وأنهم (أي العرب) ـ في الغالب ـ يجعلون

الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف، والمتوسطة (الكسرة) للمتوسط.

٦١ ـ قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: ٤٣)، فقال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، ولم يقل (اسجدي مع الساجدين)، بل قال: ﴿وَاسْجُدِي﴾ فقط، وفي ذلك دقةٌ بالغة، إذ ذكر صلاتها في بيتها بالسجود لأنه أفضل للمرأة من صلاتها في المسجد، فذكر صلاتها في المسجد بقوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، لأنّ الركوع أقلّ فضلاً من السجود، وصلاتها في بيتها أقلّ فضلاً من صلاتها في المسجد، أفاده ابن القيم بمعناه.

٦٢ ـ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، فقال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ﴾، ولم يقل (أتممتُ لكم نعمتي)، (أكملت عليكم)، وفي ذلك دقة بالغة ـ، إذ إتمام النعمة يناسبه قوله (على)، لتدل على الاستعلاء والشمول والإحاطة، والإكمال يناسبه قوله: ﴿لَكُمْ﴾، لأنّ اللام تدل على الاختصاص، وكمال ديننا خُصت به أمتنا دونه الأمم، فديننا أكمل الأديان.

وتأمل دقة إضافة الدين إليهم: ﴿دِينَكُمْ﴾، لأنهم القائمون به المقيمون له، وإضافة النعمة إليه سبحانه: ﴿نِعْمَتِي﴾، لأنه هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم، أفاده ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

٦٣ ـ قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٨٧)، وفيها دقةٌ بالغة، إذ ثنّى قوله: ﴿تَبَوَّءَا﴾، لأنّ موسى وهارون هما الرسولان المطاعان في بني إسرائيل، ثمّ جمع في الأمر بتوجيه البيوت نحو القبلة ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، وفي الأمر

بإقامة الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ للزوم ذلك للجميع، ثمّ أفرد في التبشير لأنّ موسى عليه السلام هو الأصل في الرسالة، فهو الأصل في البشارة، أفاده ابن القيم - قلتُ: ولقائلٍ أن يقول: أفرد الأمر بالبشارة لموسى عليه السلام لأنه كليم الله الذي اختصه الله على أخيه هارون وفضّله، فاختصه بالتبشير أو يُقال لأنه هو أول مُبلِّغ بالبشارة، فناسب أن يكون هو الأصل فيها.

٦٤ - قال تعالى للكفار: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ (يوسف: ٤٠)، مع أنهم عبدوا المسميات، ولكن من أجل أنهم نحلوها اسم الإله باطلاً كاللات والعزى، وهي مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها في الحقيقة، وليس لها من الإلهية إلا مجرد الأسماء لا حقيقة المسمى، فما عبدوا إلا أسماء لا حقائق لمسمياتها، فناسب أن يقول سبحانه: ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾، ليكون أبلغ في النفي، فإنه لا حقيقة لإلهيتها بوجه، وما ثمّ إلاّ مجرد أسماء، أفاده ابن القيم.

٦٥ - قال تعالى لآدم عليه السلام وهو في الجنة قبل المعصية: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ (طه: ١١٨-١١٩)، قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى، والواقف مع القالب يخيل إليه: أنّ الجوع يقابل بالظمأ، والعُري بالضحى، والداخل إلى بلد الفقه عن الله: يرى هذا الكلام في أعلى الفصاحة والجلالة، لأنّ الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى، لأنّ الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً أفاده ابن القيم - رحمه الله - بحروفه، قلتُ: وبدأ بنفي ألم الظاهر، لأنّ المتنعم إنّما يعرف تنعمه من عدمه أولّ ما يُعرف من ظاهره.

٦٦ ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣)، فقال: ﴿ جَمِيعًا ﴾ ولم يقل: (كلّها) ليدلّ على أنّه يغفر الذنوب كلّها حتى لو اجتمعت في عبدٍ.

٦٧ ـ قال: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤)، فقال ﴿ تَأْمُرُونِّي ﴾ ليدلّ على قوة دعوة أهل الباطل إلى باطلهم، فهم يأمرون به، ويلزمون النّاس به، فعجبًا والله ـ لمن ينتسبون إلى الدعوة، ويقولون: (ليس الإسلام وحده هو الدين الصحيح)، ويقولون: (كلّ من عبد الله فهو على خير، وإن كفر برسولنا ﷺ)، ويصدّقون ـ لجهلهم ـ ما يزعمه الكفار من حرية الاعتقاد عندهم، وإلاّ فمن الذي وقف لقيام دولة الإسلام في الجزائر؟؟ ومن الذي تصدّى لها في أفغانستان؟؟ ومن الذي تصدّى لها في الصومال؟؟ ثمّ يعيبون على الإسلام محاربة قوة الكفر الغاشمة بمشروعية الجهاد!!

٦٨ ـ قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴾ (المزمل: ١١ - ١٢)، فقال ﴿ لَدَيْنَا ﴾ ولم يقل (عندنا) ليدلّ على مزيد الخصوصية، أي عندنا من ألوان العذاب ما لا يوجد عند غيرنا، فعجبًا لمن يهربون من عذاب البشر، كيف لا يهربون من عذاب ربّ البشر بطاعته؟؟

تنبيه:

كثر استعمال كلمة (لدي) في القرآن، وحيثما وردت كانت في موضع الدلالة على مزيد الاختصاص كقوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (ق: ٣٥)، أي عندنا من ألوان النعيم ما لا يوجد عند غيرنا، وكقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٤٤).

٦٩ ـ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ (الحج:١-٢)، فقال: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» لأنّ المرضعة هي التي باشرت الإرضاع بالفعل، فذهولها عن الرضيع وقت رضاعه دليلٌ على شدة هول يوم القيامة.

وقال ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، ولم يقل: «حامل»، لأنّ الحامل تطلق على المهيأة للحمل، وعلى من في أول حملها، وأما من قيل عنها ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾، فهي من ظهر حملها وصلح للوضع كاملاً أوْ سقطًا، أفاده ابن القيم.

قلت: وجه دلالة وضع ذات الحمل حملها على هول يوم القيامة هو كونها قد تكوّن بها الحبل السري الذي يربط الجنين بها، فكون الجنين يسقط مع وجود هذا الحبل أدلّ على هول يوم القيامة بخلاف الحمل في الأشهر الثلاثة الأولى قبل تكوّن هذا الحبل، فإنَّه عرضةٌ للسقوط بأشياء كثيرة.

٧٠ ـ قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى:٤٩-٥٠)، فقدم سبحانه ذكر الإناث حيث أنّهنّ تؤخرهن الجاهلية، فأراد بيان الخير في ما يرونه لا خير فيه، ونكر الإناث وعرف الذكور ليجبر نقص تأخير ذكرهم بالتعريف الذي يدل على التنزيه والشرف، ثمّ لما ذكر الصنفين معًا في قوله: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، قدم الذكور إعطاءًا لكلٍ من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، أفاده ابن القيم بمعناه.

٧١ ـ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤)، فقال: ﴿قُلُوبٍ﴾، نكرة ولم يقل: «القلوب»، ليدل على العموم، فهو يريد قلوب هؤلاء وقلوب من هم على شاكلتهم، ولو قال: «القلوب» لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة.

ثمّ تأمّل كيف قال: ﴿أَقْفَالُهَا﴾، ولم يقل «أقفال» لأنّ إضافة الأقفال إلى ضمير القلب يدل على أنّ المراد أقفال القلوب المختصة بها التي لا تكون لغيرها، وليس الأقفال المعهودة، بل أراد ما هو للقلب بمنزلة القفل للباب، أفاده ابن القيم بمعناه.

٧٢ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق:٣٧)، فقال: ﴿أَوْ﴾، ولم يقل: «و»، لأنّه مِنَ النّاس مَنْ هو حيّ القلب، فإذا تفكر دلّه قلبه على صحة القرآن وأنّه الحق وشهد بقلبه بما أخبر به القرآن، فإذا ورد القرآن على قلبه كان نوراً على نور، ومِنَ النّاس مَنْ لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلى سماع الأدلة وهو مصغٍ بسمعه، حاضرٌ قلبه ليعلم صحة القرآن، وأنه الحق، أفاده ابن القيم بمعناه.

٧٣ ـ قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ (المدثر:٤٩-٥١)، فقال: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾، ولم يقل «النافرة» ليدل على أنّها من شدة نفورها قد استنفر بعضها بعضًا، وحضه على النفور، فإنّ الاستفعال من الطلب، فكأنّها تواصت بالنفور وتواطأت عليه، أفاده ابن القيم.

٧٤ ـ قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم:٤)، فقال: ﴿قُلُوبُكُمَا﴾، وإنما هما قلبان، وذلك لأنّ العرب إذا أضافوا الواحد المتصل إلى مفردٍ أفردوه، وإن أضافوه إلى اسم مثنى، فالأفصح في لغتهم جمعه، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وإنما هما قلبان، وكقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة:٣٨)، وكقوله تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ (الأعراف:٢٢)، وتقول العرب: اضرب أعناقهما، أفاد ابن القيم.

٧٥ ـ قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى:١)، ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة:٩٦)، ولم يقل: «سبح ربك الأعلى»، «سبح ربك العظيم»،

وذلك لأنّ التسبيح يتحقق بالتنزيه والتعظيم بالقلب، فلما قال: ﴿ بِاسْمِ ﴾، أي سبح متكلمًا وناطقًا باسم ربك؛ ليشمل التسبيح بالقلب واللسان، فيكون المعنى «سبح ناطقًا باسم ربك العظيم»، و«سبح ربك الأعلى ذاكرًا اسمه»، أفاده ابن القيم.

فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، دون الباء، بينما دخلت الباء على قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾، قلتُ: أجاب ابن القيم: بأنّ دخول الباء يدل على أنّ المراد التسبيح الذي يكون معه صلاة، بخلاف التسبيح المجرد فإنه لا معنى لدخول الباء عليه، فقوله: ﴿ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾، أمرٌ بالتسبيح المجرد دون الصلاة، فإن قيل: فما علّة تخصيص جعل تسبيح العظيم مشتملاً على الأمر بالصلاة دون تسبيح الأعلى؟ قلتُ: لأنّ الركوع لا يكون في غير الصلاة بخلاف السجود، فيُشرع للتلاوة، وسجود الشكر، فناسب أن يخص ذكر الركوع دون ذكر السجود بالاشتمال على الأمر بالصلاة.

٧٦ ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (الكافرون: ١-٥)، فجعل قوله عنهم في الحالين: ﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾، باسم الفاعل بينما جعل قول رسولنا أولاً: ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾، وجعله ثانيًا: ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾، أي: مرةً باسم الفاعل ومرةً بالفعل، وذلك لأنّ الفعل يدل على الحدوث والتجدد، بينما اسم الفاعل يدل على الوصف والشأن الثابت، فنفى رسولنا عن نفسه عبادة غير الله سواء بالفعل أو بالوصف ليكون أقوى في النفي، وأما في حقهم فأتى باسم الفاعل الدال على الوصف الثابت الملازم، فكأنه قال: «الوصف الثابت الملازم لمن عبد الله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتًا لكم، إنما هو لمن خصّ

الله وحده بالعبادة، ولم يشرك معه فيها أحدًا، وأنتم لمّا عبدتم غيره معه لستم من عابديه، وإن عبدتموه في بعض الأحيان» أفاده ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولم يقل: «يا أيها الذين كفروا»، ليدل على أنّ الخطاب لمن كان الكفر وصفًا ثابتًا له لازمًا له لا يفارقه، فهو حقيقٌ بأن يتبرأ الله منه، وأن يكون هو أيضًا بريئًا من الله، وكذلك يتبرأ منه المؤمن الموحد، فكأنه قال كما أنّ الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه، فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لي دائمًا أبدًا، أفاده ابن القيم.

٧٧ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق: ١-٥)، فقال: ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، مع أنه لا يطلق عليه أنه حاسد إلا إذا قام به الحسد، وسرّ ذلك أنّ أشد الحسد إذا هيئ الحاسد نفسه السيئة للحسد، وتعمد توجيه سهام حسده إلى المحسود، كما أنّ المرء قد يكون في طبعه الحسد، ولكنه غافلٌ عن المحسود، فإذا تعمد ووجه الحسد إلى غيره، فإن لم يستعذ المحسود بالله، ويتحصن به وبذكره بحيث يدفع من شر الحاسد بمقدار توجهه إلى ربه وإقباله عليه، وإلاّ ناله شر الحاسد ولابد، أفاده ابن القيم بمعناه.

٧٨ ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس: ١-٥)، فقال: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، ولم يقل: «في قلوب الناس» لأنّ الشيطان جاثمٌ في صدر العبد يوسوس إلى القلب منه، فالصدر هو البيت الذي فيه القلب، ومنه تدخل إليه الواردات، ولذا قال سبحانه عن آدم: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ (طه: ١٢٠)،

ولم يقل: «فيه» لأنّ المعنى أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه فدخل في قلبه، أفاده ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

٧٩ ـ قال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (آل عمران:١٥٤)، فقال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾، وقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾، ولم يعكس، وذلك لأنّ الشيطان يوسوس في صدر العبد ليصل السوء إلى قلبه، ويستقر فيه، فمن المناسب أن يتعلق الامتحان والاختبار بما في الصدر، وأما التمحيض والتطهير، فهو لما استقر في القلب، والله أعلم.

٨٠ ـ قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦)، فقال: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾، وقال نقلاً لما قاله يعقوب لابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف:٦)، فقال: ﴿يَعْقُوبَ﴾، قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران:٩٣)، فقال: ﴿إِسْرَائِيلُ﴾، وكل النداءات في القرآن: ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وفي ذلك دقة بالغة؛ إذ كلمة ﴿يَعْقُوبَ﴾، تدل على أنّه قد عقب غيره، فناسب أن يقول: ﴿يَعْقُوبَ﴾، في آية ﴿قولوا آمنا﴾ (البقرة:١٣٦)، لإيراده بعد أسماء الأنبياء والرسل من قبله، فناسب أن يذكره باسمه الذي يدل على أنه قد عقب غيره، وكذا في سورة يوسف ناسب أن يقول عن نفسه: ﴿يَعْقُوبَ﴾، ليخبر ابنه بفضل الله عليه بأن اختار بعض عقبه لأن يخلفه في النبوة كما خلف هو آباءه في النبوة، وأما في النداءات لليهود، فناسب أن يذكره باسمه ﴿إِسْرَائِيلَ﴾، لأن

معناه «الذي صرع نفسه لله أو الذي اصطفاه الله»، فكأنه يقول لهم كونوا كأبيكم الذي صرع نفسه لله، وأطاع الله، واتبع أمره ليصطفيكم مثله.

وكذا في قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ (آل عمران: ٩٣)، إذ حرم على نفسه ما تحبه وتشتهيه تقربًا إلى الله، وهذا من أدل ما يكون على أنه صرع نفسه لله، فناسب أن يذكره باسم: ﴿ إِسْرَائِيلُ ﴾.

٨١ ـ قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (طه: ٨١)، فقال: ﴿ يَحْلِلْ ﴾، بسكون الحاء المسبوق بفتحة، قال سبحانه أيضًا: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (الرعد: ٣١)، فقال: ﴿ تَحُلُّ ﴾، بضم الحاء، وفي ذلك دقة بالغة، إذ العرب تجعل حركة الضمة التي هي أقوى الحركات للكلمات التي تدل على القوة والشدة، وتجعل الفتحة أضعف الحركات للكلمات التي بخلاف ذلك، فتأمل قوله: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾، أتت بالحاء الساكنة المسبوقة بالفتحة (كأنّ الحاء هي المفتوحة) ليدل على أنّ أقل مقدار من غضب الله يحلّ بالعبد كافٍ لضياع العبد، فكيف بأشد الغضب، وأمّا قوله تعالى: ﴿ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ ﴾، بضم الحاء ليدل على شدة وقوة ما حل بهم، ويدل له لفظة ﴿ قَارِعَةٌ ﴾، التي تدل على الشدة، فأي لغةٍ هذه!! وأيُّ كلامٍ هذا!! وأيُّ حلاوةٍ هذه!!

٨٢ ـ قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝١٠ كَلاَّ لا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة: ٧-١٢)، والمقصود بيان أنّ إلى الله المرجع وعنده المستقر، وفي هذا دليلٌ على خلود أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، فلا محيد عنهما.

٨٣ ـ قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: ١٥-١٨)، فقال: ﴿لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، ولم يقل: «شيء» ليدلّ على أنّ الشيء الذي يخفى على الناس (الخافية) لا يخفى في هذا اليوم، فضلاً عن غيره من الأمور.

٨٤ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (القلم: ٤٨-٥٠)، فقال: ﴿تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ﴾، ولم يقل: «أدركته» ليضمنها ـ والله أعلم ـ معنى تدارك يونس عليه السلام لأمره، فكأنه قال: «لولا أن تدارك يونس أمره واستغفر ربه، فأدركته نعمة ربه».

وتأمل قوله: ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، بكسر النون، كما هو عادة القرآن عند ذكر لفظ النعمة مع المؤمن، وقد تقدّم.

٨٥ ـ قال تعالى عن عبده داود عليه السلام لمّا أتاه الخصم، وأجابهم بحكمه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص: ٢٤)، فقال: ﴿وَظَنَّ﴾، مع أنه تيقن أو غلب على ظنه، ليفيد أنّ مجرد ظنّ داود عليه السلام كافٍ ـ لكمال تقواه وخشيته ـ لمبادرته بالتوبة الكاملة الحقة، فكيف تكون توبته مع تيقنه بابتلاء الله له؟!!.

٨٦ ـ قال تعالى عن إهلاكه لقوم لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ (هود: ٨٢)، فقال: ﴿عَلَيْهَا﴾، بينما قال في سورة النمل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ (النمل: ٥٨)، وفي سورة

الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الحجر:٧٤)، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، ووجه ذلك أنه ذكر سبحانه في سورة هود إهلاكه للأمم المكذبة أنفسها، كقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ (هود:٥٩-٦٠)، وكقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ (هود:٦٨)، وكقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود:٩٥)، فناسب أن يذكر إمطاره على القرية نفسها بقوله: ﴿عَلَيْهَا﴾، وأمّا في بقية السور التي ذكرت فيها قصة قوم لوط، فقد ذكر فيها سبحانه إهلاكه للقوم المكذبين أنفسهم، فناسب أن يقول: ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

٨٧ ـ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧)، فقال: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، بالمفرد، وقال: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فذكرهم بالجمع، وفي ذلك دقة بالغة، إذ المهتدون قلّة فناسب إفرادها، وأمّا أهل الضلال فكثرة، كما أنّ ذكر أهل الضلال يناسب ذكرهم بالجمع ليدل على أنهم، ولو اجتمعوا وتحزّبوا على محاربة الحق، فلن يفلحوا.

٨٨ ـ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:٢٦)، فقال: ﴿وَتَنزِعُ﴾، لأنّ أكثر النّاس ـ إلاّ من رحم الله ـ إذا وصلوا للملك تشبثوا به واستمسكوا به، فلا يتركونه إلاّ رغمًا عنهم، حتى كأنهم يُنزعون عنه نزعًا، فناسب أن يقول سبحانه: ﴿وَتَنزِعُ﴾.

٨٩ ـ قال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام ومجادلته عن قوم لوط: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ (هود:٧٤-٧٥)، فبدأ بقوله: ﴿لَحَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿مُّنِيبٌ﴾، بينما قال في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤)، فبدأ بقوله: ﴿لَأَوَّاهٌ﴾، ولم يقل: «منيب»، ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أنّ الكلام في سورة التوبة عن استغفار إبراهيم لأبيه، فناسب أن يبدأ بتأوهه وتألمه على معصية الله التي منها كفر أبيه قبل حلمه، وأمّا سورة هود، فالكلام فيها عن قوم لوط الذين آذوا ابن أخيه أيما إيذاء، فناسب أن يبدأ بحلمه الجميل حتى أنه ليُطلب عدم إهلاكهم عسى أن يؤمنوا، وأما وصفه بقوله: ﴿مُّنِيبٌ﴾، في سورة هود دون سورة التوبة لأنّ أباه قد مات، فلا تتصور منه توبة وإنابة، بينما قوم لوط لم يُهلكوا بعدُ، فأمامهم فرصة للإنابة، وقد عُرف عند الناس أنّ التقي إذا اتصف بصفةٍ أراد للنّاس أن يكونوا عليها، فلمّا اتصف إبراهيم عليه السلام بالإنابة، أراد التأني بقوم لوط عسى أن يتوبوا.

٩٠ ـ قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة:٢٣١)، فقال: ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾، بينما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ (الطلاق:٢)، فقال: ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾، وفي ذلك دقة بالغة، إذ الخطاب في سورة البقرة لأناسٍ أرادوا الإضرار بأزواجهن، فكانوا يطلقونهن حتى إذا قاربن على انتهاء العدة أرجعوهن ثم يطلقونهن، وهكذا أبدًا، فقال: ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾، التي تدل على سوء ما يفعل هؤلاء مع زوجاتهم حتى كأنهنّ

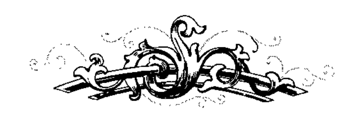
أسيرات يردن أن يُطلق سراحهن، وأمّا آية سـورة الطلاق، فالخطاب فيها لرسول الله وللمؤمنين من أتباعه الذين هم أكـرم الناس مع أزواجهم حتى عند الطلاق؛ ولذا قال: ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾.

٩١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ (هود:٦٩-٧٠)، فقال: ﴿لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾، ولـم يقل: «لا تمتد إليه» لأنّ الآكل ربما لم يمدّ يده إلى الطعـام إذا كان بعـيدًا عنه، فلمّـا قال: ﴿لا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾، دلّ على أنّه وضع قريبًا منهم بحيث لو مدّ أحدهم يده لوصلت إليه.

٩٢ ـ قال تعالى مخـبراً عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (القصص:٢٣)، فقال: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾، ولـم يقل: «وجد عنده» ليضمنهـا معنى الازدحام والتقاتل عليه، فكأنه قـال: «وجد عنده أمةً من الناس مزدحمين عليه»؛ ولذا لم تزاحم المرأتان على الماء معهم.

٩٣ ـ قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن:١٦)، ولـم يقل «الطريق» بل قال ﴿الطَّرِيقَةِ﴾، وذلك لضرورة سلوك الطريقـة التي سلكها رسـول الله ﷺ وأصحـابه في فهم الإسـلام والعمل به، وإلاّ فكم من مـدعٍ لكونه من أهل السُّنّة، وهو أبعد ما يكون عنهـا، فالمقياس الحقيـقي هو مقدار ما يتبع فيه المرء طريقة الصحابة والسلف الصالح في فهم الإسلام والعمل به.

٩٤ ـ قال تعالى لرسوله ﷺ ، ومثله كلّ الخلق، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (يونس:١٠٧) وأمر سبحانه رسوله أن يقول للنّاس ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا﴾ (الجن:٢١)، وفي ذلك دقة بالغـة، إذ قوله ﴿بِضُرٍّ﴾ بضم الضاد يدلّ على أنّ الله قادرٌ على كشف كلّ ضرٍ عن عبده مهما اشتد، وأمّا قوله ﴿ضَرًّا﴾ بفتح الضاد، فيدل على أنّ الرسول لا يملك لنفسه أيّ ضرٍ، ولو قلّ، وقد تقدم نقلنا في تفرقة العرب بين استـعمال الضمة التي تدل على الثـقل، واستعمال الفـتحة التي تدل على الخفـة، فالحـمد لله على نعمـة الإسلام، والحمـد لله على نعمـة القرآن، والحمد لله على نعمة اللغة العربية.








الفهارس

فهرس الآيات

فهرس

الموضوع	صفحة

الموضوع صفحة